العودة إلى
الروح

رقم الإيداع

\

العودة إلى
الروح

بقلم

د. محمد علي يوسف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وعرض للكتاب
بقلم الأديب:
محمود توفيق

الدكتور محمد علي يوسف، له ريشة مغموسة في دواة السكينة، تمتَّعتُ بقراءة عمله الذي يبدو أنه كان يواعِد صفحاته في أوقات الفجر، فتنفَّست الأسطرُ من نفَس الصبح المعطَّر بتسابيح الملائكة في آخر الليل.

«العودة إلى الروح»، هذا عنوان كتابه القيِّم؛ ولكن أي روح يقصد؟ إنه يتكلَّم عن القرآن ككتاب قادر على تغييرنا للأفضل، قادر على إحياء مواتنا، وإضاءة دُروبنا، فيقول: «هل تعاملت مع كتاب الله على أنه روح تحتاج إلى أن تبثَّ في قلبك، وتسمو بها نفسك، وتَسري حيويتها في أوصالك، فتمشي بها بين الناس؛

لتكون ممن قال الله فيهم: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]؟».

من خلال بضع وثلاثين فصلاً، كل فصل مِن الفصول تركَّز في الغالب على قصة من القصص القرآني، عمل الكاتب على سَردِ ما هو معروف جملةً للمسلمين، وهذا تحدٍّ يتَّسم بالصعوبة

من السهل أن تشدَّ انتباه الجمهور بأن تَحكي له ما لا يعرف، أما أن يُخطِّط الكاتب لكسر إحساس القارئ بالاعتياد، فيشعر شعورًا مختلفًا تجاه ما كان يعرف، وتتجدَّد حفاوته به، فهذا ما لا يَقدر عليه كلُّ كاتب.

الشعور بـ«معرفة القصة» هو غالبًا شعور مُضلِّل، إذا ما كان القارئ يقف عند خلاصة «الحكاية»، ولم يكن يَلتفِت لما في ثناياها من كشفٍ للطبائع البشرية على اختلافها، التي أولاها الدكتور اهتمامًا واضحًا، للدرجة التي تساعد القارئَ على التوقف والانتباه ومساءلة نفسه عن مكانه لو كان من ضمن هذا المشهد؛ لذا يمكن القول: إن الكاتب اشتغل على تحقيق «المعرفة العميقة»، تلك المعرفة المنتِجة القادرة على تغيير الناس للأفضل، مِن خلال شكل سرديٍّ مُلتزِم وجاذب.

هذه المعرفة قد حقَّقها بشروط فنِّ القصة في عدة فصول، بإبحارٍ ساحلي آمِنٍ ووديع، لم يَنجرِف معه السردُ الديني بعيدًا عن شواطئ السند، ولم يعتمد الكاتب على مجداف «التصرُّف»، فيضع في فصوله مفاصلَ سردية مما لا دليل عليه، بل اعتمد في الجملة على رياح «الحقيقة» لتسْيِير عمله؛ إنه يصنع المشهد الديني المؤسَّس على ما ورَد في كتاب الله بعناية وبإحساس عالٍ، وبغير أن تَسحبه نشوة «التفنُّن» إلى فضاءات الاختلاق.

ويُمكن النظر لعمله باعتباره مُنجَزًا أدبيًّا من ناحية حسنِ التصوير، وجمال العبارة، والقدرة على الجذب والتأثير، مثلما أن هذا العمل هو في أصله وبُنيانه منتجٌ دعويٌّ رشيد، قائم على الشرح والتعليم، وقد استطاع الكاتب أن يَزنه بين جماليات الخطاب الأدبي وإجماليات الخطاب الدعوي، وغاية القول: إنه لم يكن يعمل على تكييف حالة وجدانية مؤثِّرة يُحلِّق في فضائها القارئُ لتحقيق حالة من السمو الخالي من الاستيعاب والتدبُّر؛ كان معنيًّا في كل فصل وكل فكرة أن يكون مُثمرًا ومُحددًا؛ من خلال عرض جميل باعثٍ على الراحة.

وقد اجتاز هذه التجرِبةَ في التأليف بطريقته الهادئة، والعميقة، وبتقسيم يَمنع الشعور بالإنهاك، وبإحساس قويٍّ بالمسؤولية؛ حتى يَجلس إليه قارئه بودٍّ، وثِقة، وتفهُّم، للدرجة التي شعرت معها أنه بأسلوبه الجَميل السَّلِس وإشفاقه على الناس، وبُعدِه عن الحشوِ، وبالْتقاطه الخبيرِ للفوائد - قد مدَّ يده رغم المسافات البعيدة ووضعها على كتف القارئ، لم يكن يُحاصِر قارئه، ولم يَنصِب له شراكًا تختبر قدرته على التركيز، أو تُناقِش حجمَ معلوماته، بل كان يتجوَّل معه بروح مرشدٍ طيب يتَّسم باللطف والاستيعاب.

لم يكن الدكتور محمد علي يوسف فقط يتعمَّق في المعاني الثريَّة للقصص القرآني، الذي يتَّضح من الأسلوب طولُ عهده بهذا القصص وعمقُ محبَّتِه له؛ إنما كان يَستشعِر المشهد حدَّ التبصُّر، كان يُميِّزه إحساسٌ عالٍ بالمشهَد وبقوة حضور الشخصيات.

ففي رسمه للمجاميع على سبيل المثال كان متألِّقًا بوحي مِن تأمُّلاته الطويلة في دنيا الناس، أكاد أجزم بذلك، فهذا الرسم كان له دلالات عميقة على نمط تفكيره وهواجسِه إزاء الجماعات البشرية، تلك الجماعات المُترهِّلة المُتكالِبة، التي تُوحي له بالسذاجة المُفرِطة والغوغائية، والغباء المُحكَم، وضعف التبصُّر،

فلننظر في سطوره لقلَّة حيلة جماعة اليهود في التِّيه، وقد رسم التغيرات الكبيرة التي طرأتْ في تلك المدة الطويلة عليهم، التي حوَّلت شبابَهم إلى شيوخ، وأطفالَهم إلى شباب:

«وكذلك للقوم الذين مسخَهم الله قِرَدة، أين وجوههم البيضاء الوسيمة؟ وأين بنيَتُهم الصحيحة السليمة؟ وأين ظهورهم الممشوقة المستقيمة؟! كيف تحوَّلت إلى تلك الوجوه المُشعِرة الدميمة، والبنية الشائهة المُنحنية المُنفِّرة الذميمة، ذات الحركة الخفيفة السفيهة؟».

ثم نظرة لهؤلاء المتجمِّعين على باب نبي الله لوط يَطلبون ضيوفه: «هُرع الكلُّ إلى بيت لوط، يُمنِّي نفسَه بالفريسة الشهية التي هو مُقبِل عليها.

لقد تعالى ضباب الشهوة ليطغى على كل شيء، تعالت الطرَقاتُ المتتابعة على باب لوط، مختلطةً بضحكات ماجنة رقيعة؛ تلك التي يُطلِقها المُخنَّثون وأشباه الرجال، افتح يا لوط، افتح الباب وإلا فسوف نقتحمه»، وقوم نبيِّ الله إبراهيم وهم عاكفون على أصنامهم: «تعالت أصوات الداعين والمبتهلين في هذا الجمع العظيم، الذي اكتظَّ به ذلك الجزء من المدينة البابلية

العتيقة، وما بين راكع وساجد ومقبل بقربانه يذبحه، اجتمع أهل تلك المدينة في ذلك المعبدِ العظيم، هذا يبكي ويبتهل لعشتار - ذلك الصنم ذو الرأس الكبيرة والبنيان المهيب - وذاك يمسح بيديه وثيابه على ساقَي مردوخ - ذاك التمثال متقن الصنع، الذي يجسد كبير الآلهة عندهم - وهذا مظلوم جاء إلى» أي «- إله العدل - ليقتص له ممن ظلمه، وتلك المرأة جاءت برضيعها الباكي تستشفى لدى هذا المعبود الحجَرِيِّ الذي خُصِّص للشفاء، الجميع في شغلهم بمطالبهم وحاجاتهم التي طرحوها وانطرحوا خلفها، طامعين في الإجابة والبركة مِن آلهتهم»

يُمكنني أن أتكلم بثقة عن قلقِه وهواجسِه تجاه الفقر الروحي المُدقِع لَجاميع العصاة، الذي يَنحدِر بهم لدرك الحيوانية؛ مما جعل سطورَه تُحذِّر بشكل فنيٍّ غير مباشر من الاغترار بالجَماعة، وتحضُّ على تحصين النفس من أمراضها واعتيادها البليد؛ إنه يحارب التأثير السلبي الذي تَفرضه الجماعة على الفرد بمُسلَّماتها الوهمية المثبِّطة، وهو يصرِّح بذلك في كتابه: «لا يضرُّ المرء إن ضلَّ كلُّ مَن حوله، ما دام على الحق الذي أمره به ربه؛ ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]؛ تستوقفني طويلاً تلك الآية وما قبلها، يَستوقفني ما بها من بناء متفرِّد للشخصية الإسلامية التي لا يَقبَل صاحبُها أن يكون إمَّعة، مهما كانت الظروف ومهما تزايدت عليه الضغوط».

والكاتب يرسم بعناية تلك «الدعة القاتلة»، والشعور المُضلِّل بالاستقرار والرضا، كما لاحظتُ ذلك في قصة قارون - على سبيل المثال -: «برزَتْ مِن خلفِ أستار الهودج الراغد المتمايل الأنيق على ظهر الناقة الكوماء، يدٌ مُثقَلة بالحُلى الماسية والأساور الذهبية المرصَّعة بالدرِّ والجواهر واليواقيت، يدٌ ناعمة، لا تبدو عليها خشونة المعاناة، ولا ترتسم عليها خطوط الكدح، ولا تَشققُّات السعي والكد والشقاء، يدٌ لم تتعوَّد يومًا عطاءً، ولم تألف بذلاً، إنما يدٌ لم تعتدْ في حياتها إلا الأخذ، ولم تألف إلا ملال التقلب بين فاخرِ المتاع، ولم تَعرف جهدًا إلا في حمل السوط الذي تُلهب به ظهور العبيد والرعاع! مُشعِرة هي، كأيدي الرجال، لكنها رجولة كادَ يُخفيها خلف لَمعان الذهب، ويَحجبها ببريق الجوهر، وفخامة الحجَر الكريم، يَخلب الألباب، ويكاد يخطف الأبصار».

وكما اهتمَّ بحماقة الجماعة، اهتمَّ بحماقة الفرد المتكبِّر العنيد؛ كان قادرًا على تتبُّع آفات النفس البشرية التي تنتقل من جيل إلى جيل؛ لتصدَّ البشرية عن نور الحق، هذه السلسلة المُذهِلة للعناد التي تجعل مُكابرًا من القرن الواحد والعشرين يَنتمي بصِلةٍ وثيقة بمُكابر من عهد نبي الله نوح؛ هذا العناد، وهذا الرفض المجنون للأمر الواقع، الذي يدفَع بالإنسان لحالة خصومة غبيةٍ مع الحق وأدلته الساطعة، تَصِل بالمعاند إلى التعجيل بالنهاية، مثلما حدث في قصة الغلام الموحِّد مع الحاكم مُدَّعي الألوهية: «لقد خرج الحلُّ مِن فم الغلام نفسِه قائلاً: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمُرُك به،

قال الملك مُندهِشًا مما يحدث: وما هو؟ ردَّ الغلام ضاربًا مثلاً لأروَع معاني الإقدام والفداء :تجمعُ الناسَ في صعيد واحد، وتَصلبني على جذع، ثم خذْ سهمًا مِن كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلتَ ذلك، قتلتَني»، لله درك من مقدام! تَدلُّهم على طريق الخلاص منك !تُهلِك نفسك! ستُفارق الدنيا شابًّا يافعًا، لم تأخذ منها حظك بعد، لم تزل أمامك بمباهِجِها ومتاعها، كيف زهدتَ في كل هذا؟ كيف واجهتَ خوفَك البشري؟ هل الرسالة وحَملُ الحق يفعل ذلك بالمرء؟ كيف تُضحِّي بنفسك، وتجود بها بسخاء هكذا؟! لكنها ليست تضحية مجانية؛ إن المتأمل في سلوكك، يُدرِك بُعدَ نظرِك، وغلوَّ ثمن فدائك، لقد اشترطت شرطًا لو أن هذا الأحمق فكَّر هنيهة، بعد ما رأى من كراماتك، وحفظِ الله لك، لما قَبِلَه أبدًا، لكنه الغضب حين يُعمي الأبصار، والكِبر حين يَطمس البصائر، هيا أيها المِلك الغبيُّ أطِعِ الغلام، واكتُبِ الأسطرَ الأخيرة في رواية تألُّهك، وتعبيد الناس لك، هيا يا ناقص العقل، مهِّدِ الطريق لأمةٍ كاملة تَكفُر بعبادتك، وتوحِّد الله رب الغلام، وهذه الخصومة مع الحق ورفض أدلته الساطعة،

دفعت فرعونَ للانتحار بجيشه: «إن كان موسى قد عبَر، فما يمنعنا من العبور خلفه؟! إنها مجرَّد ظاهرة طبيعية لعلنا فقط لم نسمَع بها من قبل، هيا أيها الجبناء، هأنا أتقدَّمُكم، ولا يرهبني هديرُ الماء، ولا ظلال مُتجوِّل الحيتان، تقدَّمَ الجندُ على مضض حين رأوا قائدهم الأحمق يقتحم تلك المخاضة الراعبة».

يرصد الكاتب بريشته تلك اللحظةَ الفارقة التي تُغيِّر فيها قدرةُ الله ومُعجِزاتُه رتابةَ المعهود البشري، كغرق فرعون وجنوده، بأسلوب هادئ غير زاعق، بل ومقتصد جدًّا، إنه يمر على المعجزة الإلهية بعين مؤمن، كان هذا الأسلوب وسيلةً للتعبير عما يَجيش بصدره من إيمان عميق بأن كل شيء هيِّن على الله، هو اختار أن يتفاهم مع الناس بشأن مَشاكلهم وأنماط تفكيرهم، أما قدرة الله، فكانت شيئًا أجلَّ عنده من أن يفصِّلها للناس «فجأة: الْتأم البحر، انطبَق، هكذا وبدون مقدِّمات، عاد البحر لسابق عهده وارتطم جبَلا الماء! غاب الجند في الأعماق، وكتمَت الأمواج صرخاتهم، فلا تُحسُّ منهم من أحد أو تسمع لهم رِكزًا، ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥]، صوت مكتوم مُنفرِد هو المسموع الآن؛ صوت يُغرغِر مُختنقًا بعبرات تَختلط ملوحتها بملح البحر وطميِه الذي يدسُّه جبريل في فمه الفرعوني المنعَّم، ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]»؛ والنار التي لم تؤذِ نبيَّ الله إبراهيم، «فلتُذِب النارُ القيودَ، وليَخرج الخليل، وليمشِ بين الناس لم يُصبْه مسٌّ مِن لهيب».!

إن الصياغة الهادئة التي يتميَّز بها الكاتب، التي يتمُّ فيها مثلاً طرح السؤال بعدة أساليب، لا تمثِّل حشوًا؛ إنما هو إيقاع لاستمالة القارئ، شيءٌ يُشبه ترديد الطيور الآمنة، وسيلة صوتية يتسلَّل بها الكاتب لوجدان

جمهوره، وأروع ما في الأمر عندما يأتي هذا تقديمًا لتسابيح داود ﷺ الذي كان يؤثِّر في الطير والجبال: «محراب مَن؟! أهو محراب أحد العبَّاد الذين اشتهرت بهم سلالتكم؟ أم هو محراب رجل مِن زُهَّادكم المنقطعين عن الدنيا، المنعزلين في صوامعهم أبدًا؟».

كنت مع كتاب يعمل كاتبه على الهمَّة، يَعمل بصبر وتؤدة على حك الصدأ الذي علاها على مرِّ السنين، كتاب يَحتفي بالإرادة الإنسانية من خلال نماذجَ ربانيةٍ مضيئة من الأنبياء والصالحين، وبه حفاوة عميقة بإرادة المخلصين وأفعالهم الإيجابية الحاسمة، هذا من خلال لغةٍ خضراء،

ومع فهذا فهو قادر بها على أن يجتاز بقارئه مجازات الشوك والحَصى والدم، وهو كتاب يمكن أن نُسميه باعتباره سجلاً لانتصارات الحق على الباطل، يمكن أن نُسميه: «دفتر يقين»، وهو أيضًا رحلة استكشاف، يبدو فيها الكاتب كالأثريِّ المولَع بفنِّه، فلا يأخذك إلى المتاحف؛ حيث القطع المحفوظة المرقمة، ووسائل الإبهار الصاخبة والمفتعلة،

بل يذهب بك عبر سراديب العتمة، ومغاوِر الرهبة، وصمتِ الخَلاء العميق، إلى مناخ القطعة ومَوطنِها الأصيل، إنه يفعل ذلك بالمعنى، لا يضعه بمعزل عن تاريخه الكُلي والأشياء الأخرى المرتبطة؛ إنما يأخذك معه للذهاب إليه،

أنا شخصيًّا أعلن سعادتي بالتجول معه في هذه الجولات الطيبة من خلال هذا الكتاب، الذي يَمتلِك سرَّ استدعاء القارئ لأكثر من قراءة واحدة، من خلال حالة التنبيه التي يُتيحها، بصوت يبعث على يقظة ندية بغير إزعاج.

(مقدمة)

العودة إلى الروح
(مقدمة)

«روح من الله، ونبراس حياة، بل طوق نجاة، فهل من لبيب يتلقاه؟!»

فارق كبير جدا بين الحي والميت..

الأول مفعم بالحركة والحيوية، تسرى في بدنه حرارة الحياة، له تأثير فيما حوله وفيمن حوله.

بينما الثاني جثمان يابس متحجر، تجمدت في أوصاله برودة الموت الساكنة التي تتلفع بالصمت والجمود.

فارق كبير جدا يعرفه كل من تعامل مع الموت وشهد منظر الجثة التي تقلب يمنة ويسرة فلا يتحرك فيها ساكن، وهى التي كانت منذ لحظات تملأ الدنيا صخبا ونشاطا!

هذه المقابلة بين الموت الحياة طالما ضرب بها الله جل وعلا ورسوله ﷺ الأمثال.

نعم تكرر هذا المثال في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾..

و يقول: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾..

و يقول رسوله ﷺ: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت**»، رواه البخاري.

هذه نماذج سريعة تبين تلك المقابلة بين حالة الحياة بحراكها وحرارتها وبين حالة الموات بسكونها وبرودتها..

والمتأمل في تلك المقابلة يعجب من هذا التضاد الرهيب والبون الشاسع بين الحي والميت، وكيف أن الحال يتبدل وينقلب الوصف رأسا على عقب بالانتقال من الأول إلى الثاني؛ فيخبو بريق الحياة في العينين حتى يختفي تماما، وتتيبس الأطراف، وتسرى في البدن تلك البرودة الصامتة، ويتحول في لحظات إلى جثة هامدة..

كيف انتقل من هذه الحالة إلى تلك؟!

بشيء واحد نزع منه فصار إلى ما صار إليه.

لقد نزع السر الذي جعله الله من أمره وفى علمه.

لقد نزعت الروح!

فلما نزعت حدث كل هذا الانقلاب في حال من نزعت منه.

الروح هي أصل وسر تلك الحياة التي تنبض في العروق، والبريق الذي يلتمع في العيون، والحركة التي يختلج بها القلب، والحرارة والحيوية التي تسرى في جسد الحي ومتى ما نزعت خبا كل ذلك.

هل تتصور أن الله جل وعلا سمى الوحي المنزل بتلك التسمية التي تحمل دلالة على سر الحياة؟!

سماه بـ «الروح»

نعم الله جل وعلا ذكر أن الوحي المنزل هو روح من أمره.

ما أعظم الاسم وما أعجب الوصف.

لهو في ظني أعجب ما سُمى به القرآن وأخطر ما به وصف.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾..

لقد وصف القرآن بأوصاف كثيرة وبليغة

فهو النور المبين وهو البيان والتبيان وهو الشفاء والرحمة للمؤمنين وهو الهدى والفرقان بين الحق والباطل وهو أحسن الحديث والموعظة والبلاغ وغيرها من الأوصاف والمسميات التي وصف الله بها كتابه العزيز وسماه بها. لكن تسميته بالروح لها قيمة مختلفة..

لها دلالة تحتاج إلى وقفات..

ويكأن القلوب من دون القرآن ميتة، والنفوس من دون القـرآن يابـسة متجمدة، والفكر من دون القرآن بارد ساكن.

باختصار مؤمن من دون قرآن عبارة عن جسد خاوٍ من الروح.

هل نظرت من قبل للقرآن هذه النظرة؟

هل تفاعلت معه من هذا المنطلق؟؟

هل تعاملت مع كتـاب الله عـلي أنـه روح تحتـاج إلى أن تبـث في قلبـك وتسمو بها نفسك وتـسرى حيويتهـا في أوصـالك فتمـشى بهـا بـين النـاس لتكون ممن قال الله فيهم: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾..

وليس كمن قال فيه: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾.

هل فعلت؟ وهل أنت فاعل؟

نحتاج أيما حاجة لأن ننظر إلي القرآن هذه النظرة، وأن نتعامل معه مـن منطلق مختلف عن منطلق كثير من الناس الذين لا يتعاملون معه إلا كترانيم لا يفقهونها أو كوسيلة لتحصيل الثواب هي مع حسن مقصدها تظل هديـة وكم من أناس شغلتهم الهدايا عن الوصايا والفروع عن الأصول.

القرآن في الأصل كتاب تغييري مفترض أن تنقلب حياة المرء رأسا على عقب -للأفضل طبعا- إذا سرى فيها، وتسربت إلى أركانهـا آياتـه وتـسربل بنورها واقعه.

كم من قلوب كانت متشحة بالسواد ونفوس ميتة قد أحياها الله بهذا الكتاب..

كم من بعيد عن الله مسرف على نفسه مرضيا لهواه هداه الله بتلك الروح من أمره..

أكرر..

إن هذا القرآن كتاب منهج وتغيير فلا ينبغي أن يعامل على أنه فقط وسيلة لتحصيل ثواب التلاوة..

لقد ذكر الله أنه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾... وتقدير الكلام في الآيات: لكان هذا القرآن.

تأمل هذه الأحداث الجسام التي تكاد تكون مستحيلة؛ من تسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى..

هذا القرآن قدرته التغييرية كفيلة بإنفاذ تلك الأفعال الكونية الجسيمة بل وما هو أعظم منها..

فهل تكون قلوبنا أقسى من جبال راسيات التي لو أنزل عليها هذا القرآن لخشعت وتصدعت؟!

إن شاء الله لن تكون كذلك.

ينبغي علينا فقط أن نشعر بهذه الحاجة الملحة للعودة إلى القرآن..

بل إلى عودته إلى قلوبنا التي شارف بعضها على الوفاة الإيمانية!

ينبغي أن نتناول القرآن من منطلق العودة؛ عودة الروح إلينا..

بل وعودتنا إليها..

هذا ما نتناوله في هذا الكتاب..

نقف مع آية من آياته أو قصة من قصصه أو مثل من أمثاله الجامعة المانعة فنستطرد حول المعاني ونطوف في ظلال المشاعر ونرفل في نعيم المبادئ التي تبث من خلال هذا القرآن العظيم..

هي محاولة لإحياء ما مات في القلوب والعقول من المعاني الإسلامية والمشاعر الإيمانية والمبادئ القرآنية من خلال إعادة بث الروح إليها وشهود تلك الآيات كأنها رأى عين..

نعيش مع أبطالها..

نحزن لحزنهم وتتهلل أساريرنا لفرحهم ونواجه معهم الظالمين والطغاة ونصدع معهم بكلمات الحق التي قذفوها فى وجه الباطل..

نبحر مع نوح ونسمو مع إبراهيم ونصبر مع أيوب ونسبح مع داوود ونصمد مع الغلام فى وجه صاحب الأخدود ونتزلزل مع المؤمنين فى مواجهة الكفر والجحود..

نتنقل من مشهد إلى آخر ونطوف بين قصة وأخرى وندور مع المعانى والأمثال حيث دارت باذلين وسعنا للعودة..

العودة إلى الروح..

فهل عسانا نعود إليها؟!

وتعود إلينا؟

أقسى من الحجارة

(١)

أقسى من الحجارة
(١)

«قلوب أقسى من جدر البيوت، ويقين أوهن من بيت العنكبوت»

جثة ملقاة على قارعة الطريق!

هكذا بدأ ذلك اليوم العصيب..

ويا له من يوم..

حين يكون في مطلعه جريمة قتل، فهو بلا شك يوم غير عادى..

تجمهر الناس حول الجثمان الذي رقد في بركة من دمائه، وبدأ الحضور يضربون أخماسا في أسداس..

ترى من ارتكب هذه الجريمة؟!

الرجل لم تكن له عداءات مع أحد..

مجتمعهم الصغير والظروف التي يمرون بها لا تحتمل مثل هذه الجرائم..

لا يحتمل هذا المجتمع الضيق أن يجوب أرجاءه قاتل سفاك دماء..

لابد أن يعرفوا فورا من القاتل..

من أراق دماء ذلك التاجر الثرى!

هل هو سارق عادى، أم أنها خصومة لا يعلمون عن أبعادها؟

بدأت نظرات الشك تطل من العيون، وانتقل تحديقها من الجثة، إلى تحديق في بعضها البعض.

هل هو ابن أخيه ووريثه الوحيد؟

أم هو جاره الجشع المعروف بطمعه وحبه للمال؟

لعله صديقه وكاتم سره، فهو من يعرف مكان ماله..

ربما هذا أو ذاك أو هذه أو تلك..

بدأت الهمهمات المتخافتة الحائرة..

الشك يسري بينهم كالنار في الهشيم..

لابد من حل سريع يقطع هذا الشك بيقين..

الريبة تعصف بهم، والأمر يكاد يتطور إلى تراشق صريح، ومن ثم إلى فتنة لا قبل لهم بها..

فلنذهب إليه..نعم هذا هو الحل الوحيد..

إنه من يستضيء بنور الوحي الجلي، ويسترشد بهدى الرب العلي..

نذهب إليه ونرضى بحكمه..

ولكن متى رضينا بحكمه؟

متى أنصفناه وصرفنا عنه إيذاءنا؟

متى أطعناه ولم نتمرد عليه؟

هيا، هيا يا رجال، لا داعي للجدال..

الرجل نبي، والأنبياء دأبهم الصبر، وسبيلهم الحلم، وخلقهم الأناة، ولطالما صبر علينا، وتحمل عصياننا وتمردنا، وسيفعل هذه المرة أيضا..

هذا هو الظن به..

هيا دعونا لا نضيع وقتا، ولنرسل إليه من يعلمه بما حدث، لعله يدلنا على من قتل الرجل، وننتهي من هذا الشك والجدال الذي يعصف بالقوم، ويؤجج الفتن والجدال.

لم تمض دقائق إلا وقد ظهر في الأفق هو وغلامه..

ها قد أتى بمشيته الوقور، وسمته المهيب، متوكئا على عصاه يتقدمه الغلام..

لقد جاء كما هو الظن به..

رغم كل ما فعلناه معه، لم يتأخر..

هكذا الأنبياء..

وأولئك هم المرسلون..

لقد تناسى الإساءة الأخيرة، وغض الطرف عن حقارة قولنا القريب،

حين قعدنا، وقلنا له: اذهب أنت وربك فقاتلا..

حين خذلناه ولم ندخل الأرض التي كتب الله لنا..

وها نحن في التيه، وها هو قد دنا أجله، بينما يلتهب شوقه للأرض المقدسة، دون أن يدخلها..

لكنه جاء..

لقد قرر مساعدتنا..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ ﴾..

ماذا تقول؟!

أجئنا بك لهذا؟!

أتمزح معنا؟!

أم تتخذنا هزوا؟!

تعالت تلك الصيحات المتأففة من بنى إسرائيل، بعدما سمعوا عبارة موسى..

ياجحودكم..

بل يالوقاحتكم..!

الرجل جاءكم وحكم بينكم..

ليس بحكمه، إنما بحكم ربكم..

لقد قال إن الله يأمركم، ولم يقل إني آمركم..

أفلا تعقلون؟!

إنه أمر الله..

ربكم..

مولاكم الذي أراكم آياته..

وهذه العصا التي في يده، أو ليست خير شاهد على صدق محدثكم؟!

ألم تروا الآيات التي أجراها الله لكم بها؟

ألم تروا عيون الماء العذب تتفجر من الأرض، بعد ضربة منها؟

ألم تشهدوا فلق البحر فرقين، بضربة أخرى من ذات العصا؟

ألم تتأملوا عروقها اليابسة وهى تنبض بالحياة، وتستحيل أمام أعينكم إلى ثعبان مبين، يلقف ما يأفك عدوكم؟

ثم بعد كل هذا تتهمون نبيكم بالاستهزاء بكم..

بل بالكذب..

إنه لفظكم يحمل في طياته التكذيب..

لقد قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ﴾، فقلتم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ﴾..

و ما يكون هذا إن لم يكن تكذيبا بأمر نقله عن مولاه؟

سحقا لكم، وبئس ما قلتم..

﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾..

كان هذا هو رده عليهم..

تعوذ بربه من تلك التهمة الشنيعة..

تعوذ أن يكون ممن يقولون على الله ما لا يعلمون..

من الذين يتخذون آياته وأوامره هزوا..

وهذا أعظم الجهل بلا شك..

جهل بمقام الله، واستخفاف بحرماته حاشا وكلا أن يوصم به نبي مكلم.

ربما لا يدرك أمثالكم ذلك، وقد تعودتم التحريف، وامتهنتم الكذب، واستحللتم التدليس.

هيا أيها الجاحدون المتنطعون.

نفذوا أمر ربكم، وكفوا عن التعنت مع نبيكم.

اذبحوا بقرة..

مجرد بقرة..

﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ﴾..

عما تسألون أيها المجادلون؟!!

لقد قال بقرة، أفلا تفهمون..

أم أنكم تستكبرون؟!

إنها بقرة، مجرد بقرة؛ أي بقرة..

و لماذا تقولون: ربك..

عجبت لحرفكم..

أهو ربه وحده؟

أوليس بربكم أيضا؟!

أفلا تعتزون بالكلمة فتنسبونها وتنتسبون إليها!

لكنه دأبكم، وديدنكم، وخلقكم..

إن كنتم تصرون على هذا التنطع والتقعر والتكلف، فتحملوا إذن نتائجه..

﴿ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾..

هاهو يكرر أهم معايير الأمر..

فاسمعوا، وتأملوا، وأزيحوا الوقر عن آذانكم، وكسروا طبقات الران من فوق قلوبكم، وافهموا هذه الكلمة التي تقرع مسامعكم

﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ ﴾..

من الذي يقول؟؟

إنه الله..

الله هو الذي يقول..

هذا أمر منه فانتبهوا..

لكن من يفهم؟ ومن يعي؟

مرة أخرى تسمعونها:

﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ﴾..

مجرد بقرة..

لكن فليشتد الأمر عليكم، ما دام هذا ما تريدونه بتكلفكم..

إنها بقرة متوسطة السن؛ ليست طاعنة مسنة، ولا بكرا فتية..

لم يزل الأمر سهلا ميسورا..

البقر كثير، والأعمار متنوعة، فاختاروا أية بقرة..

المهم أن تمتثلوا..

أن تستسلموا..

أن تفعلوا ما تؤمرون..

تبادل اليهود نظراتهم الخبيثة، وبدأت الهمسات، والغمغمات من جديد..

مالكم؟

لماذا لا تهرعون للتنفيذ؟

لماذا لم يتحرك أحد؟

﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾..

يالسفاهتكم وتفاهتكم!

لو أراد أن يعين لونا لفعل من البداية، فأي عنت هذا الذي توقعون أنفسكم فيه؟!

لماذا تصعبون الأمر على أنفسكم؟

ما علاقة الأمر باللون أو الشكل أو الحجم؟

هلا سألتم أيضا عن تاريخ حياتها، وعن أبويها وجدودها؟!

هل سيكون بينكم وبينها نسبا وصهرا!

يا قوم إنها بقرة..

مجرد بقـــرة..

هيا تحركوا..

ها قد جاء الأمر مرة أخرى، وضاق حيز الاختيار..

﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾..

للمرة الثالثة يؤكد نبيكم، أن الأمر ليس من عنده..

﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ﴾..

إنه هو مَن يأمركم؛ من يوجهكم..

و إنها لبقرة..

لا بأس أن تكون صفراء..

ما أكثر البقر الأصفر، فهيا امتثلوا، وأسلموا لله أمركم..

إنها مجرد بقرة صفراء..

لماذا لا تنفذون، مالكم لا تتحركون، ماذا تنتظرون، وإلي متي في مرائكم سوف تستمرون؟

ماذا:

﴿ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ﴾..

أوحقا تشابه عليكم، أم أنه التمرد والعصيان؟

أوحقا اختلط البقر على أنظاركم، أم أن العجل قد أشرب في قلوبكم؟

فلتسمعوا من الإجابة ما يداوي بغيكم:

﴿ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ ﴾..

إنها بقرة..

لكنها هذه المرة ليست مجرد بقرة..

شدَّدتم على أنفسكم فشدَّد الله عليكم، وتكلفتم فكُلفتم، وتنطعتم فزيد عليكم إصر فوق إصر..

هذه المرة لن تجدوا هذه الصفات في أي بقرة..

الآن مطلوب منكم أن تبحثوا عن بقرة لم تجر محراثا، ولم تستعمل في سقاية، ولا تشوب صفرتها شعرة من لون مختلف، وهى مع كل ذلك من كل عيب بريئة..

فأين تجدون وصفها، وأني لكم بمثلها؟!

بعد أن كان لديكم متسع في سائر الأبقار وعمومها، يكفيكم اختيار أيها، صرتم إلى بحث عن إبرة في كومة قش، جزاء وفاقا، ولا يظلم ربك أحدا..

- الآن جئت بالحق يا موسى..

فقط الآن!!

سبحان القاهر الديان!

إن سوء أدبكم، وفحش قولكم مع أنبيائكم، للتتحاكى عنه الأجيال، وليبقين أبد الدهر مضربا للأمثال..

بعد كل هذه الآيات البينات، والمعجزات الباهرات، التي أطلعكم عليها ربكم، على يدى نبيكم، تقولون مثل هذه الكلمات، الآن!

تعالت أصوات القوم من بعيد، وهم يتصايحون، وقد وجدوا بغيتهم، بعد بحث مضنٍ، عن تلك البقرة النادرة..

لقد دفعوا فيها ثمنا باهظا، بعد أن علمت صاحبتها اليهودية حاجتهم لها، فضاعفت لهم الثمن أضعافا مضاعفة..

وليتحملوا نتيجة مِرائهم، وعاقبة لجاجتهم..

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾..

ما كادوا يفعلون!

لماذا؟

ما معنى ذلكم الامتناع؟

ماذا تمثل لكم تلك البقرة؟!

أهو عجل السامرى قد أشربته قلوبكم فلم ينسف منها، حين نـسف في اليم نسفا!

أم هو رمز شركى قـديم، قـد التقطتمـوه مـن الفـراعين، الـذين طالمـا عاشرتموهم وعشتم بين أكنافهم؛ فصح فيكم ما يقال من أن الناس علي دين ملوكهم!

أم أنكم تخشون من ظهور الحقيقة، ومعرفة المجرم، وفى نفس كل منكم مجرم، مستخف بجريمته، يخشى أن تفضحه.... بقرة!

فما أفضحها من بقرة!

﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾..

ها هنا مربط الفرس..

و مكمن المشكلة، وموطن الداء..

إن الخلل الحقيقي إنما هو في مدي إسلامهم لله جل وعلا..

في مستوى استسلامهم لأمره، وامتثالهم لمراده..

﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾..

هي جمله جامعة مانعة، تعبر عن مجمل خصالهم، ومختصر نعوتهم..

الحقيقة الجلية أنهم يرفضون حكم الله عليهم، ويجدون حرجا في صـدورهم من سلطانه، وضعفا في اليقين بموعوده، فهم للأسف قوم متمردون..

عن أمر ربهم ناشزون..

شعارهم سمعنا وعصينا..

الفسق ديدنهم، والجدال والمراء والشبهة دأبهم..

فماذا ينتظر منهم؟!

ها هي المعجزة تتحقق أمامهم كالعادة..

معجزة إحياء الموتى..

ها هم يضربون الجثمان المضرج في دمائه، ببعض من تلك البقرة، وها هـي الروح تدب في الجسد المسجى على الأرض، وها هو القتيـل يقـوم للحظـات، يشير فيها إلى قاتله، ويفضح من سفك دمه، ثم يسلم الروح مرة أخرى..

لكن ماذا تفعل تلك المعجزة الباهرة مع مثل هؤلاء؟!

إنهم قوم ألفوا المعجزات، واعتادوا الآيات، حتـى لم تعـد تحـرك فـيهم ساكنا، ولم تعد تستجلب من أفواههم ولو حتى تسبيحة بحمد ربهم..

و ماذا عساها تفعل تلك المعجزات والآيات، مع قلـوب قاسـية قُـدَّت من حجارة؟!

بل وأيم الله للحجارة أهون وألين، فإن منها ما يتفجر منه الأنهار، ومنها لما يشقق فيخرج منه الماء، ومنها لما يهبط خاشعا متصدعا من خشية الله..

أما هذه القلوب؛ فهي بلا شك شك أقسى، وأشد غلظة..

قلوب يقال لحامليها: قولوا حطة ليغفر لهم من تلك الخطايا، فتدفعهم ليبدلوا قولا غير الذي قيل لهم، ويقولوا: حنطة، مستهزئين مستكبرين..

إن قلوبا تدفع حامليها ليقولوا لنبيهم، بعد أن عبر بهم قعر بحر متلاطم الأمواج: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، لهى قلوب أحري بأن تقول لها الصخور: ما أشد قسوتك!

فقلوب يُهدى أصحابها لسبيل مغفرة بكلمة، فتغرى أصحابها ليبدلوا قولا غير الذي قيل لهم، لهى حقا قلوب مجخية شائهة ملعونة..

وقلوب يرفع من فوق رؤوس أصحابها جبل الطور، ويؤخذ عليهم الميثاق في ظل هذا المشهد المهيب، فيكون أول ما توسوس لهم به بعد ذلك أن قولوا سمعنا وعصينا، لهى حقا قلوب شيطانية..

قلوب منكوسة، متمردة، فما أضل حالها، وما أبشع مآلها!

إنها بحق؛ قلوب:

أقسي من الحجارة...

❊ ❊ ❊

ربيون .. صامدون

(٢)

رِبِّيُّونَ ... صامدون (٢)

«ربيون كثير، قد جاوزوا غثاء المسيل، ثم مضوا يغذون إلى الله المسير»

بينما تدوى قعقعات المعركة، ويتعالى صهيل الخيول مختلطاً بصليل السيوف، وتنسكب الدماء أنهاراً؛ إذ وقف أولئك الرهط في صمود عجيب ممزوج بخشوع أعجب تتمتم شفاههم في ظل تلك الظروف القاسية واللحظات العصيبة بدعاء صادق تلهج به ألسنتهم وتختلج به قلوبهم وهم يرون أجساد أصحابهم وإخوانهم بل وقادتهم تتهاوى أمامهم مضرجة في دمائها الطاهرة..

بينما كانت أسيافهم ورماحهم تقذف بالحتوف وتسوق المنايا إلى أعداء الله وأعدائهم إذ كانت الألسنة والقلوب في تلك الأثناء تدعو قائلة: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾..

ما كان لألسنتهم وأفئدتهم إلا ذاك المقال، بينما كان لأيديهم وصوارمهم الفعال، فأكرم به من مقال، وأنعم بها من فعال..

إنهم الرِبِّيون..

قيل هم أتباع الأنبياء..

و قيل هم الفقهاء والعلماء..

و قيل هم الجموع الكثيرة الهادرة..

و أقرب الأقوال والله أعلم أنهم المتـألهون (أى المتعبـدون) العـارفون بالله تعالى كما روى بن الجوزى عن بن فارس رحمه الله.

إنهم من نسبهم ربنا جل وعلا لربوبيته في كتابه الحكيم قـائلا: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾..

يضرب الله مثلا بهؤلاء العالمين بـه المتـوكلين عليـه لكـل واهـن خـائر القوى يهزه كيد الكائدين ويحبطه بأس المبطلين ويفزعـه إرجـاف المـرجفين وأذى المجرمين..

نموذج بديع من الصمود والثبات يجسده أولئك الربيون..

خلاصة التفاسـير في شـأنهم أنهـم ليـسوا طائفـة بعينهـا ولكـن كلمـة ﴿ وَكَأَيِّن ﴾ تلقى على الذهن أن هذا مشهد متكرر وقـصة مـستمرة يـسطرها من تعلموا في مدرسة الأنبيـاء واتبعـوا هـديهم وعرفـوا ربهـم حـق المعرفـة فصحت نسبتهم إليه وصاروا من الربيين.

ومفهوم الآيات بمجموع قراءاتها أن هؤلاء المجاهدين قد أصابهم بلاء عظيم في سبيل الله، وقيل قتل منهم الكثير، وقد ثبتت قراءة ﴿وكأين من نبي قُتل﴾ بضم القاف..

و المعنى لو تم الوقف عند «قتل» أن نبيهم نفسه قتل في معركة الحق والباطل، أما لو أكملت القراءة دون وقف فمن قُتلوا هم الربيون أو كثير منهم أو القولان معا؛ نبيهم وكثير منهم..

مُصاب جلل وخطب شنيع أن يقتل القائد وتسيل دماء فريق من خيرة رجاله..

مصاب قد يشل تفكير البعض ويجعلهم يتخبطون في خطواتهم أو يعجزون عن التعامل مع الواقع الأليم..

لكن الربيين كانوا أقوى مما نتصور..

فرغم عظم البلاء وفداحة المصاب؛ إلا أن المتبقين من الربيين ثبتوا وتجلدوا ولم يهتزوا أو ينقلبوا كما حذر الله في السورة نفسها – آل عمران: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ﴾..

لم يتدرج الربيون في مهاوى العجز، ولم يتردوا في هاوية الاستكانة

هاوية أول دركاتها الوهن..

الوهن..

و ما أدراك ما الوهن؟!

الوهن هو بداية ضعف القلب وتصدع بنيان الثوابت واختلال المبادئ والقيم..

الوهن هو حب الدنيا والتعلق بأهدابها جنبا إلى جنب مع كراهة الموت في سبيل الله..

الوهن الذي طالما حذر منه ربنا فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾،

وقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾، وقال: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾.

لقد أدرك الربيون خطورة تلك الدركة على سلم الفشل فلم يطئوها كما وطئها للأسف كثير من الخلق ممن استدرجوا، الوهن: الإحباط والتأثر بأذى متوقع؛ قال عنه مولاهم: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

لم يهن الربيون وبالتالي لم ينحدروا لما بعد الوهن وهو الضعف الظاهر وبداية العجز الذي يؤدى آخر المطاف إلى الشلل الكامل، وهو ما سماه الله بالاستكانة

والاستكانة هى الاستسلام والخضوع والذلة أمام ضربات العدو المتوالية: ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾..

لقد استعاضوا عن دركات سلم الفشل والاستسلام بأجنحة الصبر، وتمسكوا بحبال الأمل رغم كل الصعاب والمصائب التي ألمت بهم وبأنبيائهم، ولم يشغلهم أو يخفهم في ذاك الوقت إلا أمر واحد..

ذنوبهم!!

أهؤلاء الربيون ذنوب؟!!

بالطبع..

أوليسوا بشرا يخطئون ويصيبون؟!

بلى..

لكن الفارق بين الربيين وبين الغافلين أن الأولين قد علموا أن ذنوبهم خطر يتهددهم ويتهدد أمتهم، بينما نظر الآخرون إلى ذنوبهم كأنما هى بعوض حط على وجوههم أشاحوا بأيديهم فأزاحوه!

لم تشغلهم قعقات المعركة ولا صليل السيوف عن الدعاء والاستغفار، لأنهم يعلمون أن وقع الذنوب والمعاصي على جيوشهم وجماعاتهم المؤمنة قد يكون أشد وأنكى وأفتك مما تفعله أعتى الأسلحة!

لم يتجاهلوا ذلك المبدأ الإسلامى ولم يفعلوا كمن أهمله ولم يرفع به رأساً، وذهب يبحث عن نصره -فقط- بين ذخائره وأسلحته وتدريباته وخططه وذكائه وخبرته، غير مبالٍ بذنب يقترف ن ولا مكترثٍ بخطيئة ترتكب، ولا ملتفتٍ إلى معاصٍ تُجتَرح.

ورحم الله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز إذ يوصي بعض قادته بوصية قيل إنها منسوبة لجده عمر بن الخطاب ﷺ يقول فيها: (أما بعد فإني آمرك ومن معك بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي من احتراسكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون على عدوهم بمعصية عدوهم لله، ولولا ذاك لم يكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوى، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا واعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا، فرب قوم سلط عليهم من هو شر منهم، كما سلط على بني إسرائيل -لما عملوا بالمعاصي- كفار المجوس، فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً،

وسلوا الله العون على أنفسكم، كما تسألون النصر على عدوكم)، رواه أبو نعيم في الحلية.

لقد فهم الربيون ذلك المعنى وعلموا خطورة الذنب فجعلوا يدعون ويبتهلون: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾..

فلما جمعوا ما بين الثبات والصمود والأخذ بأسباب القوة والعزيمة وبين خشية الله والتضرع إليه والاعتراف بين يديه بالذنب والإسراف واستغفروا وأنابوا، ثم استنصروا واستفتحوا؛ حل النصر من الإله وجاءت البشرى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾..

قال المفسرون: ثواب الدنيا النصر على الأعداء والعزة للمؤمنين، وحسن ثواب الآخرة في الجنان، فضلا من الله ونعمة، وميز ثواب الآخرة بالحسن لما فيه من تفاوت عظيم في الدرجات لا يدانيه تفاوت درجات الدنيا؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾..

جاء النصر وهلت البشارة لما وجدت هذه الطائفة الربانية..

لما وُجد في الأمة من لديه هذا المزيج الفريد من الثبات والصمود والإخبات والخشية..

إنه مزيج الربيين الذين استحقوا تنزل هذا النصر المبين.

ما أحوج الأمة اليوم لهذا المزيج ولتلك النوعية من البشر..

ما أحوج الأمة اليوم للربيين الذين ما غيروا وما بدلوا رغم كل الأذى والاستضعاف والمصائب التي ألمت بهم..رغم كل الدماء والأشلاء التي تطايرت أمامهم فلم تزعزع عزمهم أو تفت في عضدهم..

أما بديل الربيين فما أبشعه!

إن بديل الربيين في هذه الأمة بالذات هو نعت أعلمنا به رسول الله ﷺ واصفا به الأمة حال وقوع الوهن في قلوب أبنائها..

الوهن الذي لم يقرب قلوب الربيين، ولكنه تسرب إلى قلوب كثير من أبنائهم، فاستحقوا عن جدارة لقب: غثاء، نعم: غثاء!!غثاء كغثاء السيل، حين ينزع الله من قلب عدونا المهابة، ويلقى في قلوبنا الوهن..

ما أحوجنا الآن إلي تجاوز هذا المرض والاستشفاء من ذاك العرض، لإعادة إنتاج صنف أمتنا الأصيل؛

الصنف الذي متى بلغ النصاب في هذه الأمة - جنبا إلى جنب مع الإعداد؛ لا تغلب بإذن الله..إنه صنف:

الربيين الصامدين.

❊ ❊ ❊

الرجل السلحفاة

(٣)

الرجل السلحفاة (٣)

«دونك فاغتنم قوارب النجاة، ولا تكن أنت الرجل السلحفاة».

نعم، هو ما انقدح في ذهنك عندما اصطدمت عيناك بالعنوان..

إنه البطء..

أو هو التثاقل..

وإن شئت التكاسل..

أو لعله التواني..

أو التقاعس..

بل هو التراخي..

أو التخامل..

وهو التأخر..

أو حتى التهاون...

كل هذه المعاني التي انهمرت على ذهنك حينما تخيلت مشهد الرجل السلحفاة..

البطيء المتثاقل الذي يبدو حين يحرك قدما كأنما يرفع أثقالا ويزحزح صخورا راسيات!

الإنسان الخامل الذي لا ينصر إن استُنصِر، ولا ينفر إذا استُنفِر وأينما توجهه لا يأت بخير..

هذا النموذج الثقيل الذي كثرت الآيات المبينة لحاله وخطورة وجوده بين ظهراني الأمة.

آيات من سورة النساء يكلمنا فيها مولانا جل وعلا عن هذا النموذج الكسول الذي أطلقتُ عليه هذا اللقب، مع الاعتذار للسلحفاة التي لا تشترك معه واقعيا إلا في خاصية البطء الظاهر، لكنه مع ذلك بطء ينسجم مع فطرتها، ومع حكمة خلقتها، بينما هى تسبق صاحبنا بذكرها، واستغراقها في تسبيحها، سابقة للخيرات بإذن الله ربها...

ظاهرة بشرية تتجلى من خلال قول ربنا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا .. **وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ** فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا .. وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴾..

فبينما يأمر الله تعالى المؤمنين بالنفير وهو سرعة الحركة في الاستجابة لأمر الله الذي كان في هذا السياق أمرا بالجهاد..

و بينما كان الخطاب جماعيا، والأمر جماعيا، والمطلب الاجتماع وعدم الانفراد..

إذ ذكر الله هذا الصنف الكسول بصيغة الإفراد ووصف الإفراد ولفظ الإفراد!

أمر الله المؤمنين أن ينفروا ثبات، أي مجموعات وفرقا متتابعات، أو يخرجوا بكامل عددهم وعدتهم إذا اقتضى البأس ذلك، دون أن يأتي أدنى ذكر -في هذا السياق- للنفير فرادى، وهذا بعد أن يأخذوا حذرهم من مكائد عدوهم..

وفي هذا الإطار الجماعي والحماسي الذي تكاد تسمع فيه صوت نفيرهم وصدى صيحاتهم الحماسية، وهم مقبلون على تنفيذ أمر الله والاستجابة لاستنفاره، يأتي مشهد ذلك المتسلحف المتباطئ المخذل المتخاذل..

وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ!

منكم؟!

هل هذا الصنف موجود بيننا؟!!

بين المسلمين دون أن يشعروا؟!

الجواب: نعم..

هناك بيننا من يبطئ..

و **يبطئن** هنا على قولين لأهل التفسير؛

يبطئ نفسه

ويبطئ غيره

والأرجح أن المعنيين تحتملهما الآية الكريمة.

صاحبنا هذا نموذج للتراخي والتثاقل في نفسه، والتعويق والإثقال لغيره..

كلمنا الله عن تثاقله مرارا فقال في سورة التوبة محذرا من فعله: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾..

و كلمنا عن تعويقه لغيره في سورة الأحزاب فقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾..

إنسان بطيء معوَّق في، نفسه معوِّق لغيره، خطورته على الأمة تكون أحيانا أشد من خطورة أعدائها!

لذا قال الله عن أمثاله: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾.

و يا ليت هذا الصنف العاجز المتخاذل اكتفى بعجزه وتكاسله وتخذيل غيره وتعويقهم وغرُب عن عاملي الأمة ومجاهديها بوجهه المتراخي ونفسه المثبطة..

لكنه للأسف لم يفعل..

بل مد عينيه وبدأ يراقب بخسة عجيبة ما سيؤول إليه واقع لم يشارك في نسجه ولم يسهم في بنائه.. فإذا ما وقعت مصيبة كما حدث يوم أحد مثلا

فرح بمقعده خلف المؤمنين، وسرَّته نجاته وأعجبه تخاذله حتى إذا جاء النصر وحان وقت الغنائم سارع إليه متلهفا وقد سال لعابه على عرض من الدنيا قليل

لكنَّ أشد ما يثير التقزز في فرحته أنه نسب ذلك لله جل وعلا، واعتبرها نعمة من عنده فقال: ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾!

نكست فطرته الإسلامية، وتشوهت نفسيته المتسلحفة، حتى اعتبر الحرمان من الشهادة في سبيل الله نعمة من الله!!

في حين أن المفترض في صاحب الفطرة الإيمانية السليمة أن يبكى لحرمانه منها، كما قال الله عن الذين حرموا من غزوة تبوك لعدم وجود الظهر الذي يحملهم: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ **تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ** حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴾.

تزداد دناءة الرجل السلحفاة ويتجلى قبح نذالته وخسته حينما يتحول الواقع إلى نصر مؤزر بفضل الله فيشهد الغنيمة، وتستشرف نفسه لها، ويسيل لعابه لتحصيلها، فيعد الفوز العظيم فقط في إحراز ثواب الدنيا فيقول: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾!

ألم تكن تقول من قبل أيها السلحفاة إن البعد عنهم غنيمة والنجاة مما أصابهم نعمة وفضل؟!

لماذا صارت الأمنية الآن أن تكون معهم فعددت ذلك فوزا عظيما؟؟

الجواب واضح..

إنها الدنيا التي لا يشغل بالك إلا هي، ولا تشتهى نفسك إلا متاعها..

هذا هو نموذج المتكاسل الذي لا يبتغى إلا الغنيمة السهلة، ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ ﴾..

صنف لا يكون معك إلا بعد بدر ينهل من الأنفال أو فى فتح مكة لينال من المغانم، ولا يقربك بل يؤذيك ويعوقك في يوم مثل يوم أحد!

هذه النفسية البطيئة والشخصية المتخاذلة من أبشع الآفات التي تهدد الأمة وتؤخر النصر عنها..

بون شاسع ذلك الذي يظهر بين هذا النموذج وما تلاه في الآيات التي ذكرها الله بعد ذلك..

﴿ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾..

وكم جاء في كتاب الله من تحفيز للمؤمنين ألا يكونوا من أولئك المبطئين..

كم جاء لفظ السبق والمسارعة والمنافسة في الخيرات..

و في ذاك الشأن ما أجمل قول رسولنا ﷺ: «**التؤدة** -أي التمهل- **خير في كل شيء إلا في عمل الآخرة**» صحيح الجامع.

أعاذنا الله من تلك النفسية المؤذية الهدامة، ورزقنا بالرواحل الذين قال عنهم: «**الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة**».

فكن أنت أنت الراحلة و

دونك فاغتنم قوارب النجاة،

ولا تكن أنت الرجل السلحفاة....

❊ ❊ ❊

قاعدون

(٤)

قاعــــدون (٤)

«حروف تجر إلى حتوف»

تحت شمس الصيف الحارقة، وعلى رمال الصحراء الملتهبة التي لا ترطبها إلا قطرات العرق الساخن الذي ينهمر من أجساد قد كلح لونها من شدة القيظ، استمر الركب في سيره، متهالك الخطوات، يجر أفراده أقدامهم جرا، وهم الذين قد مكثوا عقودا في هذا السير الحثيث الذي لا يُعرف هدفه ولا تدرك غايته..

لقد مكثوا في تلك الصحراء القاحلة على هذا الحال سنين عددا كلما برقت لهم بارقة أمل في الخروج من تلك الورطة سارعوا إليها، فما أن يقربوها حتى يجدوها سرابا، ويكتشفوا أنهم إنما يدورون في حلقة مفرغة لا يعرفون نهايتها..

لقد تغير شكل الجماعة كثيرا عما كانت عليه في بداية تلك الورطة..

لقد وخط الشيب رؤوسهم، ووهنت عظامهم، وانحنت ظهورهم

لتحاكي بشدة أنوفا معقوفة يتميز بها كثير من رجالهم، بينما اشتد عود الصبية وقد مرت الأعوام، فصاروا شبابا يافعا، وبدوا على مشارف الرجولة والعنفوان،

تعالت هنا وهناك صرخات الرضع وصيحات الأطفال الذين يلهون هنا وهناك أثناء الرحلة الطويلة التي لا يعرفون أين ولا كيف ولا متى سوف تنتهي..

فقط يتذكرون كيف بدأت!!

حياة كاملة..

أطوار مختلفة..

مشاعر متنوعة، وأجيال متتابعة شهدت عليها رمال تلك الصحراء

أجيال قد لا تدرك مغزى هذا التيه الذي تدور فيه تلك الطائفة من البشر منذ أعوام تتلوها أعوام.

«**لماذا لم تدخلوا الأرض المقدسة حينما أمرتم بذلك؟!**».

التفت الشيخ الطاعن في السن، ووضع يده على عينيه محاولا تخفيف وطأة الشمس الحارقة، ليتمكن من التعرف على مصدر ذلك الصوت الطفولي الذي صعقه بتوجيه مثل هذا السؤال..

- إممممم..

همهم الشيخ وقد تعرف على الفتى..

إنه غلام من هذا الجيل الذي نشأ وترعرع في هذا التيه الرهيب الذي به ابتلينا..

غلام لم تر عيناه إلا رمال تلك الصحراء الموحشة، وليس لديه فكرة عن ذلكم النعيم التي كان يرفل فيه القوم قبل مولده، وقبل أن يوبقوا أنفسهم فيدخلوا في غياهب هذا التيه الموحش!

لقد أثار الغلام شجون الشيخ الكبير.

أجبنى يا جدى لماذا لم تستجيبوا حين أمرتم؟

لماذا عصيتم وتمردتم؟!

أغلق الشيخ عينيه، وقد ذكرته سؤالات الغلام بتلك اللحظات التي بدأ فيها معالم ذاك التيه الأليم..

لكأنه يسمع بأذنيه الآن كلمات موسى عليه السلام، وقد قام فيهم خطيبا:

﴿يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾..

مر أمام عينى الشيخ الكبير شريط الذكريات..

كم كنا في نعيم!

لازلت أجد طعم المنّ، وأكاد أشم رائحة شواء لحم طير السلوى الشهي اللذيذ!

لازلت أتذكر وجه هارون وموسى عليهما السلام..

لا زلت أحفظ قصص أجدادنا يوسف والأسباط..

لا زلت أذكر لذة الفرح حين تحررنا من الأسر والعبودية لفرعون وقومه، وصرنا نملك زمام أنفسنا..

لا زلت أستحضر جلال مشهد شق البحر وعبورنا له سالمين..

و لا زالت صرخات جنود فرعون تدوى في أذني، وهم يصارعون أمواج الموت أمامنا رأي العين!

أُوَّهْ!!

يا لها من ذكريات..

بل يالها من نعم وآيات..

يا ليتنا تذكرناها حين طلب منا موسى..

ليتنا استحضرناها حين طالبنا بحقها قائلا بعد تذكيرنا:

﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾..

حينئذ، كان منا الجواب..

ندخل!!

إلى أين ندخل ؟؟

أية أرض تلك التي يريد منا أن ندخلها؟!

و العماليق الجبارين!!

ماذا نحن بهم فاعلون؟!!

بل ماذا هم بنا فاعلون؟؟

كيف نواجه بأس هؤلاء الأقوياء ونحن من عشنا أعمارنا عبيدا لفرعون، لم نتعود مواجهة، ولم نذق معنى كرامة أو إباء، فكيف السبيل إلي معالجة بأس مثل هؤلاء؟!

تذكرنا بالنعم؟

ويكأن لها حقا يؤدى؟!

أولسنا شعب الله المختار؟

أوليس ما يأتينا من نعيم سببه أننا أبناء الله وأحباؤه؟

فأي شكر نعيم نتابعك علي مثله؟

ولأية مهلكة تسلمنا؟

أمواجهة للجبارين؟!

لا يمكن أن نتابعك..

مستحيل أن نفعل..

إنما نريد نصرا يتنزل علينا تنزل المن والسلوى:

﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾..

فليخرجوا منها أولا، وفورا سندخل بعد ذلك..

إما هذا وإلا فلا..

أما حديثك عن جهاد، عن بذل، تضحية، وفداء؟!

فلسنا نفقه كثيرا مما تقول!

كلمات ليست في معاجمنا ولا ندرك لها معنى!

قطع صوت الغلام المعاتب مرة أخرى سيل الذكريات المنهمر على ذهن الشيخ:

يا جدى كيف كنتم تفكرون؟!

إنها الأرض المقدسة!

إنها الحلم الذي طالما استقر في قلوب الموحدين!

كيف تخاذلتم عنها وقد سمعتم قول من لا يكذب عن ربه إنها قد كتبت لكم في ذلك الوقت؟!

ومن كتبها لكم؟!

أوليس هو الله القادر المقتدر؟!

لماذا لم تكونوا موقنين؟!

لماذا كنتم بربكم غير واثقين؟؟

أوقد نسيتم مشهد جبل الطور وهو يرفع من فوقكم؟!

أفقد غاب عنكم مشهد البحر وهو ينفلق من أجلكم؟

أولم تروا تسع آيات بينات ذهب بها موسى إلى فرعون وقومه حتى آمنت امرأته ورجل من آل بيته؟؟!

لقد رأيتم من الآيات والمعجزات ما لم يره غيركم!

كيف لم يكسبكم كل ذلك يقينا وتوكلا على من أراكم تلك الآيات البينات فتثقوا في موعوده؟!!

دمعت عينا الشيخ الهرم ونظر إلى الغلام الواعد، وقد ذكرته سهام كلماته المسددة بكلمات صاحبيه حينما وعظاه وذكراه هو وقومه منذ سنين طويلة..

أعادت كلمات الغلام إلى ذهنه كلمات الرجلين من قومه الذين كانا يُعرفان بين الخلق بشدة خشيتهما لله..

خشية من الله كانت قد محت من قلبيهما أي أثر لمخافة من سواه..

لم يأبها بعماليق ولا تخوفا من جبارين، وإنما قالا لقومهما في يقين:

ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ..

في ذلك الوقت لم نلتفت إليهما..

لم ننتصح بنصحهما..

لقد بينا لنا أن مفتاح حل القضية إنما هو في القرار الأول..

في قرار الاستجابة..

وما بعده أهون..

فقط ندخل الباب!

فقط نستجيب

نعد العدة ثم نتوكل على مولانا..

لست أدري كيف لم نستجب لهما فعلا؟

لماذا كنا بهذه الحماقة؟

بل لماذا بلغنا هذه الدرجة من الخسة وسوء الأدب، حتى تجرأت ألسنتنا أن تنطق وشفاهنا أن تنبس بمثل تلك الكلمات؟!

كيف اجترأنا أن نقول لنبينا وبطل أمتنا وقائدنا: **يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ** !!

لقد أنهينا كل كلام، وأغلقنا كل طريق للتفاهم بقولنا ذاك..

ماذا كنا نريد بالضبط؟!

جهادا مرفها؟

نصرا سهلا؟

قتالا بلا شوكة؟

فتحا بلا تضحية؟

مغنما بلا مغرم؟

هل كنا نرغب في أقزام نقاتلها؟!

و ما هذه الأخلاق الخنزيرية التي اتصفنا بها حتى جعلتنا نقول لنبينا: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾؟!

و لماذا كنا نحرص دائما على قولنا: ﴿وَرَبُّكَ﴾..

أوليس بربنا نحن أيضا؟!

ما هذه الوضاعة؟

أم إنه لا حاجة لنا بربوبيته ما دامت سوف تكلفنا بذلا وفداء وتضحية؟!

كيف استطعنا بعدها أن نتحمل نبرة الحزن ممزوجا بالغضب - في صوت موسى، والتي كانت تقطر من كلماته، وهو يقول بعد قرارنا الحقير: **رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ** ..

نعم حزن موسى الذي طالما اشتاق قلبه المؤمن لتحرير الأرض المقدسة، لدرجة أنه دعا ألا يميته الله إلا وهو قريب منها، ومهما كان حرمانه من دخولها في حياته، فليقبض وهو يدنو منها ويرنو إليها، ويدفن على قدر رمية حجر من بيت مقدسها..

لماذا لم نجد في قلوبنا مثل هذا الاشتياق؟!

معك حق في عتابك يا غلام..

قالها الشيخ الكبير بعد سلسلة الخواطر التي صالت في عقله وجالت..

قالها معترفا

أنهم جيل ترهلت نفوس أفراده، وبلغت درجة من الدناءة لا تستحق بها أن تشم ريح النصر، بعد أن أفسدها الذل، وشوهها الاستعباد، وكسرها إباءها طغيان الفرعون المصري الأكبر..

قالها الشيخ الطاعن وقد أدرك طبيعة نفوسهم الضالة؛ التي لا تستحق إلا جزاءً من جنس طبيعتها إذ ضلت طريق الحق، فكان عاقبتها الضلال في التيه أربعين سنة!!

أربعين سنة حتى ينشأ جيل جديد حر لم يعرف عبودية لمخلوق، ولم يحن عنقا أو يذل لفانٍ..

جيل صقلته رمال الصحراء، وشدت من عزيمته حرارتها فاخشوشن، وتجهز لإنتاج رجال مختلفين تماما عن ذكور غابر الجيل المتخاذل الجبان..

نظر الشيخ الكبير إلي الغلام بإعجاب، وتأمل بريق عينيه المتقد بالحماس والقوة والإقدام، وقال:

إجابة بعض سؤالاتك يا ابن أخى قد تجدها في كلمة قلناها قديما، وقيدت بها أنفسنا لعقوبتها، وأثقلت بها عزائمنا فكانت كالأغلال التي توثقنا إلى الأرض..

إنها كلمة عليكم ألا تقربوا مستنقعها، وإلا تدنستم كما تدنسنا، وجبنتم كما جبننا، وخارت قواكم كما خارت قوانا، وتخاذلتم كما تخاذلنا، وقيدتم كما

قيدنا؛ كلمة، وقيلة هي مفتاح كل شر، وعلامة كل شقاء، وفاتحة كـل مقـت مر بنا

إنها كلمة..

إنها كلمة...

ويحي لست أقوي علي انتزاع حروفها

إنها كلمة ..

كلمة : إنا هاهنا

قاعدون.

❊ ❊ ❊

ولو كنت وحدي
(٥)

ولو كنت وحدي (٥)

«الرجل الفرد الأمة، مستعذب مرارة الغمة»

أي معشر المسلمين، أرد إلى المشركين وقد جئت مسلما، ألا ترون ما قد لقيت؟

صاح بتلك العبارة، وهو يشير إلى الأصفاد التي كُبل بها، وقد بدت عليه آثار ما لقيه من عذاب على يد أبيه المشرك.

صاح بها والحزن يقطر من حروفها، وقد زادت من مرارة ذاك الحزن مشاعر الاستضعاف التي نضحت بها الكلمات..

قد من الله عليه بالإسلام فاحتمل في سبيل ذلك صنوف العذاب التي ساموه إياها

والآن قد جاءت الفرصة وتمكن من الفرار، فكيف يرجع بعد كل هذا؟!

نعم لقد حاول النبي ﷺ مع أبيه بشتى السبل، وأكثر عليه قائلا ومكررا: أجزه لي..

بلى فافعل.. وأبوه يتمنع

ورغم أن بنود الصلح لم يتأكد إبرامها بعد، إلا أن سهيل بن عمرو – أباه– لم يتزحزح عن موقفه، رغم ما كان من النبي ﷺ من سعى لإقناعه، حتى كادت المعاهدة أن تُنقض بسبب ذاك التعنت الصلد..

قال أبو جندل تلك الكلمات، وهو ينظر إلى إخوانه في العقيدة، كأنما ينتظر أن يجد عندهم حلا..

وهو لا يتصور أن يعود بعد كل ذلك إلى عشيرة هي تستمر في محاولات فتنته عن دينه الجديد، راجية إعادته إلى دين آبائه وأجداده، الذي أنفت نفسه عفونة شركه التي تزكم ريحها المنتنة أنف فطرته النقية.

حاول عمر أن يفعل شيئا،

وحاول سهل بن بن حنيف،

وكاد الموقف أن يشتعل حينما وجد قائم سيف بجواره، يغريه أن يلتقطه فيضرب به عنق أبيه المشرك

لكنه أعرض عن ذلك، وآثر أن يطيع نبيه ﷺ، وقد بدأ صدره ينشرح بالوعد بالفرج والمخرج، إذا ما تجرع مرارة الصبر والاحتساب.

استدار أبو جندل ليعود وحده، وصوت السلاسل التي تكبله يدوي في آذان الصحابة، بينما تودعه نظراتهم الحانية المشفقة..

سيعود أبو جندل وحده،

سيعود ليواجه آباءه وأعمامه وأخواله، بصمود وصبر على فتنتهم، حتى يجعل الله له فرجا ومخرجا..

سيعود ولسان حاله:

و لو كنت وحدى..

و لو كنت وحدى؛ سأرجع قريتكم، فأواجه كل تدبيركم، وأحبط عظيم كيدكم..

و لو كنت وحدي سأقف فيها ثابتا أمام ضلالكم وشرككم..

و لو كنت وحدي فيها سأعبد ربى، وأذر آلهتكم وأوثانكم..

و لو كنت وحدي بين البشر، فإن معي خالق البشر وبارئهم ومليكهم..

لن أستكين لكم، لن أنكسر، ولو كنت وحدي..

و لن يضرني مكركم، ولو كنت وحدي..

لن أترك الحق الذي اهتديت إليه، ولو كنت وحدي..

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾..

هذه الآية من سورة المائدة ترسخ هذا المبدأ الذي ينبغي أن يفهمه كل مسلم..

هذه الآية من كتاب ربنا تشرح لنا لماذا ثبت أبو جندل رغم كل ما ابتلى به..

ليست القضية في كثرة الموافقين المؤيدين، ولا وفرة الداعمين المنافحين..

القضية هي في الحق نفسه..

لا يضر المرء إن ضل كل من حوله، ما دام على الحق الذي أمره به ربه: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾..

تستوقفنى طويلا تلك الآية وما قبلها..

يستوقفنى ما بها من بناء متفرد للشخصية الإسلامية التي لا يقبل صاحبها أن يكون إمعة، مهما كانت الظروف ومهما تزايدت عليه الضغوط.

نموذج أبى جندل الذي حاول أقرب الناس إليه فتنته، وأعادوه إلى أفنية تعذيبهم، ورغم ذلك ثبت، هو نموذج يجسد هذا المعنى أوضح تجسيد!

لم يضره ضلال كل من حوله وقد اهتدى..

لم يقل كما قال غيره ممن ذكر الله قولهم وحكي لنا حالهم:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾..

إنه التقليد المقيت الذي هو ضد الحالة التي نحن بصددها؛ حالة الإدراك الصحيح المسئول للحق والقناعة به والثبات في سبيله؛ تلك الحالة الراقية، والتي جسدها لنا بجدارة أبو جندل رضي الله عنه..

إنه تقليد الآباء والأجداد..

إنه تقليد المجتمع والبيئة المحيطة، دون فهم ولا وعى ولا إدراك، لما عليه هذا المجتمع وتلك البيئة، من جهل وضلال..

هذا التقليد والاتباع الأعمى الذي كان من أكبر الأسباب في صدِّ جموع غفيرة من الناس عن طريق الحق..

لا يتصورون طريقا جديدا عليهم، ولو كان ذاك الجديد هو الحق الذي لا مرية فيه..

لا يتصورون فوات الحق علي ما يتوهمونه نبوغا لآبائهم وسادتهم وكبرائهم!

نفس لسان حال كثير من الإمعات اليوم، حين يتحججون على اتباعهم الأعمى بقولهم العامى الشهير: «اللى زى الناس ما يتعبش».

كان من الممكن لأبي جندل أن يكون سيدا في قومه، فهو من هو من ذوى النسب الشريف، وأبوه خطيب قريش وأحد أهم حكمائها وكبرائها..

لكنه ألقى كل ذلك خلف ظهره، ولم يلتفت إلا إلى الحق، ولم يضره من ضل إذ اهتدى هو..

و ليس أبو جندل وحده هو من قدم هذا النموذج الراسخ من الثبات على الحق وإن كان وحده..

فكم من أناس حرصوا على التمسك بالحق، وإظهاره، والسير في طريقه، رغم قلة السالكين، وربما انعدامهم في بعض الأحيان..

كم من أناس خاضوا غمار المعارك، وثبتوا عند حلول النوازل، رغم الصعاب التي واجهتهم، ورغم كثرة المخالفين، لكنهم كما قال رسول الله ﷺ عن أمثالهم: «**لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم**».

و هل ينسى أحد كلمات الصديق رضى الله، عنه حينما راجعه بعض أصحابه في حرب المرتدين، ومنهم الفاروق رضي الله عنه فقال:

«**والله لو خذلني الناس كلهم لجاهدتهم بنفسي**»!

أي قوة في الحق هذه وأي عزيمة تلك؟!

لم يقتصر الأمر علي مجرد النية وحدها، بل حققه عمليا بعض الأخيار، فتقدم في حوالك المواطن مجاهدا وحده!

ها هو الزبير بن العوام يوم اليرموك، إذ اجتمع إليه جماعة من الأبطال الشجعان يومئذ، فقالوا: ألا تحمل فنحمل معك؟

أي هل تحمل معنا فنهجم هجمة رجل واحد على الروم؟

فأجابهم: إنكم لا تثبتون..

فقالوا بلى، فحمل وحملوا، فلما واجهوا صفوف الروم أحجموا وأقدم هو، فاخترق صفوف الروم، حتى خرج من الجانب الآخر، وعاد إلى أصحابه، ثم جاءوا إليه مرة ثانية، ففعل كما فعل في المرة الأولى، وجرح يومئذ جرحين بين كتفيه..

تخيل رجلا يقدم وحده ليخترق صفوف الروم بسيفه، ومن قبل السيف قلبه الجسور المفعم بالتوكل واليقين، فيعبر صفوفهم وحده مرتين لا مرة واحدة!

و من قبله البراء بن مالك، الذي أُلقي في حديقة مسيلمة الكذاب المسماة بحديقة الموت، وذلك يوم اليمامة، حين استعصت حصونها على المسلمين، فطلب منهم حمله على درعه فوق أسنة الرماح، وإلقاءه بداخلها، فطفق يقاتل المشركين وحده! حتى فتح باب الحصن من الداخل!!

العجيب أنه لم يستشهد في تلك الموقعة، وإنما نال الشرف وارتقى شهيدا بعد ذلك بأعوام، فلا نامت أعين الجبناء.

هذا فقط في ميدان الجهاد، ونماذج الراسخين من المقبلين وحدهم غير مدبرين كثيرة، ربما لا يتسع لها المقام..

وكذلك كانوا في الدعوة،

لا يكاد ينسى أحد جهد مصعب، حين أرسله النبي ﷺ إلى يثرب، وكان جل أهلها على الشرك في ذاك الوقت، فلم يفت ذلك في عضده، ولم يوهن من عزيمته، فمضى فيهم داعيا إلى الله، حتى فتح الله به القلوب والعقول، فمهد لمقدم رسول الله ﷺ إلى مدينته المنورة.

وكذلك فعل أبو ذر والطفيل بن عمرو الدوسي وغيرهما، ممن ذهبوا إلى قومهم بالحق، يحملونه إليهم وحدهم، فعادوا بهم وقد اهتدوا..

لم يقل أحدهم: وماذا عساي أفعل في قومى وحدى - وهم كثر لا يقتنعون برأيى، وإنما سعوا في سبيل الله، ودعوا على بصيرة من الله؛ لم يضرهم من ضل إذ اهتدوا.

و أكرم بغلام الأخدود، الذي أدخل الله أمة إلى التوحيد بدعوته، حتى ضربت تلك الأمة أروع نماذج التضحية والفداء، حين أحرقت عن بكرة أبيها دون أن يردها ذلك عن دينها!

ملحمة بطولية كانت شرارة بدئها بغلام..

غلام يدعو إلى ربه؛

وحده..

يقف أمام الملك والساحر وجنودهما، وحده!

تماما كما وقف مؤمن آل فرعون أمام قومه، وكما جاء حبيب النجار يسعى من أقصى المدينة صادعا وحده: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾..

كل هؤلاء لم يضرهم أن كانوا قلة، ولم يثنهم ضلال الناس وغيهم، وما أجمل قول سليمان الداراني معبرا عن هذا المبدأ الجليل: «**لَوْ شَكَّ النَّاسُ كُلُّهُمْ فِي الْحَقِّ مَا شَكَكْتُ فِيهِ وَحْدِي**»، قَالَ أَحْمَدُ: **كَانَ قَلْبُهُ فِي هَذَا مِثْلَ قَلْبِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ يَوْمَ الرِّدَّةِ!**

وما أنسب أن يطرق بابنا بشدة هاهنا أحمد..

و ما أدراك من أحمد؟!

إنه أحمد الإمام..

إمام أهل السنة..

إنه من وقف صادعا بالحق، متمسكا بعقيدة حاربها طغاة الخلق، في وقت ترخص فيه جل أقرانه..

لقد تحمل الإمام كل ما فعل به، تجرع كل ما جرعوه له من ضيم وعذاب أليم، راضيا صابرا محتسبا، لم يتراجع قيد أنملة عن مذهبه.

و لما قال له أبو زهير: أيها الإمام ما عليك أن تجيب القوم، فلك عيال، فقل ببعض القول، فالضرورة حاكمة، ومهما يكن ما إليه أجبتهم؛ فإن الله سبحانه وتعالى يعلم ما في قلبك من فساد اعتقادهم!

نظر إليه الإمام أحمد، وقال كلمة ظلت بعد ذلك صفعة لكل المتخاذلين والانهزاميين؛ قال له:

إن كان هذا عقلك يا أبا سعيد فقد استرحت!

نعم إنها العقول المستريحة، التي لا تستطيع أن تقوم بحمل أمانة الحق إن لم تجد غيرها ممن يعضدها ويؤازرها.

ورحم الله **زيد بن عمرو بن النفيل**، الذي يأتي يوم القيامة أمة وحده، بين النبي ﷺ وبين المسيح عليه السلام.

زيد الذي كان يعبد الله وحده في مكة قبل بعثة النبي ﷺ، وكان على الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام، في وقت كان كل من حوله في جزيرة العرب يسجدون لما صنعته أيديهم من أوثان، اللهم إلا رجلا أو رجلين..

لم يضره أن كان وحيدا في أمة مشركة ولا يدفعه تفرده لأن يترك الحق الذي يدين به، فاستحق أن يكون أمة وحده يوم القيامة.

و كذلك الغرباء كما وصفهم النبي ﷺ..

«ناس صالحون قليل، في ناس سوء كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم»..

إنهم الذين يصلحون إذا فسد الناس، كما ثبت عن النبي ﷺ.

هي غربة تلقائية غير متكلفة، هي لا تضر القابضين على حر جمرها، إذ هم ممن اضطروا إليها..

ويكفيهم أن يحبهم ربهم، ويضحك إليهم، كما في الحديث: «**ثلاثة يحبهم الله، ويضحك إليهم، ويستبشر بهم: الذي إذا انكشفت فئة قاتل وراءها بنفسه لله عز وجل، فإما أن يقتل، وإما أن ينصره الله ويكفيه، فيقول: انظروا إلى عبدي هذا كيف صبر لي بنفسه. والذي له امرأة حسنة وفراش لين حسن، فيقوم من الليل، فيقول: يذر شهوته ويذكرني، ولو شاء رقد والذي إذا كان في سفر، وكان معه ركب،فسهروا، ثم هجعوا، فقام من السحر في ضراء وسراء**»،

والجامع بينهم أنهم ثبتوا على الطاعة في مواطن قد يتركها فيها الناس.. ولذا كانت العبادة في الهرج كالهجرة إلى رسول الله ﷺ، ذلك لأنه لا يتفرغ لها في هذا الوقت إلا أفراد..

فلما تمايزوا تميزوا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾..

القضية إذا ليست بالعدد، ولا بالصخب، ولا بمطلق ما عليه الناس من حال..

القضية بالحق، فإذا كان معك؛ تبينته، وتشربه قلبك من معينه، فأنت الجماعة..

ولو كنت وحدك!

❊ ❊ ❊

ولله أحيا

(٦)

و له أحيا (٦)

«حياتي كلها لله، وموتي مبتدا لقياه»

هات ما عندك يا عراقى..

أطرق الجنيد برأسه، حين طرقت مسامعه تلك العبارة التي وجهها إليه هـذا الشيخ الكبير، سائلا إياه عن وصف العبد المحـب، طالبـا منـه أن يـذكره وبـاقى الأشياخ الجالسين، بهذا المعنى الجليل، ويدلى معهم بدلوه في بحار لطائفه..

التمع بريق الدمع في عينيه

عن العبودية والمحبة تسألون؟

عن التعلق بمولاى تستفهمون؟

و هل تكفى حروفى لبيان قطـرة ممـا أحملـه في صـدرى مـن فيوضـات المشاعر والمعانى؟!

و هل تسع الكلمات ما أجد من أحاسيس، تملك عـلى جنـانى، وتحمـل قلبي إلى ربوع جنة الدنيا؟

لست أملك من الكلمات إلا أن أقول:

«عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرقت قلبه أنوار هيبته، وصفا شربه من كأس وده، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله»...

وجم القوم وساد صمت مطبق..

لا تتخلله إلا همهمات بكاء مكتوم، بينما عيون دامعة تنظر إلى الشاب الذي فُتحت له تلك المعانى الرائقة، محركة قلوبهم، ومالكة عليهم أفئدتهم، ومسيلة أنهار الشوق من مآقي عيون بصائرهم..

ثم قطع الصمت قول قائلهم؛ مكللا بمتداخل غمغماتهم تصديقا لقوله:

- ما على قول الجنيد مزيد..

نعم والله ما على قوله هذا من مزيد في وصف حال العبد الربانى..

عبد يعيش لا هم له إلا إرضاء سيده..

البعض ينظر إلى كلمات الجنيد هذه على أنها محض خيال لا يمكن تحقيقه علي أرض الواقع الشرعي..

أمعقول أن يوجد من يعيش لله وبالله ومع الله، بهذا التجرد الفريد، وذاك التحقق الغريب، وذلك الإخلاص العجيب؟!

الجواب:

نعم..

معقول جدا..

بل مطلوب أيضا.

إنه معنى الحياة لله..

أن يعيش المرء وأن يموت لله رب العالمين، وليس فقط يصلي وينحر له جل وعلا..

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ..

قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ..

لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ..

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

إنها بحق نقلة فكرية وروحية هائلة، من عقيدة شاذة، وتصور للدين مشوه مقزم منقوص، إلي عقيدة راقية، وتصور للدين واضح كامل متكامل جليل..

على حين جرت العادة بين الخلائق قرونا قبل بعث النبي ﷺ، بهذه العقيدة الشاملة الكاملة؛ أن يوجه الناس ما لقيصر لقيصر، وما لله لله،

وأن ينعزل الدين عن الحياة، ويظل حبيسا بين جدران دور العبادة، فلا يعود يُذكر إلا حين الحاجة إليه..

وعلي حين جرت العادة أن يُنظر دائما إلى الدين على أنه فقط شعائر تعبدية، لا علاقة لها بمعايش الناس ولا بمعاملاتهم، وأن تقتصر على صلاة وذكر ودعاء ونسك وما كان على ذلك النسق، من ملامح العبودية وأمثلتها..

جاء الإسلام بدين يعبر حدود الجدران والصدور، منتظما كامل الحياة، ومهيمنا علي جميع ملامحها ومجالاتها وأنشطتها علي السواء؛ تصور لم يعرفه العرب قبل البعثة..

ولا تصورته الأمم في سالف الأديان..

هذه الآية العظيمة تفاجئ أصحاب تلك الأفكار الإقصائية -للدين- بمعنى مباين تماما لما يظنونه ويهوونه، بل وتستريح إليه نفوسهم الأمَّارة بالسوء، المحجوبة عن شهود حقيقة العبودية الجامعة..

إنها تفاجئهم بأن الدين منظومة حياة كاملة شاملة..

وأن الحالة التي أشار إليها الجنيد، عن العبد الذي يتكلم وينطق ويتحرك لله وبالله، ليست خيالا نظريا، ولا دروشة أو تكلف..

بل هي حقيقة شرعية واقعية علي أرض العبودية المشروعة والربانية!

أن يكون المحيا لله، والممات لله، وليس فقط النسك والصلاة..

قد يُفهم أن يكون المات لله؛ حيث الجهاد والتضحية بالنفس في سبيل الله، وقد قيل إن هذا ربما يكون أهون على النفس **البشرية من منهجة منظومة الحياة لتكون ، في سبيل الله..**

الموت لحظة كما يقولون، فإذا تجرأ الإنسان واتخذ فيها قرار الإقدام والبذل لله، فإنه لا يجد من آلامها إلا كمس القرصة..

لكن الحياة في سبيل الله شأن آخر، وعمل شاق، ومكابدة، وجهاد أي جهاد!

أن يصبغ المرء توجهه بمرضاة الله؛ أن يكون هدفه إرضاء ربه، في كل سكناته، وحركاته، ومعاملاته وصمته، وكلماته، هذه هي الحياة لله!

وهذا من أهم الفوارق بين المخلِص - بكسر اللام - والمخلَص - بفتحها؛

فالمخلِص – بالكسر - هو الذي يبتغي وجه الله في أعماله، وخص البعض تلك الأعمال بحال عبادته؛ لا يريد بها إلا الله..

أما المخلَص - بالفتح - فهو أعلى درجة وأرفع منزلة..

إنه هو من استخلصه مولاه استخلاصا، فصار في حياته، وسائر حالاته، مع الله، وبالله، ولله..

وهذا هو من ينجو من إغواء الشيطان وكيده، كما استثنى هو قائلا: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾..

ولقد تحمل من يعيشون لله ما لا يتحمله غيرهم ممن لا يستقر في قلوبهم هذا المعنى السامى الأصيل..

معنى الحياة لله وبالله ومع الله.

وهل كان **نوح** ليطيق سخرية واستضعافا، ويصبر على لأواء الدعوة وتكاليفها ألف سنة إلا خمسين عاما، لولا أنه عاش هذه الأعوام الألف لله وبالله ومع الله ؟

وهل كان **يوسف** ليصبر على السجن، بل ويصرح أنه أحب إليه من لذيذ عيش فيه عصيان لمولاه، لولا أنه رجل يحيا لله وبالله ومع الله؟

وهل كان **إبراهيم** ليواجه قومه ويصبر على أذاهم وبطشهم، لولا ذلك؟

وهل كان **أيوب** ليتحمل أعواما من الضُرِّ والمرض والآلام، لولا أنه عاشها في أنس بمولاه؟

وغيرهم ممن أدركوا أنه كما أن الأمر كله لله، والفضل كله بيد الله، فإنما تكون الحياة كلها لله ومع الله وبالله..

إنه المعين الروحي والزاد الإيماني الذي سهل على أمثال هؤلاء ممن عاشوا لله، أن يكون موتهم في سبيله ولأجله، كخيار أوحد، ودون أدنى تردد.

ثم يختم المعنى القرآني الأخاذ بقوله:

﴿ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾:

ففارق كبير بين من تمزقت حياته بين شركاء متشاكسين؛ من درهم ودينار وشهوة وشبهة..

وبين من وجد وجهته، وعرف طريقه، فسارع إليه، ولم يكتف بمجرد المعرفة والمسارعة، وإنما آثر السبق واختار أن يكون بين السابقين **الأولين** المكرمين..

ولكل عائق وعقبة وطريق جديد **أولون**

أناس يكونون في طليعة من اقتحمه وفى مقدمة من سلكه، وهؤلاء لهم مقام خاص، ولطالما خصهم الشرع بالثناء، فما بين أول من أسلم من الرجال والنساء والصبية وما لهم من مقام رفيع، إلى أول من هاجر في سبيل الله، وأول من جهر بالدعوة، وأول من نصر، وأول من غزا، وأول من كان في الصف، فأول من استشهد، نجد الفضائل والأقدار والمنازل عند الله تبارك وتعالى..

وفي هذا توجيه للحرص على السبق، ولا يزال قوم يؤخرون حتى يؤخرهم الله، وحتى يؤخروا في الجنة وإن دخلوها..

ولقد علمنا رسول الله ﷺ أن نستفتح صلاتنا بإعلان هذه الوجهة الواحدة، كما فعل إبراهيم عليه السلام في السورة نفسها، فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ثم بإقرار المحيا والممات والصلاة والنسك من قبلها لله تعالى وحده بلا شريك..

واستفتاح الصلاة بالذات بهذا الإعلان التوحيدى الخالص لـه مـدلول مهم..

فها هنا مقام عبادة، ورغم ذلك لا ينسى العابد أن توحيد وجهته لـيس قاصرا على العبادة فحسب، وإنما يمتد ليشمل جميـع نـواحى الحيـاة وحتـى الممات!

أفلا يرعوى أولئك الذين يلبسون علينا ديننـا، مـن الغـلاة المتنطعـين، ومن المميعين المفرطين، على حد سواء؟

فما هو بدين كهنوت، ولا رهبانية ولا انعزال ولا هروب، وما هو بدين يقبل تقزيما أو حصرا في بيوت العبادة والشعائر، أوكتما وتغييبـا في الـصدور والدخائل..

إنما هذا الدين حياة كاملة متكاملة، ومنظومة جامعة شاملة للحياة..

فهل يدرك كل منا نفسه، ويلفتها إلي فحوي الدين، وإلي روح الإسلام، وإلى سر الإيمان فتنعم بالحياة لله وبالله ومع الله؟

ولعلها أن ترزق بذلك موتا في سبيل الله، فتتم المنظومة، ويتمادي العبـد في سرمدي الحياة، هنالك في جنة الله!!

دموع القردة
(٧)

دموع القردة (٧)

«فليفرحوا قليلا بشهوة حاضرة طافية، وليذرفوا طويلا دموع القردة الباكية»

- لماذا لا نرى أصحابنا قد خرجوا اليوم للصيد كعادتهم؟!

لعل الله قد هداهم..

قال الرجل لصاحبه تلك الكلمات، بينما يسيران سويا في طرقات «إيلة»؛ تلك القرية الساحلية الجميلة، صبيحة يوم السبت، وقد اقتربا من الشاطئ الذي بدا لهما من بعيد خاليا، على غير العادة في ذلك اليوم..

قال له صاحبه: ربما قد استجابوا أخيرا، وشرح الله صدورهم لدعوتنا، فتوقفوا عن الصيد يوم السبت، والذي قد بدءوه بحيلة حقيرة، ظانين أنهم يخادعون الله..

رد عليه الأول قائلا: يا ليتهم فعلوا يا صديقى، فوالله إنى لأخشى عليهم؛ فهم يزدادون فجورا في كل أسبوع، أكثر من الأسبوع الذي يسبقه..

هل نسيت كيف كانوا في البداية يكتفون بربط الحيتان التي تتراقص أمامهم زعانفها كأشرعة المراكب يوم السبت، ثم يقدمون عليها يوم الأحد ويأخذونها، ظانين أنهم بذلك لم يصطادوا يوم السبت كما نهاهم ربهم؟

قال صاحبه: نعم أذكر جيدا، وأذكر كيف تطور الأمر بعد ذلك، وكيف قال قائلهم: إنكم إنما نهيتم فقط عن الأخذ، فاتخذوا حياضاً على شاطئ البحر، تسوقون الحيتان إليها يوم السبت، ثم تأخذونها يوم الأحد..

فاتخذوا الحياض، فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم الجمعة، فتبقى فيها، ولا يمكنها الخروج منها لقلة الماء، فيأخذونها يوم الأحد! ولقد ظلوا على ذلك الفعل حينا من الزمان، والله المستعان..

رد الأول بنبرة حزينة: نعم صدقت، وكذلك الاجتراء على حدود الله، يبدأ يسيرا، ويحاول المجترئ أن يحتال ويلتف، ويقنع نفسه ومن حوله أنه ليس مخطئا، مسميا الأشياء بغير أسمائها، ثم يزداد غيه تدريجيا، حتى يصل إلى الفجور والعياذ بالله، وهو ما فعله أصحابنا وأهلونا، حتى استباحوا الصيد يوم السبت، واعتدوا وقالوا: ما نرى السبت إلا قد أحل لنا، إنا لله وإنا إليه راجعون..

والله إنى لأخشى أن ينزل علينا جميعا عذاب من الله، بسبب سوء ما يقترفون.

العجيب أنهم برروا لأنفسهم ذلك بأن الصيد يكون أسهل في يوم السبت!

لقد تناسوا أن الله أباح لنا الصيد ستة أيام كاملة، وابتلانا فقط بيوم، وإني ما أرى ذلك إلا اختبارا لطاعتنا له..

أوَتغرينا بضعة زعانف متراقصة، فنستمرئ الغنيمة السهلة، مسترسلين في احتباسها، واقعين في فاحش حرمتها، معرضين عن بقية أيام الأسبوع على اتساعها وإحلال ربنا الصيد فيها؟

قد يكون الحرام سهلا ميسرا، لكنه يبقى حراما، لا تحسنه سهولة الوصول إليه، ووالله إنه لبلاء لهم بفسقهم

أولست تراه كذلك يا صديقي؟

- بلى ورب موسى وهارون - أجاب الصديق - وأكمل: ولكن لا تنس أننا لم نسكت على منكرهم، وإنما كلمناهم ودعوناهم مرارا فلم نقبل أن نشاركهم ذلك الحرام، لا أكلا ولا بيعا ولا شراء، أم تراك قد نسيت ما بذلناه من جهد في دعوتهم ونصيحتهم وانتهارهم؟

فإن حدث ونزل عليهم عذاب، فإنما تسعنا دعوة موسى عليه السلام يوم أخذته الرجفة ﴿**أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ**﴾.

قال الأول: ولكنك يا صاحبي تذكر بنى عمومتنا

أولئك الذين ثبطونا، وحاولوا إحباطنا وتخذيلنا عن دعوتنا، ورغم أنهم لم يتلبسوا بهذا المنكر، إلا أنهم اتخذوا موقفا سلبيا فقالوا: وما شأننا بهؤلاء العصاة؟

مالنا نحن وإياهم

هكذا كان لسان حالهم ومقالهم فلم يحاولوا حتى نصحهم، بل جاءوا إلينا نحن يقطعون أملنا عن مساعدتهم والأخذ بأيديهم إلى الخير والطاعة، قائلين تيئيسا لنا: لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا؟!

قال صاحبه: ولكننا لم نسكت أيضا بل رددنا عليهم، ودحضنا شبهتهم، وبينا لهم أننا إنما نقوم بواجبنا إعذارا لربنا قبل كل شيء، حتى إذا ما سألنا يوم نلقاه عن دورنا في نصيحة القوم المعتدين؛ وجدنا ما نعتذر به إليه؛ من أمر بمعروف ونهى عن منكر ودعوة إلى سبيله بالحسنى.

ثم ما يدرينا ويدريهم؛ لعلهم يوما يتقون؟

قال الأول: ولكنهم أصروا على سلبيتهم وانعزالهم، ولم يشاركونا في دعوة المعتدين، فلكم أخشى عليهم أن تعمهم العقوبة، بما قصروا في واجب الدعوة والنصيحة والتقويم..

قال الثاني: صدقت يا صاحبي فلا ندرى والله ما قد يحل بهؤلاء الصامتين البكم الذين لا يقدرون على شيء،

عموما.. دعك منهم، إنهم قوم قد حقروا أنفسهم فلم يروا فيها قدرة على التغيير فسكتوا مبتلعين ألسنتهم مفلسفين سلوكهم مبررين كامل تكاسلهم، ، فليسعنا ما وسعهم؛ ولنسكت نحن أيضا عنهم جزاءً من جنس عملهم، ولنعلمن يوم القيامة ما يفعل الله بهم..

قالا هذه الكلمات وقد بلغا شاطئ البحر، فلم يجدا فيه أي أثر للصيادين من قومهم، والمكان خاوٍ ساكن لا يشق صمته إلا أصوات تلاطم الأمواج المختلطة بصياح مجموعة من القردة، تتقافز حولهم في جنون!

قال الأول: أين ذهب القوم؟

ليس من عادتهم التخلف اليوم أبدا!

قال الثاني: الأمر جد عجيب!

والأعجب منه أمر هذه القردة، لم نعتد على وجود تلك الحيوانات هنا على شاطئ البحر، وما سر حركتها الغريبة المتوترة؟!

لماذا تتقافز بهذا الجنون؟؟

هل تراني أتخيل أم أنها فعلا تبكى؟

هلا أجبتني يا صاح..

قال الأول: بل هي فعلا تبكى وأنت لست واهما ووالله إني لأجد في صدري ظنا أخشى أن يكون في محله

قال صاحبه: أمعقول هذا؟؟

أوتفكر فيما أفكر فيه؟!

مستحيل!!

لا، لا انتظر حتى نذهب إلى حيهم فنسأل عنهم ذويهم، ونسائهم، ونستطلع حقيقة ما يمكن أن يكون قد حل بهم، لعله يكون شأنا آخر..

انطلق الرجلان مسرعين إلى حي الطائفة المعتدية، وقد بدا لهم في الأفق رهط من القوم؛ إنهم أصحابهم من الطائفة التي نهت عن السوء، كانوا يقفون آسفين على أبواب بيوتات المعتدين، يضرب بعضهم كفا بكف، غير مستوعبين لحقيقة ما حدث..

دخل الرجلان منزعجين، ونظرا إلى وجوه القوم،

عرفوا فيها التغير والنكران..

نقلوا أبصارهم بين وجوه الناهين عن المنكر من رفاقهم، وبين أفنية بيوت المعتدين – وقد امتلأت بالقردة المتوترة، في مشهد يشبه ذلك الذي رأوه على شاطئ البحر غير بعيد!!

ساد الوجوم،

الصمت الرهيب كان سيد المشهد الكئيب، لم يقطعه إلا حركات القردة وهمهماتها المبهمة،

أما الرجال فقد كان حجم الصدمة أكبر بكثير من مدي تصورهم وقدرة عقولهم، فأسقط في أيديهم، فإذا بهم صامتون، وإذا هم من خشية ربهم مشفقون، وإياه يرهبون،

لقد مسخ الآخرون..

مسخ القوم المعتدون؛ مسخوا قردة خاسئين!!

وإنا لله وإنا إليه راجعون..

أين وجوههم البيضاء الوسيمة؟

وأين بنيتهم الصحيحة السليمة؟

وأين ظهورهم الممشوقة المستقيمة؟!

كيف تحولت إلى تلك الوجوه المشعرة الدميمة، والبنية الشائهة المنحنية المنفرة الذميمة، ذات الحركة الخفيفة السفيهة؟

ما أشبه الليلة بالبارحة والجزاء من جنس العمل!

ما أشبه تشوه ومسخ أجسادهم اليوم، بخسة طبعهم وسفاهة نهجهم حين أقدموا على خرق حدود ربهم بالأمس، وما ربك بظلام للعبيد.

سبحان العزيز الحكيم، سبحان القادر القاهر الجبار ذى انتقام والبأس الشديد!

صاح الرجل بين إخوانه ممن نهوا عن السوء مخاطبا أولئك المسوخ:

أولم ننهكم، أولم نحذركم، أولم ننصح لكم؟

ويكأن القردة دامعة الأعين تشير برؤوسها في حسرة وذلة مصدقة علي قولهم ومؤكدة علي تمام نصحهم، ما أعظم لسان الحال وما أقهره لسان المقال!

صاح صاحبه منفعلا: أما وقد أنجانا الله، فأين أصحابنا ممن ثبطونا، فلم يفعلوا فعلنا، ولم ينهوا عن السوء نهينا؟!

تردد صدى سؤاله طويلا بين الحضور..

و ما من مجيب..

ما من مجيب قط..

❊ ❊ ❊

ضحكات وحسرات

(٨)

ضحكات وحسرات (٨)

« ما ضر مؤمنا مع الصدق شيء، ولا نفع منافقا مع الكذب في ء»

على سطح داره جلس وحيدا، تبدو عليه أمارات الحزن، وتثقل كاهله الهموم..

و كأني به في تلك اللحظات يمر أمام عينيه شريط منصرم الشهور، بينما يعتصر الألم قلبه كلما تذكر الدقائق الثقيلة والساعات الطويلة التي مرت عليه أثناءها، فتلتمع مقلتاه بدموع الندم، ويضيق صدره بهدير المعانى التي لا يكاد يقترب بعضها من لسانه، حتى يصطدم بتلك الغصة التي تملأ حلقه كلما تذكر أن كل الأهل والخلان والأصحاب والأحباب قد جفوه، وامتنعوا عن مبادلته أى حديث ولو حتى رد السلام!

كيف كانت بداية المحنة؟

كيف وصل به الأمر إلي أن يمكث خمسين يوما لا يكلمه أحد؟!

- يا خيل الله اركبى..

- يا خيل الله اركبى..
- يا خيل الله اركبى..

هكذا تردد النداء مدويا في جنبات المدينة، لتنقلب من بعده إلى ما يشبه خلية النحل؛ في نشاطها وجدها واجتهادها..

إنه يذكر جيدا ذلك النداء، وما حدث بعده، كأنه أمس، رغم الأسابيع بل الشهور التي مرت عليه..

لقد بدأ الجميع بعد هذا النداء المهيب يجهزون أنفسهم، ويعدون العدة لسفر طويل هم عليه مقبلون..

مسيرة شهر كامل، في هذا الوقت من العام؛ من القيظ الحارق والحر الشديد!

ظروف قاسية، تحتاج إلى إعداد بالغ، وتجهز كافٍ، يعين على لأواء تلك العسرة التي لم تكن على بال في تلك الظروف..

و بينما الكل في جده واجتهاده وتجهزه وإعداده، إذ بدأ الطابور الخامس والسوس الذي لا تخلو منه أمة، ينخر في أعمدة الهمة، التي تعلو وتلتهب في أرجاء «طيبة» الطيبة.

فما بين معوق ومثبط ومرجف ومشكك؛ مارس ذلك الطابور هوايته الكئيبة.

هاهى مجموعة تقف في الظـل، ترقـب المُجِـدِّين، في تـراخ واسـترخاء، قائلة في تكاسل: لا تنفروا في الحر..

فيأتيها الرد تتلوه شفاه شققها قيظ الصيف المتقد

يأتيها صادعا بقول الحق:

﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾..

و ها هي مجموعة أخرى من طابور الحقد ترقب من يـأتى باليـسير مـن المال أو بـبعض تمـرات لم يجـد غيرهـا ليعـين بهـا في تجهيـز جـيش العـسرة، فيلمزونه في الصدقات، ويسخرون من القليل الـذي بـه جـاء، رغـم أنـه لا يملك غيره، وخير الصدقة جهد المقل.

و مجموعة ثالثة ورابعـة وخامـسة، زرافـات ووحـدانا، لا هـمَّ لهـم إلا التثبيط والإرجـاف والتعويـق عـن إجابـة داعـي الله، والاسـتجابة لمنـادي الجهاد.

حتى جاءت اللحظة الحاسمة، وحان وقت التحرك، وبـدأت خيـل الله في الركوب، واستعدت لملاقاة مدلهم الخطوب.

هنا بدأ المعذرون في الإقبال على الرسول القائد ﷺ..

لم يكن صاحبنا معهم، ولم يعتذر مثلهم قط، فهو لم يزل ينوي الخـروج، وهو الذي لم يك قط أقوى ولا أيسر منه في تلك الغزوة..

بل ما جمع قبلها راحلتين قط حتى جمعهما في تلك الغزوة!

لكنه التلكؤ والتسويف قاتلهما الله..

كان كلما غدا ليتجهز ويتزود؛ عاد أدراجه دون أن يفعل شيئا..

تباطؤ في إعداد العدة وتأخر عن ركب المؤمنين..

لولاهما لما كان فيما هو فيه الآن..

لكنه لم ينس مشهد المعذرين الذين انكبوا على الرسول الأمين ﷺ، تنهمر أكاذيبهم كالمطر..

منهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى؛ فلست أقدر على نساء بني الأصفر، فأخشى أن يغويني حسنهن وسحرهن..

ومنهم من يقول: لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعتك، لكنه والله سفر بعيد؛ بعدت عليّ شقته ولا أقوى عليه.

ومنهم من يحلف بأغلظ الأيمان أنه لا يستطيع الخروج، متعللا بعذر فارغ وعلة تافهة جوفاء..

ونبي الرحمة يحملهم على ظاهر قسمهم، ويذر حسابهم على ربهم ويأذن لهم..

خرجت أفواج المعذرين من عند رسول رب العالمين ﷺ، وما إن خرجوا حتى تلاشت علامات الحزن الكاذب من على وجوه أكثرهم،

فتهللت الأسارير وتراقصت القلوب المريضة فرحا بمقعدهم خلاف رسول الله، ولو خرجوا في المؤمنين ما زادوهم إلا خبالا، ولأوضعوا خلالهم يبغونهم الفتنة، وفى المؤمنين من يسمع لهم..

لكن كره الله انبعاثهم، وطمس على قلوبهم بنفاقهم وكذبهم، فثبطهم، وقيل اقعدوا مع القاعدين.

وبينما هم في فرحتهم المقززة بتخلفهم عن ركب الفداء والتضحية، وضحكاتهم الفاجرة تتعالى في الأسواق، وقد ظنوا أنهم قد خدعوا الله ورسوله، إذ هرع إلى نبى الملحمة أقوام يبدو عليهم الفقر والحاجة، وتظهر على ثيابهم الرثة علامات شظف العيش وخشونته مع شدة الحاجة..

أقبلوا على الحبيب مشفقين وجلين، وقد سمعوا إنه لن يخرج إلا من كانت له دابة يركبها، وظهر يسافر عليه هذا السفر الرهيب.

دخلوا على النبي ﷺ خائفين أن يردهم عن أسمى أمانيهم التي يتوقون إليها، فقالوا: احملنا.

إنهم يطلبون منه الظهر الذي عليه يسافرون مجاهدين في سبيل مالك يوم الدين..

لكن الجواب جاء علي غير ما يرغبون..

لقد قال رسول الله ﷺ الكلمة التي لم تكن لأعينهم وقلوبهم الصافية طاقة بها..

- لا أجد ما أحملكم عليه!

يا الله!!

هل يمكن لصاحبنا أن ينسى ما حل بهؤلاء الصادقين، حين سمعوا إجابة رسول الله ﷺ ورده إياهم؟!

لقد نزلت الكلمة على قلوبهم شديدة، وقد تزلزل نفوس قد بلغ بها الصدق مبلغه

نفوس كانت قد تجهزت لإحدى الحسنيين وقلوب تاقت إلى سعادة الدارين، فلما فوجئت أنها لن تتمكن اليوم من نيل هذا الشرف وتحصيل ذلك الفضل؛ تجمع كل سيل هذا الصدق والإخلاص والشوق، وصعد فياضا إلى المآقى، ليتفجر أنهارا من دموع الأسف؛ حارة، تخالط حرارتها نكهة الصدق وطعم الإيمان.

لقد رجع الصادقون المشتاقون، وأعينهم تفيض من الدمع، حزنا ألا يجدوا ما ينفقون.

شتان شتان بين سلوكهم، وبين سلوك من سبقهم من المعذرين..

هؤلاء حزانى على حرمان الطاعة، وأولئك يطربون ويفرحون للخلاص منها..

هؤلاء صادقون نالوا أجر كل مسير يسار، وكل وادٍ يقطع بصدقهم وإخلاصهم.. وأولئك أعقبوا نفاقا في قلوبهم، بكذبهم وإخلافهم وعدهم مع ربهم، والأدهى من كل ذلك؛ والأغرب من مجرد سعيهم لتفويت طاعة ربهم هو فرحهم بذلك البوار والحرمان العظيم!

شتان بين هؤلاء الصادقين بنياتهم مشفوعة بهمهم العالية، وإقدامهم المبكر الأمين، وحزنهم العميق علي فوات أسباب العمل الصالح، وبين أولئك المعذرين بتباطئهم وتكاسلهم الذي انبثق عن صريح نفاقهم، والذي ربما أسعدهم سعادة عارضة منقوصة، لا تلبث كثيرا حتى يعقبها ندم العمر وخسران الدهر.

لكن صاحبنا لم يك من المعذرين، لا ابتداء ولا انتهاء..

صحيح كان يستطيع لو أراد –وهو من أوتى حجة وبيانا– أن يكذب على الرسول حين عاد ومن معه سالمين قد نصرهم الله رب العالمين..

لقد كان يستطيع أن يلقى أعذارا تبدو للسامع مقنعة، ولم يكن ليعجز عن الاختلاق والادعاء والتنميق، بمهارة وفصاحة منقطعة النظير وهو العربي اللسن الفصيح..

لكنه أَبَى..

لقد اختار الصدق، ولقد تعلم الدرس البليغ..

ولذا فقد قرر تحمل العاقبة، لسوف ينتظر ويتمهل، حتى يقضي في أمره الحكيم الخبير..

صحيح الأمر صعب، والموقف معقد..

لكن الفرج تأخر والحال من تأزم إلى تأزم

اربد الكون في وجهه، والقلب تمزق، والصبر قارب أن ينفد..

أيام خمسون مرت؛ يتجرع مرارة الندم والألم وحده..

لكنه كان يوقن أن ما اقترفه واكتسبه، هو سبب ما آل إليه حاله، ولا يظلم ربك أحدا..

إنه يتألم، ولكنه أيضا يتصبر..

و بينما تختلج في صدره الأفكار والهموم، وتتوارد عليه الذكريات، قد ضاقت عليه الأرض بما رحبت، بل حتى نفسه التي بين جنبيه تسعه، وبينما الدنيا سوداء كالحة، والأفق كئيب مظلم في عينيه..

إذا بصوت يشق سكون الكون؛ وإذا بمن ينادى من بعيد، بنداء يخترق مجال السمع الرتيب..

نداء أعاد إليه حياة كادت تفارقه، يحمل البشارة، ويا لها من بشارة!

قد شرحت له صدرا، وأقرت لها عينا، وأضاءت له قلبا، وطمأنت له نفسا..

أحقٌ ما أسمع؟!

بصدق يقول المنادي أبشر؟!

أيعقل؟!!

أواقع أم خيال؟!

أهو حلم جميل أم هو وهم نفس عليلة أعياها الندم وأضمرتها الوحدة وأسقمها الهجران؟

أعد عليه أيها البشير، وأطرب قلبه المسكين النادم المتحسر المتشقق الكسير..

تقول: أبشر؟!!

نعم نعم يسمعها جيدا

رغم أن الفرس التي تطير على متنه لم يصل بعد

إلا أنه يسمعها

بقلبه قبل جوارحه يسمعها

ترددها جبال طيبة

لكن..

كيف يستبشر وقد تخلف عن الجهاد؟

كيف يستبشر وقد خرج الضعفاء والذين لا يجد النبى ﷺ ظهرا يحملهم عليه، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع، بينما قعد وتجتمع عنده دابتان معا في آن؟

كيف يستبشر ولم يتبع حبيبه في ساعة العسرة؟

كيف يستبشر وقد أطمع فيه الكفار، فظنوه منافقا يمكن استمالته، وكاتبوه يغرونه ويبغون لحاقه بهم؟!

لا بشرى تعزيه إلا بشارة بتوبة من الله، فهل هى ما عندك أيها البشير؟!

إذن..

فالله أكبر..

الله أكبر..

- لك ثوباى أكسوكهما جزاء هذه البشارة، ووالله ليس لدى اليوم غيرهما..

هلم به إلى حبيبه، يسمعها منه، ويمتع برؤيته نظره، وبكلامه سمعه..

«أبشر بخير يوم مَرَّ عليك منذ ولدتك أمك!!»

يا إلهي.

ما أعذب هذه الكلمة!

لكم اشتاق كعب بن مالك إليها أياما ولياليَ كان رفيقه فيها الدمع، وصاحبه فيها الألم، وقرينه فيها الندم..

ما أجملها من كلمة، حين تخرج من بين شفتى الحبيب ﷺ ووجهه يبرق بالفرح..

و لقد استحقها كعب رضي الله عنه..

استحقها لصدقه..

واستحقها لصبره..

واستحقها لندمه، وتوبته التي كانت فرعا عن صدق قلبه..

ما أحوجنا إلى هذا اليوم..

إلى خير يوم..

يوم أن يتوب الله علينا ويغفر ذنوبنا..

يوم أن يُنقى القلب من الدنس، وتغسل الصحيفة من ذنوب أثقلت الكاهل، ودنست النفس..

إنه حقا خير يوم..

يوم المغفرة..

إنه يوم لا يكون إلا للصادقين..

الصادقين المخلصين، الذين تتحرق قلوبهم شوقا لإرضاء مولاهم بكل ما يملكون، والذين لا يحزنهم إلا عدم تمكنهم من طاعة، أو تقصيرهم في قربى، وأولئك لهم الخيرات.

أما الصنف الكاذب المطموس على قلبه؛ الذي انتكست فطرته فصار يفرح بتقصيره وعصيانه، فمثله كمثل الأجرب، الذي لا يريحه إلا ما يؤلم الصحيح المعافى..

لا يرتاح إلا بحك جلده حتى يدمى، ولو صح جلده لتألم، لكنه المرض عافانا الله، وما أقبح ذاك المرض إن كان في القلب!

نعم قلب المنافق هو قلب أجرب، لا يسعده إلا تمزيقه بمخالب الفجور وأظفار العصيان..

عن هؤلاء قال ربنا في الكاشفة الفاضحة:

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾..

سحقا لهم..

أبهذا فرحوا، ولهذا يضحكون؟

أوهذا ما يحبون؟!

تخلفهم عن جهاد وبذل؟!!

ألهذه الدرجة يتفاوت ميزان الفرح والحزن، وتتباين معايير الضحك والبكاء؟؟!

فمن ضحك لتخاذل وانبطاح، إلى بكاء لفوات بذل وتضحية وعطاء، وما بين هذا وذاك تتباين قلوب الناس..

ترى..

بأي شيء تفرح قلوبنا، وعلى أى شىء تتحسر؟

من أي شيء تضحك، وعلى أى شىء تبكى؟؟

أيبكيها ما يُبكى الصادقين، أم يضحكها ما يضحك المسرفين؟!

هنا المحك، وهنا مربط الفرس؛ وهنا المعيار والمسبار والمجس:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

فاللهم اجعلنا مع الصادقين.

❊ ❊ ❊

أمواج الكبر

(٩)

أمواج الكبر (٩)

«من ملاطفة أمواج الكبر والطغيان، إلى مصارعة أمواج الطوفان؛ والجزاء من جنس العمل، فهل وعيت الدرس يا إنسان؟؟»

ما نراك إلا بشرا مثلنا، ولا فضل لك علينا..

أما سئمتم تلك الكلمة؟

أما مللتم من تلك الشبهة؟

و من زعم غير ذلك؟

من قال إنه فوق البشر؟

أو بعد كل تلك السنين بل القرون الطويلة التي مكث فيها بين ظهرانيكم يدعوكم ويناصحكم، لازلتم على شبهاتكم الخرقاء، وأوهامكم الساذجة؟!

وقف الشيخ الطاعن في السن يستمع إلى تلك الاتهامات والإهانات التي تنهمر على مسامعه من قومه لا لشيء إلا لأنه خاف عليهم من مغبة ما يفعلون..

وأراد لهم الخير والفلاح..

لأنه دعاهم إلى توحيد الله!

كل جريرته في نظرهم أنه دعاهم لنبذ أغلال الشرك، وكسر أصفاد الكفر، والخروج من سجن عبودية المخلوقين إلى عبادة رب العالمين.

لقد انتصف القرن العاشر من عمر دعوته ولم تزل شبهاتهم كما هى وكأنما يورثها جيل إلى جيل، وكأنما يتواصون بها فيما بينهم..

قرون عشر قاربت على الانقضاء، ولا يزال هذا المشهد المتكرر يعاد كل يوم تقريبا، وهو على مصابرته وصموده..

يجهر ويسر، ويكلمهم جماعات وأفرادا، زرافات ووحدانا، وما زالت ردودهم واستشكالاتهم وإجاباتهم كما هي؛ صورة مطابقة للأصل القديم!

ألم تنظر إلى من يلتفون حولك؟

قالها أحد وجهاء القوم والكبر والتعالى يقطر من حروفه..

«ألا إنهم أراذلنا وصعاليكنا»، صاح بها آخر.

أوبعد أن اتبعك أولئك السفهاء المعدمون؛ تريد منا نحن أن نكون معهم ومنهم وفي مستواهم؟

أفنؤمن لك وأتباعك على هذا الحال من الفقر والعوز؟

نحن الأكابر ذوو المال والجاه والسلطان - نوضع في كفة واحدة مع أولئك الصعاليك الذين اتبعوك؟

حاشا وكلا..

وهل تظن أنهم اتبعوك اقتناعا أو فهما؟

إنما هو بادئ رأيهم..

وهل لأمثال هؤلاء رأي أو فهم؟!

وهل تعود أولئك الأراذل على التفكير؟

وهل لهؤلاء عقول يعون بها أصلا؟

ما اتبعوك إلا حينما ابتدأوا ينظرون، ولو أنهم أمعنوا النظر والفكر لما اتبعوك..

كفاك تفضيلا لنفسك وأتباعك علينا، فلسنا نرى لكم علينا من فضل..

بل نقولها لك واعقلها جيدا: إنا لنظنكم كاذبين.

هكذا توالت الاتهامات

وانهمر سيل الكلمات أشبه باللكمات القاسيات

انهمرت شبهاتهم ومتعجرفات حججهم على مسامع نوح عليه السلام.

إذن فلا جديد تحت الشمس.

هذا ما يقولونه منذ ألف سنة إلا خمسين عاما!

بل هذا ما يقوله وسيقوله العالون المتكبرون في كل زمان ومكان..

هي نظرة العلو والاستغراق في استعظام النفس والاستكبار في الأرض..

هى رفعة فرعون، وعلو النمرود، وغرور ملك الأخدود، وكبر قوم عاد وثمود.

ويكأنها صفات وراثية تتكرر في متكبري كل جيل لتقف حائلا بين المترفين المنعمين وبين الهداية لصراط الله المستقيم..

ألفاظ تتكرر وشبهات يعاد إنتاجها في كل جيل باختلافات بسيطة لا تغير المعنى الثابت، ولا تهز الفكرة الراسخة في قلوب الطاغين..

فكرة الاغترار والاستعلاء..

بالجاه..

بالنسب..

بالسلطان..

بالمال..

و**بالقوة**..

إنها الفكرة الذي ستدفع فرعون لأن يقول بعد قرون: أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتي أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين..

و التي ستدفعه بعد ذلك لأن يقول: إن هؤلاء لشرذمة قليلون..

إنها الفكرة الذي ستدفع أهل مدين لأن يقولوا لشعيب: **وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ**..

والتي ستدفع أكابر قريش لأن يقولوا: **لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**..

والتي ستدفع مُترفي كل قرية وأكابر مجرميها ليمكروا فيها، لا لشيء إلا استكبارا في الأرض، ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله.

لقد خبر نوح هذه الأفكار الاستعلائية جيدا، وعلم أنها الحائل الأكبر الذي حجب الهداية عن أولئك المستكبرين..

كيف لا وهم يسمعونه مثلها منذ مئات السنين..

هل انتهيتم؟

متي سوف تنتهون؟

هل فرغتم من طرح شبهاتكم؟

فليتكلم نبى الله إذاً..

فليقذف بالحق من عند ربه، ليدمغ طبقيتكم المقيتة التي لا محل لها في واحات الهداية المظللة بظلال الأخوة الإيمانية الوارفة، والتي لا تميز غنيا ولا فقيرا ولا قويا ولا ضعيفا ولا سيدا ولا عبدا..

الكل أمام الهداية سواء كأسنان المشط لا يتفاضلون إلا بقبولهم لهدى الله الذي أنزل إليهم..

فليرد نبى الله نوح لعل الوقر يزول عن آذانهم وتخرج قلوبهم من أكنتها..

﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾؟!

ها هو يناديهم بلطف وسماحة بعد كل إهاناتهم ويذكرهم أنهم قومه..

و ماذا لو كنت على حق وبينة من ربى، وقد عميت أبصاركم وبصائركم عن رؤيتها وفهمها؟

ماذا لو أن ما جئتكم به رحمة كما بينت لكم، أفتحرمون أنفسكم منها؟!

أفتظنون أنى ألزمكم بشىء تكرهونه؟

الأمر ليس إلزاما فلم ولن أكرهكم على شىء، لكنه الحرص على أن تصيبكم تلك الرحمة..

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾..

و هذا حال معشر الأنبياء ومن سار على دأبهم من المخلصين الصادقين..

لسان حالهم: لا نريد منكم جزاء ولا شكورا، ولا نسألكم أجرا، ولا ننظر إلى متاع الدنيا الزائل الذي في أيديكم، فلا تخشوا على دنياكم منا فلسنا طلابا لها، ولا نبتغى بدعوتكم إلا ثواب الآخرة، والأجر من الله..

هكذا تكون الدعوات المباركة..

دعوات الأنبياء التي كانت كالريح المرسلة، تحمل الخير، ولا ترتحل بشيء مقابله..

تلك الدعوات التي تترفع عن عرض الدنيا، ولا ترغب فيها عند النـاس، ولا يطمع حاملوها في شيء مقابلها؛ سواء كان مالا أو منـصبا أو كثـرة أتبـاع فلا تنكسر لظالم، ولا تذل لغنى، بل تظل دعوة عزيزة مرفوعة الـرأس، حتـى وإن كان من يحملونها أفقر الناس وأشدهم حاجة، لكـن يبقـى شـعارهم كـما سيقولون يوم القيامة: تركنا الناس ونحن أحوج ما نكون إليهم..

﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾..

فهل وصلت بكم الجرأة أن تطلبوا من نبى مكلم ورسول صاحب عزم أن يرد الناس عن دينه لأجل فقرهم؟!

و ماذا يقول لربه إن فعل؟!

بماذا يجيب من أرسله بالهدى للعالمين حين يلاقونه ويلاقيه؟

أفيطردهم لأنهم فقراء؟!

هل تطلبون دينا طبقيا لا مكان فيه للبسطاء؟!

و حتى لو كنتم تتهمونهم بالسفول والدنو فقد أقبلـوا عـلى الله وأنـابوا إليه، فهل نقطع عليهم طريق هدايتهم بسبب رقة حالهم؟!

أى منطق هذا؟!

بل أى ظلم وأي تجبر؟!

ويكـأنكم أيها الأكابر الأغنياء ترون أن أولئك البسطاء لا يرقون لمنزلة البشر، ولا يستحقون عيشا كريما لا في الدنيا ولا حتى في الآخرة..

﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾..

كان هذا رد نوح الأخير على أول ما قالوه عنه..

لقد اختار أن يؤجل الدفع عن نفسه لما بعد الدفع عن إخوانه وأتباعه الذين خاض هؤلاء المستكبرون فيهم..

تقولون ما هو إلا بشر مثلكم وليس له فضل عليكم؟!

فوالله ما جاوز ذلك يوما، ولا ادعى غيره..

وها هوذا يؤكد مرة أخرى على هذا المعنى..

نعم لم أقل إنى ملك، ولم أدع أن معي خزائن ملأى بالمال أغنيكم بها وأزيد مالكم..

ولم أقل يوما إننى أعلم الغيب، ولم أنسب صفة من صفات خالقى لنفسي..

إنما لسان حالى ومقالي كسائر إخواني الأنبياء: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾..

لكن كما أننى بشر، فأنتم كذلك، وأيضا الذين ازدريتموهم منذ قليل..

الذين قلتم عنهم إنهم أراذلكم، وازدرتهم أعينكم، هم بشر أيضا مثلى ومثلكم، ولا فضل لأحدنا على الآخر إلا بما يعلمه الله في نفسه من التقوى..

أنتم أيها الكبراء من زعمتم لأنفسكم فضلا على غيركم..

وهكذا حال المستكبرين في كل زمان..

يرمون من يدعونهم إلى الخير بتهمة التكبر والرغبة في الرياسة عليهم، والحق أنها ذلك داؤهم وتلك آفتهم، وكما قال الأولون: رمتنى بدائها وانسلت..

﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾..

و كذلك حال ضعفاء الحجة ومنعدمي المنطق..

حين يعجزهم حامل الحق بحجته، ويعييهم منطقه يسارعون إلي مطالبته بما يعتقدونه من التحدي والتعجيز..

فهلا تردون على حجته ومنطقه بدلا من وصفها بالجدال؟!

وهل إثبات صدقه ينفعكم إذا جاءكم ما طلبتم؟

إنه الكبر الذي تمكن من نفوسكم..

والعلو الذي استشرى في مجتمعكم فاستحققتم ما سيصيبكم..

استحققتم أن تطهر الأرض منكم ومن أمثالكم، وتغسل ظاهرها من تعاليكم..

وليأت جيل جديد قد طَهُر من تلك الأفكار المريضة..

ولينشأ مجتمع لا مكان فيه لتفاضل بجاه أو بمال أو بنسب أو بمنصب وسلطان..

حتى لو كان النسب لأقربكم إلى الله..

ولو كان نسبا مباشرا لنبيكم ورسولكم..

ولو كان ابن نوح عليه السلام نفسه فلن تغنيه بُنُوته لنوح من الله شيئا..

إنه المعيار الذي لم يعرفه الهالكون في الطوفان..

لم يعرفه الغارقون في أمواج العلو والاستكبار..

معيار التقوى والعمل الصالح

المعيار الذي من دونه لم يغن نوح عليه السلام عن ولده وزوجه..

ولم يغن لوط عليه السلام عن امرأته..

ولم يغن إبراهيم عليه السلام عن أبيه..

ولم يغن محمد عليه السلام عن عمه..

بل حتى ابنته التي هى من خير نساء الدنيا؛ قال لها: «**اعملي فلن أغني عنك من الله شيئا**»!

ابنته التي قال يوما أنها لو سرقت - وحاشاها أن تفعل - لقطع يدها..

هذا هو معيار التفضيل الحق، ومناط النجاة الوحيد، الذي كان ينبغي أن يظهر في الأرض، وأن تطهر المعمورة من خلافه، فتغسل من أدران الطبقية والتعالى والتفاخر بالأنساب والأموال، التي جُعلت ردحا طويلا من الزمان حائلا بين المتكبرين وتوحيد ربهم، وأغرقتهم في بحار الشرك، قبل أن تغرقهم أمواج الطوفان المتلاطمة العاتية، فأمواج بأمواج والجزاء من جنس العمل!

ويوم القيامة يحشرون كالذر يَطَؤُهُم النـاس، ولا يلجـون الجنـة، طالمـا تلاطمت في صدورهم تلك الأمواج..

أمواج الكبر.

❊ ❊ ❊

إن ربي لطيف (١٠)

إن ربي لطيف (١٠)

«إن ربي لطيف لما يشاء؛ يا لها من كلمة وسعت الأرض والسماء!»

بدأت سنابك الخيل، وخفاف النوق، تنهب الأرض نهبا، حاملة تلك العائلة التي فرقها نزغ الشيطان عقودا..

على بعد مئات الأميال مكث الشيخ الكبير، صابرا محتسبا، يغالب حزنه الفطرى على ضياع فلذتي كبده، وأبرِّ أبنائه به..

سال دمع تلك الفطرة المحبة، وترقرق من عين جانبها النوم القرير ردحا طويلا من الزمان حتى اجتمع البكاء مع السهد، فذهب نور البصر، ليبقى ضياء البصيرة، وكفى به ضياء.

فجأة ودون سابق نذير؛ انتبه الشيخ الكبير مهيب الطلعة وقور السمت رغم حزنه وهرمه وإذ به يعتدل ويفاجئ من حوله بعبارة ما أعجبها؛ جعلت أولئك الصحب والآل، يظنون أن الهِرَم والحزن قد أثرا به؛ لقد فاجأهم بقوله:

﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾..

قالها الشيخ بصوت مطمئن واثق، يكاد الفرح والبِشر يقطر من حرفه!

- يوسف؟!
- ماذا تقول؟!!
- أين يوسف الآن وقد مرت عشرات الأعوام على غيابه؟
- ألا زلت تذكره؟
- ألن تنفك عن هذا الأمل الذي هو عن قلبك لا ينقطع؟
- أيرضيك الحال الذي وصلت إليه بسبب كثرة ذكرك ليوسف؟
- ألم نقل لك من قبل إنك تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين..
- تالله إنك لفي ضلالك القديم

وبينما هم في تساؤلاتهم واستعجابهم من كلمات نبى الله يعقوب عليه السلام والتي فوجئوا بكم الجزم واليقين اللذين خرجت بهما..

إذ دلف إلى المنزل النبوى العامر، بشير الابن الغائب يحمل قميصا يعبق بالريح الزكية، التي وجدها نبى الله يعقوب عبر رياح الصحراء المختلطة برمالها!

إنه لقميص يوسف!

يوسف حي!

يوسف حي!

لم يمت كما زعموا..

لم يأكله الذئب كما سولت لهم أنفسهم أن يدعوا..

يوسف حي، وهذا قميصه، وتلك ريحه التي سبقت نفحاتها..

أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ؟!

- بلى والله لقد قلت
- ولقد صدقت ولم نصدق..
- بلى والله قد فضلت علينا بنور النبوة، ويقين الصدق الذي رزقت به..

بادر البشير فألقى بالقميص على وجه قد حفر الحزن والألم معالمه عليه..

و ما بين طرفة عين وانتباهتها، فوجىء الجمع بنور البصر يعود ليجاور نور البصيرة، ويزين الوجه الصبوح، الذي طالما بللته العبرات الحزينة.

لقد صدق حدس المحب، حين شحذ الشوق حواسه، وحفز الحنين مشاعره.

و كذلك شوق المحبين حين يبلغ بمحب مبلغه، فيعبر حدود الزمان والمكان، ليشعر ويشم ويحس بقرب حبيب منتظر.

أبى الله إلا أن يمد في عمر يعقوب، حتى يرد إليه بصره، ليملي عينيه برؤية الحبيب الغائب..

وما هى إلا أيام حتى دخلوا عليه..

دخل أبناؤه العشرة

ويكأن لحم وجوههم يكاد يتساقط خجلا..

هذه المرة لا توجد مبررات..

لا توجد كلمات استباقية..

لا توجد مزاعم ولا ادعاءات..

فقط الندم الممزوج بالخجل والحياء..

لقد انكشف كل شيء، وظهر الحق وحصحص..

يوسف حي..

لا ذئب ولا غيره..

لا معاذير ولا حجج..

إنما هو الاعتراف بالذنب لا غير..

- يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ..

خرج الطلب من بين شفاههم هذه المرة يقطر بالصدق..

يبدو أنهم قد تابوا فعلا، وأنابوا إلى ربهم..

ما أحوجهم الآن إلى استغفار أبيهم..

ذلك الرجل الصالح الذي تحمل لعقود ما لم يتحمله أحد..

أتراه يستغفر لهم؟!

أتراه يفعل كما فعل يوسف، حين أكرمهم وهو الكريم ابن الأكرمين قائلا: **لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ** ؟!

بلا شك.

و هل من أخلاق الأنبياء وسمتهم في مثل هذا الحال إلا ذاك الصفح الجميل؟!

- **سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ** !!

ما أسعدهم بتلك العبارة التي انبعثت من بين شفتين قد أذابهما الذكر ونحلهما التسبيح، وقد بلغ صاحبهما من الكبر عتيا مستغرقا في العبادة والتعظيم لله رب العالمين، لكن شباب النبوة ورونقها، لم يزل متوهجا في نفسه، باعثا القوة في في كل أرجاء كيانه.

هنيئا لهم استغفار النبيين يوسف وأبيه..

لكأني بهم يتنفسون الصعداء؛ وقد اطمأنوا إلى عفو أبيهم قد سبقه عفو أخيهم، وبقى العفو الأهم..

عفو ربهم الذي هم إليه راغبون..

المهم الآن قبل أى شيء أن يلتقى الشتيتان، وأن يلتئم الشمل، فالقلب عانى من الفرقة عقودا، وآن له أن يستريح..

هلموا إلى يوسف وأخيه، فلكم تاقت عين الأب الحزين إلى أن تقر

برؤيته، وتسعد بالنظر إليه وإلى أخيه..

- ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾..

قالها يوسف عليه السلام وهو يعين أبويه على النهوض إلى جواره على العرش..

ها قد جمع الله الشتيتين بعد أعوام من الحزن والفراق ظن فيها البعض ألا تلاقيا..

وها قد تحققت الرؤيا، ورؤيا الأنبياء حق.

- ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾..

ما أصبرك يا يوسف وما أعظم قيمك وخصالك!

أوبعد كل ما لاقيت من جفوة الإخوة، وظلمة الجب، وألم الفراق، وربقة الأسر، ومرارة الرق، ووحشة الغربة، وفتنة المراودة، وضراوة السجن، وعلقم الظلم..

أوبعد كل ذلك لم يشهد قلبك إلا الإحسان؟!

لم تقل وقد فتنني ربي

أو قد ابتلانى ليختبر صبرى وجلدى..

ولو قلت لصدقت..

لكنك لم تقل

لم تر في كل ما حدث إلا الإحسان

ولم تذكر في ختام قصتك الحافلة بالمحن والآلام إلا الفضل والإنعام؟

أى قلب هذا؟!

ليس بغريب عليك يا من قلت من قبل بينما كنت في أصفاد السجن: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾..

لقد رأيت الفضل والنعمة وأنت حبيس جدران السجن الرطبة، فكيف لا تراه هاهنا؟!

لكأني أرى جدك إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في خضم البلاء، وهو يترك امرأته ومعها فلذة كبده في صحراء قاحلة، امتثالا لأمر مولاه، فلا يترك الحمد، ولا ينسى النعم، قائلا في هذا المقام الحزين: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾!

و كيف أسمع لكلماتك تلك ولا يقفز إلى ذهني مشهد أخيك أيوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إذ هو يتجرع مرارات الابتلاء أعواما مديدة، ما بين فقد أهل ومال، وآلام سقم، وأنات مرض، ورغم ذلك لا يعبر عن كل ما رأى من بأس إلا بنفثة يكللها الثناء: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾!

إنه لدأب الشاكرين وخلق المحبين، وأنت منهم أيها الصديق الكريم..

لا يرون إلا الفضل، ولا يتذكرون إلا الإنعام، وكل ما دون ذلك عندهم هين..

- وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن .....

من بعد ماذا؟

ألم تقل أيها الصديق إنه لا تثريب عليهم؟!

ألم تقرر أنه لا لوم ولا عتاب؟

بلى قال

وكذلك كان الحال وجواب السؤال..

و هل يظن بالكريم ابن الأكرمين إلا ذلك؟!

لن يعاتبهم ولن يذكرهم بما فعلوه به صغيرا، بل سيقول عبارة هى من أعاجيب أدب الأنبياء في الصفح؛ لسوف يقول:

- وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ .

نزغ الشيطان؟!

سبحان من أدبك يا نبى الله!

قد وعدت فأوفيت..

لم تثرب ولم تعتب عليهم وقد تابوا وأنابوا، فنسبت كل ما فعلوه لنزغ الشيطان..

- إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ..

حقا إنه اللطيف الذي يسوق عبده إلى مصالح دينه ودنياه، ويوصلها إليه بطرق خفية، ربما لا يشعر بها العبد ولا يتوقعها، فيوصله من خلالها إلى السعادة الأبدية، والفلاح السرمدي، من حيث لا يحتسب..إنه لطف الله بأوليائه، بتيسيرهم لليسرى، وتجنيبهم العسرى..

هل كان من أحد يتصور أن تكون هذه النهاية؟

هل كان من أحد يظن أن يكـون الـسجن ومـن قبلـه الأسر = أسـباب الفتح؟!

هل يتخيل مخلوق أن يكون هـذا الفـضل هـو مـآل الإلقـاء في الجـب والاستعباد والتهديد، وسائر حلقات سلسلة الابتلاء التـي مـر بهـا يوسـف التي لو فُقدت إحداها فربما لم تكن تلك نهايتها..

إنه الله اللطيف العليم الحكيم سبحانه..

وبعد كل هذا الإنعام والفضل الذي لا يحصى، هـا هـو يوسـف عليه السلام يرفع يديه ليتوج قصته بأبدع نهايـة، وليـدعو بـدعاء مـا أرقـه ومـا أعذبـه؛ يلخص به رحلته الحافلة في الدنيا، ويبتهل إلى حبيبه ومولاه، طالبا أن يمتـد الفضل للآخرة فيلقاه مسلما من الصالحين: **رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ** .

❊ ❊ ❊

حسرات

(١١)

سكـــرات (١١)

- ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٌ﴾

تمتم الرجل الصالح بتلك العبارة، وهـو يتفـرس في الوجـوه الوسـيمة لأولئك الشباب اليافع، الذين دخلوا عليه بينما هو يعمل في أرضـه، طـالبين منه استضافتهم لبرهة من الوقت، فهم عابرو سبيل يحتاجون إلى مأوى، وقد طال بهم السفر..

- إنكم قوم منكرون!

بتلك الكلمات أجابهم

ليست هذه طبيعته، فهو لا يرد ضيفا، لكنه قد سيىء بهـم وضـاق بهـم ذرعا، وهو الذي يعلم جيدا ما سيحدث إذا تسرب الخبر لأهل قريته..

هو يبغي مصلحتهم، ووجودهم هنا ليس أبدا من تلك المصلحة، وهـو رجل ليس له بالقوم قوة يمنع بها أضيافه مما حتما سينالهم إذا هـم وصـلوا إليهم..

- جئناك من عند عمك، وقد رحب بنا، وأكرم ضيافتنا، ولا نـراك إلا كريما مثله؛ لا ترد ضيفا، ولا تصد عابر سبيل يلوذ بك..

قضى الأمر إذن..

لم يعد هناك بُدٌّ من ضيافتهم، وليلطف الله فيما يكون..

انطلق الرجل الصالح أمام أضيافه يتقدمهم إلى داره البسيطة، وهو يعرض لهم بالكلام أثناء سيرهم محذرا إياهم من أهل سَدوم الذين ساكنهم ردحا من الزمان، فلم ير أسوأ منهم خلقا، ولا أخبث منهم طوية..

ظل يكرر عليهم تحذيره طوال الطريق، وهم ينظرون إلى بعضهم البعض نظرات ذات مغزى..

إنهم يعلمون جيدا طبيعة أهل سدوم وكذلك عمورية فما جاءوا إلا لذلك!!

وصلوا إلى داره المتواضعة، ودخل الرجل الصالح يتقدم أضيافه..

نادى أهل بيته يعلمهم أن في البيت أضيافا، ويأمرهم بإكرامهم..

سارعت ابنتاه لتنفيذ أمره، وإكرام أضيافه بالطعام..

إلا أن امرأته كان لها رأي آخر..

تلك المرأة التي طالما أذاقته الأَمَرَّين..

تلك المرأة التي لم تخالط بشاشة الإيمان يوما قلبها!

تلك المرأة التي طالما كان انتماؤها الأول لقومها، وولاؤها الأوحد لهم، على ما هم عليه من الفحش والفجور..

لقد ظلت تحرص على ما يجعل لها حظوة ومكانة لديهم بغض النظر عما يرتضيه زوجها..

لقد رأت المرأة الشباب الوضيء وعلمت أن قومها منكوسي الفطرة سيفرحون بهم أيما فرح..

لم ترع المرأة الكافرة زوجا، ولم تقدِّر عرفا، ولم تلتفت لحرمة..

سارعت المجرمة لتسرب خبر الأضياف إلى قومها..

لم تمض دقائق، حتى كان خبر الشبان قد سرى في القرية الأثيمة، سريان النار في الهشيم..

- لوط لديه شباب حسان في بيته، وقد نهيناه أن يُضَيِّف أحدا إن كان يبغى البقاء بين ظهرانينا..

هذا الرجل الذي يصر على التطهر، على غير عادتنا..

كان الأولى بنا أن نخرجه، وهو الذي يذكرنا -كلما رأينا طهره وعفاف بناته- بنجاستنا وقذراتنا التي نرعى فيها رعى الخنازير في حظائرها المنتنة..

كان الأولى أن نخرجه وأهله، فبضدها تتمايز الأشياء،

ولا ينبغى أن يكون بيننا من لا يعمل بعملنا..

هذا الذي يظن نفسه أفضل منا، وتتأفف نفسه عن مشاركتنا فجورنا..

إنه الآن يتحدانا، وقد تركناه على مضض، ثم ها هو يأتي بأضياف، يظن أننا لن نصل إليهم..

هلموا إليه فلنلقنه درسا لا ينساه، ولنستمتع بأضيافه الذين تجرأ فأتى بهم إلى قريتنا، ولا يلومن إلا نفسه..

انطلق رجال القرية، وعلى رأسهم سادتهم وكبراؤهم، قد ساوت بينهم جميعا حرارة الشهوة، وجمعت بينهم نيران الفتنة، وصهرتهم في كيان واحد..

كيان الفسق وانتكاس الفطرة والفجور..

هرعوا جميعا إلى بيت لوط يمني كل منهم نفسه بالفريسة الشهية التي هو مقبل عليها..

لقد تعالى ضباب الشهوة ليطغى على كل شيء..

لتنخرم المروءة، ولينطمس الخلق القويم، وليُمحى أي أثر لفطرة سليمة، ورجولة وشرف..

ما أشبههم في تلك اللحظة بقطيع من الحيوانات المفترسة؛ يسيل لعاب الجوع من بين أشداقها..

ما أشبههم بجمع من الضباع الخسيسة، لا تفكر إلا في سد رمقها، مهما كانت وسائلها..

بلى والله إنهم لأدنى من الحيوانات، فإنها لا تأتي إلا ما فطر الله غريزتها عليه، إبقاءً لجنسها وحفظا لنسلها، فلا تنحرف لشذوذهم ولا تتردى في دركهم، وهي مع إتيان ما أحل الله لها؛ ربما توارت عن الأنظار، فلا يكاد أحد يشعر بها، ولا تجاهر بما هم به يجاهرون وما هم بكل صفاقة ووقاحة في ناديهم يأتون.

الغريب أن الحيوان ليستقيم في فطرته، ويعلم وجهته، أفضل من أولئك المنحرفين المعوجين..

يا له من سلوك فاحش منتكس مستقذر ممجوج!

يا لها من خيبة وخزى؛ حين تنتكس الفطرة الإنسانية لهذا الدرك السحيق ويذل البشر المكرمون ويهونون على أنفسهم لهذه الدرجة!

تستبشرون؟!!!

وبم تستبشرون..

برذيلة أنتم عليها مقدمون..

بفحش أنتم له مستحلون

بضلالة مبتكرة، ونقيصة مخترعة، ما سبقكم بها من أحد من العالمين..

أحرى بكم أن تبتئسوا وتحزنوا، بدلا من ذلكم الاستبشار..

لكن هذا شأن الفطرة حين تنتكس..

تفرح وتسعد بما حق لها أن تتأذى به وتحزن..

تعالت الطرقات المتتابعة على باب لوط، مختلطة بضحكات ماجنة رقيعة؛ تلك التي يطلقها المخنثون وأشباه الرجال

- افتح يا لوط..
- افتح الباب وإلا فسوف نقتحمه..
- أولم ننهك عن العالمين؟

- أولم نحذرك أننا لن نراعى لك حرمة ولن نقدر لك جوارا؟
- الآن ستدفع ثمن اجترائك على تحدينا..
- الآن ستعلم أن طهارتك وطهارة بناتك لن تنفعك بشىء..

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ﴾..

هؤلاء بناتى إن أردتم الزواج..

إن أردتم الفطرة النقية التي فطر الله الناس عليها..

صاح لوط من خلف باب داره، بينما يدافع الباب، محاولا إغلاقه، لمنع تلك المسوخ من الدخول..

صاح بهم لعل كلماته تجد بقايا سمع أو بصر في غيابات نفوسهم السكري..

صاح بهم لربما صادفت حروفه لحظة وعى في عقول بالشهوات قد أُترعت حتى الثمالة..

لكن هيهات هيهات..

إنها السكرات..

سكرات الشهوة، وعمى البصيرة..

لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون..

نعم إن للشهوة لسكرات..

وإن للبصيرة عمىً..

يشهد بذلك كل من ابتلى بتسلط خمر الشهوة عليه..

يشهد إنه يجد نفسه أحيانا كالسكير الذي لا يعي ما يفعل، ولا يدرك ما يقول، ولا يفكر فيما يقترف..

لذا كانت الخمر أم الفواحش؛ فهى طريق قصير لحجب العقل، وطمس الفطنة، وهى أسرع وسيلة لإسكار القلب وطمس البصيرة..

قد يكون عبد الهوى عالما بخطورة تلك الشهوة المحرمة على دينه ودنياه..

لكنه رغم ذلك يُقبل عليها حال سيطرتها عليها..

يُقبل عليها، ولا يجد في نفسه أدنى قدرة على الممانعة أو الدفاع، قد أغلقت أبواب الحكمة، وسكرت أقفال البصيرة..

تماما كالخمر..

لها سكرة..

و عمى..

هكذا كان حال القوم، وهم يدفعون الباب محاولين اقتحامه..

لا يفكرون، لا يرعوون..

هم لا يعون من أمرهم شيئا..

فقط يريدون قضاء وطرهم، وليكن بعد ذلك ما يكون..

عميت البصائر، غارت آبار الفكر، وانطمس الفهم، لم تتبق إلا سطوة الهوى، وإلحاح الرغبة النجسة الأثيمة..

لكن نداءً تعالى من خلفه: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾..

ماذا؟!

من أنتم؟!!

ألستم بشرا؟!

ملائكة أنتم قد بعثكم الله لإنهاء هذه الحالة من العبث، ولتطهير الأرض من ذلك المستنقع الآسن

لكن لن يصلوا إليه!!

كيف وهم بالباب؟!

لحظات ويقتحمون وحينئذ لن يستطيع حمايتكم..

لن يصلوا إليك..

قالها القوم بجزم وحسم..

قد أويت إلى ركن شديد يا لوط..

بطهارة ظاهرك التي تشبه طهارة باطنك..

بنقاء عقيدتك، وسلامة فطرتك..

قد أويت إلى ركن شديد

قد أويت..

لن يصلوا بحال إليك..

لكن.. ما هذا الذي طرأ؟!

لقد قل الدفع وتخافتت الأصوات..

أوتسمعون؟!

لماذا يتخبطون على هذا النحو؟؟

ويكأنهم فعلا لا يرون؟

ويكأن نور البصر قد لحق بنور البصيرة فانطمس..

لقد طمس الله على أعينهم!

هاهم يتوعدون لوطا بالعودة مصبحين..

ألا إنهم قد ظنوا انطماس البصر مجرد عرض يزول حين طلوع الشمس..

هاهم يضربون موعدا،

إنه الصبح..

وإن الصبح لقريب..

يا لوط إنه أمر قد قضي

أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ..

ما عليك إلا أن تسرى بأهلك بقطع من الليل، فتمضوا حيث تؤمرون..

لا تأخذ معك هذه المرأة الكافرة..

هذه امرأة منهم وليست منك..

إنما مثلها كمثل امرأة نوح وولده..

إنها عمل غير صالح..

و إنها لمصيبها ما سيصيبهم..

أما أنت وبناتك..

أنتم أيها الموحدون الأطهار..

فهيا تحركوا، فلم يعد الوقت المتبقى كافيا، إلا لخروجكم بالكاد..

إياكم أن يلتفت منكم أحد..

إن المشهد الذي سترونه إن التفتم لن تتحمله قلوبكم المؤمنة الطاهرة..

إنه مشهد مروع..

إنه مشهد يليق بهؤلاء الذين تدنت نفوسهم لدرجة أدنى من البهائم، وانقلبت فطرتهم رأسا على عقب، فاستحقوا أن تنقلب قريتهم رأسا على عقب؛ والجزاء من جنس العمل..

﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾.

جزاء وفاقا من جنس عملهم وما هى من الظالمين ببعيد..

هذا النموذج القرآنى الفريد، يضع أمامنا مآلا واضحا لحالة التمادى في الشهوة المحظورة المحرمة الأثيمة..

إنه مآل بئيس خطير..

حين يترك المرء العنان لشهوته، ولا يكبح جماحها بالشرع الذي يوافق الخلق والفطرة التي فطره الله عليه، فإنه لا يدرى إلى أى مدى يمكن أن تذهب به..

إن في النفس باعثا خفيا وبها استعداد للفجور؛ ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ فلو لم يعلم متى يوقفه؛ فإن هذا الباعث قد يتضاعف ويتعاظم، لدرجة تطغي عليه فتأسره، حتى يصل إلى تلك الحال؛ حال السكرة والعمى، ثم يصير إلي ذاك المآل؛ مآل البوار والهلاك والخسران..

و المجتمعات التي يترك لها العنان، حتى تتدنى لهذه الدركات من الفواحش، ويصير الجهر بها أمراً عاديا، لهى مجتمعات على شفا جرف هار..

ومن المتوقع أن تنزل على مثل هؤلاء الفاحشين المتبذلين عقوبة واضحة صريحة، كما حدث مع سدوم وقوم لوط وغيرهم من الأمم التي ورد ذكرها في التاريخ القديم والحديث.. البعض يفسر ما حدث من هلاك حضارة بومباى في إيطاليا بذلك، وتلك كانت حضارة قامت على البحر المتوسط، واشتهرت بالفن والعمارة، ويذكر أن فنهم غلب عليه الطابع الإباحي الماجن، حتى أن بعض ملوك أوروبا لما ذهبوا لمشاهدة آثار تلك الحضارة؛ بهتوا ولم يتحملوا الفجاجة التي سادت، وسطرها ذلك الفن، فاضحا ومؤرخا لطبيعة شعب بومباى..

لقد بادت تلك الحضارة المشتهرة بالزنا والشذوذ ببركان فيزوف الـذي انفجر عام ٧٤ من ميلاد المسيح ﵇، والذي أباد سكانها الـذين قـدرهم المؤرخون بمائتي ألف نسمة،

ظلت جثامين بعضهم متحجرة بسبب الغبار البركانى، وهـى تـزار إلى يومنا هذا..

لا نستطيع أن نجزم بما حدث، لهم ولا يوجد نـص صريـح بـذلك، إلا أن الحال التي وجدوا عليها، والرسـوم التـي تحكـى تـاريخهم ومـا اعتـادوا العيش عليه، تدعم فكرة أن ما نزل بهم كان عقوبـة ربـما تكـون قـد حلـت بهم..

لكن هذا العقاب المبـاشر لـيس شرطـا، وإنـما قـد تتـدرج العقوبـات، وتتعدد، ولا يلحظها إلا العقلاء، الذين لم تسكرهم الشهوة..

يقول الرسول ﷺ:

«**لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنـوا بهـا إلا فـشا فـيهم الطـاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم**»..

وهذا بلا شك أمر ملاحظ ومطرد في تلك المجتمعات

لكن الأمر الأخطر والعقوبة الأشنع في تقديرى هى تلك العقوبة العاجلة لمن تمادوا في شهواتهم حتى عبدوها هي عقوبة طمس البصيرة، وغياب الوعى والفهم، وحجاب القلب والعقل، وكفي بها عقوبة

عقوبة **السكرات** والغمرات التي هم فيها يتقلبون

إنها عقوبة لا يعقلها إلا العالمون..

عقوبة..

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ.

❊ ❊ ❊

موعد هناك

(١٢)

موعد هناك (١٢)

إنه الليل الحالك..

الكون كله يغفو في سكون، بينما تمخر النجوم عباب صمت سرمدى لا يشقه إلا صوت أنفاس تلك الدابة البيضاء التي تضع حافرها حيث ينتهى بصرها!

مشهد خارق لم يُر مثله أدهش الكون وأذهل الوجود..

إنه البُراق..

تلك الدابة الباهرة، تحمل على متنها خير من وطئ الثرى..

تحمل رسول الله ﷺ إلى مسراه..

إلى محل العروج به إلى السماء..

إلى حيث سيقلد وتقلد أمته الإمامة والقيادة، وتحمل راية الاستخلاف..

لم تمض هنيهة إلا وقد بلغت الدابة المعجزة حدود المسجد القديم..

سبحان الله..

ما أعرق جدرانك أيها المسجد..

كم شهدت من أحداث وكم عاصرت تغيرات منذ أن رفعت قواعدك..

ها هو رسول الله ﷺ يضع لجام البراق في الحلقة المخصصة له، على الحائط الذي سيتخذه اليهود مبكى لهم بعد ذلك بقرون، وينسى كثير من الناس أنه حائطه..

حائط البراق!

الآن قد حان موعد العروج إلى السماء..

لكن شدة الشوق للمسجد تقتضي ركعتين قبل ذلك..

ركعتين قبل الصلاة الجامعة التي ستصلى بعد ساعات، ويشهدها أكرم جمع عرفته البرية..

دخل الحبيب ليصلي في الأقصى ركعتين يستفتح بهما أحداث تلكم الليلة الحافلة..

و ما إن خرج حتى خيره الملك الأمين بين إنائين

قد كانت الفطرة وقد هدي إلى النقاء واختاره..

ثم بدأ العروج إلى السماء..

صعد النبي ﷺ وارتقى في كل سماء ملاقيا أهلها، حتى أقبل على مرتقىً لا يبلغه مخلوق غيره..

ولا حتى جبريل الأمين عليه السلام.

جبريل الذي رآه الحبيب في تلك الليلة العظيمة على صورته الحقيقية؛ له ستمائة جناح، تنهمر منها التهاويل؛ من الدرر واليواقيت، يسد خلقه ما بين الخافقين ويملأ الأفق على مرمى البصر!

الآن يراه عند بلوغه المنتهى المسموح، ينكسر خاشعا؛ كالحلس البالى، وقد اقترب من حضرة مولاه جل في علاه.

هذا الخلق العظيم يتحول إلى هذه الصورة؟!

إنه الانكسار لجلال الله

انكسار لا يشهده إلا من أخبت قلبه لمولاه، ومن ذاق عرف، ومن عرف اغترف..

مشاهد عظيمة تلك التي رآها رسول الله في تلك الرحلة النورانية الجليلة..

أخبار وأنباء،

فرائض وواجبات،

وأحداث جسام، في شرحها يطول المقام..

لكن المشهد الذي يعنيني هاهنا مشهد آخر..

المشهد الذي كان إيذانا بتسلم تلك الأمة راية القيادة، وتحملها مسئولية الاستخلاف..

مشهد العودة إلى الأرض المباركة..

عاد النبى إلى تلك البقعة المقدسة ليجد نفسه على موعد عظيم..

موعد هناك...

في الأقصى..

عاد النبى ليجد إخوته في انتظاره..

ولكن: هل للنبى إخوة؟

أوليس وحيد والديه؟!

بلى.

لكنها الأخوة الأعمق والأدوم والأبقى من أخوة النسب..

أخوة لم يفصم عراها تعاقب القرون، ولم تخفت جذوتها اختلافات الألسنة والألوان والأعراق..

إنها أخوة العقيدة..

أخوة الأمانة والرسالة والهمّ الواحد..

عاد النبى ليجد إخوانه..

منهم من لقيه بالأعلى في السماوات حين عرج به..

ومنهم من يلاقيه الآن لأول مرة في حياته..

من يكون هذا الشيخ الوقور الذي لا تكاد تفرق خلقته وسمته عن سمت وخلقة حفيده الحبيب ﷺ؟! الله أكبر..

هل هو الخليل؟!!

أحقا هو إبراهيم عليه السلام؟

إنه هو بعينه.

ويا ترى من هذا الرجل؛ سبط الشعر، أبيض البشرة، ذو الوجه السمح، القائم المصلي بهذا الخشوع المخبت؟!

لكأني أرى عروة بن مسعود الثقفي فما أشبهه به!

إنه المسيح عليه السلام قائم يصلي بين إخوانه الأنبياء..

ومن هذا الرجل الطويل، قوي البنية شديد الخلق، كثير الشعر، تبدو عليه ملامح الجدية والعزيمة؟!

ويكأنه موسى بن عمران عليه السلام..

نعم إنه هو، وهذا الذي إلى جواره أخوه هارون عليه السلام..

وها هو يوسف؛ بوجهه الوضيء الذي يكاد نور حسنه يخطف الأبصار، يقف وإلى جواره أبوه المحب الكريم يعقوب عليه السلام..

ثم هذا زكريا وقد اشتعل الرأس شيبا ومعه ولده البار الحنون يحيى عليه السلام..

وأيوب قد خط الابتلاء علاماته على سمته الصبور..

وآدم أبو البشر موجود أيضا هناك!

في الأقصى

الكل حضور، الكل مجتمع، الكل موجود..

لم يتخلف أحد عن هذا المقام المهيب..

ها هو نوح وإدريس وسليمان وداوود وإلياس وإسماعيل وإسحاق وصالح وهود وشعيب ولوط ويونس..

هاهم جميعا يقفون في مجمع الأنبياء والمرسلين،

مجمع القمم

مجمع القادة الهداة المهديين،

إنهم قادة البشرية ومصابيح هداها ومنقذوها من الضلال ومخرجوها من الظلمات إلى النور.

يقفون جنبا إلى جنب مع من شهد ذاك الجمع الكريم من الملائكة المكرمين..

فهنالك مجتمعهم الجليل الكريم..

في المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله..

في ثانى بيت وضع للناس في الأرض..

في الأرض المقدسة التي كتبها الله لحملة الأمانة، والأمة المستخلفة في كل زمان..

الأرض المقدسة التي تمنى موسى عليه السلام أن يموت قريبا منها لِما وجد من شوق جارف إليها..

إنها الأرض المباركة؛ أرض الشام وأكنافها التي ظلت في قلب النبى بعد ذلك سنين عددا، حتى جاء أمر الله وقُضي الأجل..

صلى إليها، وعنى بها، وعرف أصحابه فضلها، ووجه إليها السرايا والجيوش، وتوفى وقد جهز بعث أسامة بن زيد مدشنا ومؤسسا لمستقبل لفتحها..

ياله من جمع..

ويالها من أرض..

ويا له من مسجد..

ويا له من لطف، وفضل؛ إذ يسري الحبيب بحبيبه في عام حزنه، وفقد زوجه وعمه، وتكالب عدوه، ليخفف عنه، ويجمعه بخير صحبة يتمناها كل من كانوا صادقين..

صحبة الأنبياء والمرسلين.

بينما هم وقوف في الأقصى الشريف، إذ حان وقت الصلاة، وانبلج صادق الفجر، وتعالى نداء الفلاح..

و اصطف خير إخوة عرفتهم البشرية، تجهزاً للصلاة المشهودة، التي ستجمع بينهم لأول مرة..

وقف الحبيب ﷺ بين إخوانه عليهم السلام، وأقبل بوجهه على مولاه، وإذا بجبريل الأمين يشير إليه..

تقدم يا محمد..

تقدم لتصلى بنا..

يا الله!!!

يصلى بكم؟!!

ما أعظمه من شرف..

و ما أثقلها من أمانة..

سيتقدم ليصلي إماما بخير مأمومين..

سيتقدم ليصلى إماما يأتم به خليل الرحمن إلى جوار كليم الله إلى جوارهما كلمته التي ألقاها إلى مريم وروح منه ومعهم آباؤه وأجداده، من أول إسماعيل إلى آدم عليهم جميعا الصلاة والسلام!

سيتقدم الآن، كما سيتقدم بعد قرون رجل من آل بيته يحمل اسمه وشيئا من خلقه وهديه ليصلى إماما ومن خلفه المسيح عليه السلام!

الآن تم الاستخلاف، وتحملت الأمانة يا رسول الله، وتحملتها خير أمة أخرجت للناس، ليس بمحض فضل منها، أو محاباة لها؛ وإنما خيريتها بحسن أعمالها، وتمسكها بتلك الرسالة، وتحملها لتلك المسئولية، وأمرها بالمعروف، ونهيها عن المنكر.

صلى النبى بإخوانه وليتم ذلك العرس الإيمانى الباهر، في تلك الأجواء النورانية، التي كان الحبيب أحوج ما يكون إليها في عام الحزن..

إنه **الإسراء**..

ذلك الحادث المهيب، الذي فيه من العبر والآيات والومضات الشىء الكثير..

ذلك الخطب، الجلل الذي سميت باسمه سورة من أحب سور القرآن لقلب النبى ﷺ..

إنها سورة سبحان..

سورة بنى إسرائيل..

إنها سورة الإسراء، وكل ما سبق أسماء لها..

ومن تلك التسميات، تبرق الومضة التي أقف معها في هذا الفصل من العودة إلى الروح..

إنها حالة انتقال الاستخلاف من أمة إلى أمة..

حالة تسليم الأمانة إلى الرسول الخاتم..

و ما يترتب عليها من انتقال القيادة من قوم فضلوا على العالمين دهورا فلم يرعوا ذاك التفضيل وتلك الأمانة حق رعايتها..

إنهم بنو إسرائيل الذين أفسدوا في الأرض مرتين، وتمردوا على مولاهم ولم يعظموه حق التعظيم، فكان الاستبدال، ومضت سنة الله، وكما جاء في السورة: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾..

لقد بدأت السورة بعد ذكر الإسراء بذكر طرف من حال القوم الذين حملوا الأمانة قبل أمة النبي ﷺ..

بنو إسرائيل..

و ما أدراك ما بنو إسرائيل؟!

كم رأوا من آيات..

كم أرسل إليهم من رسل وأنبياء..

و كم جحدوا وكذبوا وتمردوا، بل وقتلوا أولئك الأنبياء!!

فماذا كانت النتيجة؟

انتقلت عنهم الأمانة واستُبدلوا..

و نزل الكتاب الجديد على رجل من ولد إسماعيل عليه السلام وصارت الرسالة إلي غيرهم..

هذا الكتاب الجديد هو الأمانة التي انتقلت..

هو الرسالة التي حُمِّلت للأمة اليافعة..

لذا تجد سورة الإسراء من أكثر السور التي تكلمت عن القرآن وخصائصه وقيمته وفضله..

فهنا مصدر الاستخلاف..

هنا الشفاء والرحمة والهدى للتى هى أقوم..

وهنا يظهر التمسك بالأمانة..

فإذا حملت الأمة هذا الكتاب حق حمله = استحقت مدلول هذه الرمزية البديعة في حادثة الإسراء..

إذا هي أحسنت التمسك به استحقت الإمامة..

وإذا هي عملت بمنهجه من ربانية وتسبيح وتعظيم، والتزام وصاياه وتوجيهاته = فهى بذلك حقا الأمة المستخلفة..

أما إن فرطت فيه وأفسدت كما أفسد من سبقوها..

فالاستبدال إذاً لا محالة

ولن تجد لسنة الله تبديلا ولا تحويلا..

كلما تذكرت مشهد إمامة النبى لإخوانه الأنبياء، وتخيلت تلك اللحظات الفارقة في عمر البشرية؛ كلما خفت من تلك الأمانة

وسألت نفسي: هل تحملت أمتى ذلك الإرث وصانت هذا الفضل..

هل صانت الأمة قيمة إسراء نبيها وإمامته فكانت أمة الأئمة، أم أنها

بدأت مرحلة التفريط والإفساد فضاع منها التفضيل والاستخلاف كما ضيعت مسراه الكريم، وصارت على شفا تضييع رمزيته، وعلي إثره ميزتها وخيريتها التي أحذاها الله رب العالمين؟!

سؤال من المهم ألا يغيب عن أذهاننا ونحن نرتل:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾

وننتظر ونأمل في ذلك الموعد هناك..

في الأقصى.

❊ ❊ ❊

في ظل النخلة

(١٣)

في ظل النخلة (١٣)

«وهـزي إليـك بجـذع النخيـل، واجـتني كرامـات العلـي الجليل»

- إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا.

بهذه الكلمات صاحت بينما تنـزوى بعيـدا، متـسترة بعفافهـا متـسربلة بحيائها..

صاحت بها وهى التي كانت قد اعتزلت المخلوقين، وانتبـذت – حتـى من أهلها – مكانا شرقيا، محتجبـة منعزلـة، تخلـو فيـه بربهـا، وتـأنس عنـده بمليكها..

فإذا بها تفاجأ بهذا الغريب يدخل عليها!

من أين جاء؟

وكيف وصل إليها؟

ماذا يفعل هاهنا؟

ماذا يريد منها؟

هل يُطمع في مثلها؟!!

وهل يظن مخلوق أنها يمكن أن تُمس طوعا؛ وهى البتول الحصان الرزان التي لا تنفذ إليها ريبة..

إنها الكاملة المصونة، نذر أمها الصالحة المتقبل بقبول حسن..

إنها العذراء العفيفة، ما دنا منها إنسان وما مسها بشر..

هي العابدة الزاهدة الراكعة الساجدة القانتة، التي كملت من بين النساء..

هي كريمة النسب، سليلة الأنبياء عليهم السلام

هى تلك الناسكة التي أجرى الله لها الكرامات والخوارق منذ نعومة أظفارها..

كلما دخل عليها كفيلها زكريا عليه السلام في محراب صلاتها؛ وجد عندها فاكهة الشتاء صيفا، وفاكهة الصيف شتاء، رزقا من عند الله، والله يرزق من يشاء بغير حساب..

إنها مريم البتول..

تلك الطاهرة المطهرة الطهور..

كيف تحتمل وجود مخلوق لا تعرفه معها في مكان واحد، وهى على ما نعرفه من العفة والحياء؟!

- ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾.

بهذا صاحت مذكرة إياه مخاطبة فيه مروءته

لعله إن كان يريد شرا أن يقصر، إذا هو سمع كلمة التقوى، كما فعل صاحب الصخرة فقام عن المرأة التي راودها حين خاطبت تقوي نفسه بقولها: اتق الله..

- ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾

رسول ربها؟

غلاما زكيا؟

ماذا يقول؟

وعن أى غلام يتحدث؟!

أغلام وهى العذراء الشريفة العفيفة، التي لم يمسها بشر قط؟!

لزوال الدنيا عندها أهون من تصور بعض ما يقول..

الأمر صار يفوق الاحتمال..

- ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾

هكذا صاحت مستنكرة..

هى لم تك يوما على ريبة، لم تنطق حرف النون في كلمة «أكـن» للدلالـة على الامتناع التام، والبعد الخالص، عن مطلق فعل البغايا، ومـا أكثـرهن في بنى إسرائيل..

أما هي وأمها الناذرة وأهلوها وأجدادها فما أبعدهم عن السوء..

فعن أى غلام يتحدث الناموس؟!

وبأى عرف في الكون أو قانون، أومثل هذا يمكن أن يكون؟!

- ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ .

الموضوع منتهٍ إذن

قُضي الأمر وتمت المعجزة، وحكم وأمر الذي يقول للشئ كن فيكون..

قد نُفخت روح الغلام فيك يا مريم، وانتهى الأمـر، وقـضى الملـك أن تكونى من يحمل آيته ومعجزته..

سيولد ولدك بغير والد، ومثله عند الله كمثل آدم ولد بغـير أب ولا أم؛ خلقه من تراب ثم قال له كن فكان..

حقا إنه ابتلاء وأي ابتلاء، وحقا إنها محنة وأية محنة..

لكنك أهل لها يا مريم..

ومن يكون إن لم تكونى؟

ومن يتحمل إن لم تتحملى أنت؟

ومن يصبر إن لم تصبري أنت؟

أنت يا مريم من النماذج التي تجعل كل عنصري مغرض - يدعي أن شقائق الرجال لا قيمة لهن ولا مقام، يبتلع لسانه وينزوى ببهتانه..

أنت من المعدودات اللائي أثبتن أن المرأة إذا صلحت وصدقت فإنها قد تعلو على آلاف الرجال..

أنت من اللائي أكدن معنى أن الله يتقبل أمته كما يتقبل عبده..

ألم يصطفكِ الله..

ألم يطهركِ..

ألم يفضلك على نساء العالمين؟!

بلى قد كان، وقد فعل الرازق الحكيم الكريم المنان.

الآن حان الوقت لتتعبدى بالصبر، كما تعبدت في محرابك من قبل بالقنوت والسجود والذكر والشكر..

ستمر الأيام بسرعة، وستأتي اللحظات كاشفة عن معدنك النفيس..

هاهو المخاض إلى جذع النخلة قد ألجأك..

ها اللحظة الحاسمة قد اقتربت..

وحدك في ظلها..

لا رفيق ولا عضد، ولا أم تسعى، ولا قابلة تعين على آلام المخاض..

لم يكن لدعوة أحد من سبيل..

و كيف كنت ستخبرينهم؟

إن الأمر معقد

وإن القوم بسطاء؛ لن يفهموا الآية، وحولهم من رعاع بني إسرائيل من سيظل مجترئا على القدح في عرضك، رغم ما جاءهم من الحق وعرفوه..

لقد كنت مضطرة إلي هذا المكان القصيّ، لا أحد يدرك حقيقة حالك إلا مولاك..

- يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا .

ياله من حزن ذلك الذي يقطر من حروفك أيتها الصديقة..

هم وغم لا تقدره إلا العفيفات..

حزن وكرب لا تعرفه البغايا، ومن هُنَّ على أنفسهن، حتى رضين أن يكن سلعا تباع وتشترى، وبالأبصار تلتهم..

أما أنت أيتها الحيية؛ فالموت والنسيان أحب إليك من أن يصمك بريبة عربيد لا يقدرك حق قدرك..

ما أشبه جملتك بجملة أحد آبائك الأقدمين..

ما أشبه حياءك بحيائه وحرصك وبحرصه..

لقد فضل يوسف السجن علي الغواية، وقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾..

لعل من دمائه العفيفة ما يجرى في عروقك أيتها الصديقة..

ما هذا الصوت؟!

أواقع هو أم خيال؟

كيف، وقد انتبذت من أهلها مكانا قصيا!

لا يوجد مخلوق في هذه المكان البعيد..

معقول؟!!

الصوت من تحتها!

- أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا .

إنها المعجزة

إنها الآية..

أهو الغلام الذي لم يكد يخرج بعد... يتكلم؟!

سبحان الفاطر الخالق القادر الحكيم!

ها هو النبع يتفجر من أجلها، لتجد الماء الذي ترطب به حر الألم، وشدة الجهد الذي ألم بها..

- وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا .

و هل مجرد هزة واهنة بيد نفساء ضعيفة، لجذع نخلة راسخة؛ تسقط

ثمارا يصعد أشداء الرجال ليأتوا بها؟!

نعم..

وما ذلك علي الله بعزيز، ولله في طلاقة قدرته آيات،

وإنها لعطية، وإنها لهبة من عند من يقول للشيء كن فيكون، وأنت جديرة بالكرامة أيتها الصديقة البتول..

﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾.

ما أرحمك يا الله..

وما أعظم ودك..

تريد أن تقر عين أمتك..

تريد أن تفرحها وتقر عينها، كما أقررت عين أم موسى، برد وليدها إليها فقلت، وأصدق القول قولك: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾..

أن يوجه الودود نواميسه

أن يحرك مخلوقاته وأن يسبغ جميل فضله ليقر عين عبده أو أمته!

أن يعيد رضيعا إلى حضن أم مكلومة أو ينطق وليدا ويفجر عينا ويقرب رزقا لكي يسعد ويقر عين من يحبهم ويحبونه!

ألهذه الدرجة تتودد لأحبابك وأوليائك؟

سبحانك سبحانك ما أعظم شأنك!

- فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ..

وماذا تملكين أن تقولى؟

وهل سيصدقونك مهما كان ما تقولين؟

ليس أفضل من الصمت الآن والصيام عن الكلام، ودعي هذه المعجزة المتكاملة، والآية الباهرة التي ترينها أمام ناظريك، دعيها تفصح عن ذاتها بنفسها، وبعين إبهارها، وببليغ حديثها عن بديع صنع ربها..

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾..

كما هو متوقع بدأ الصراخ من أسرة مكلومة، تخشى الفضيحة، وتدرك فداحة ما ترى..

أنت يا مريم؟؟!

أنت تفعلين هذا؟؟!

بدأت الاتهامات اللاذعة تنهمر على أسماعها..

وبدأت النظرات القاصفة تخترق كيانها..

- يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ..

- يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ ..

نادوها مذكرين إياها بهارون..

أنت يا من كنت تشبهين هارون في عبادته وزهده حتى نسناك إليه..

أنت يا من كنت آخر من نتوقع أن يصدر هذا منها..

- مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا..

غريب شأنكم..

ما هذا؟!

أصدرتم عليها حكمكم..

وأبرمتم فيها أمر قراركم، رغم ما تعلمونه من عفتها!

عموما لن ترد هي عليكم..

لسوف تشير

فقط ستشير إليه، تاركة معجزتها تنجلي، مطفئة نار شككم، مجهزة على شرر اتهامكم..

- كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا..

هل حدث لك شيء يا مريم؟!

وهل الرضع يتكلمون؟

ماذا ألم بك وقد كنت العاقلة الأريبة؟

مالك؛ علينا لا تردين؟

- إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا..

من؟؟

ماذا يحدث؟؟

رضيع يتكلم!!!

إن هذا لشيء عجاب!

إنه يخطب فيهم خطبة ما أفصحها وما أجمعها؛ فأول تصديرها تقرير العبودية لله..

إني عبد الله..

فما هو إلا عبد أنعم الله عليه..

إنه يستفتح حياته بإقامة الحجة، على كل من سيزعم ألوهيته، أو يدعى بنوته لله، أو يفتري فرية امتزاج لاهوته بناسوته، سبحان الله، جل في علاه..

ما هو إلا عبد..

بهذا بدأ كلامه في الناس..

وهكذا استفتح حجته، وبرأ أمه الطاهرة النقية..

﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا

وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا

وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا

وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾

ذلك ببساطة هو عيسى بن مريم..

فلم الجدال ولم المراء؟

هو عبد عابد نبى، مبارك حيثما حل، مأمور بصلاة وزكاة كسائر العباد..

بشر يولد ويموت، وابن بار، وحامل رسالة ومبلغ كتاب..

هذا هو المسيح ببساطة ووضوح..

ليس إلها، ولا ابن إله، وما قال للناس يوما: ﴿ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ﴾..

ظهر الحق للناس..

وظهرت براءة مريم، ونجاها الله بهذه المعجزة، ووهبها أعظم الهبة، وأكرمها بولد نبي رسول بار..

وقد أذعن الناس جميعا وقتئذ لجلال الآية وعظمتها..

لكن ستمر الأيام ويكذبونه

وسيتآمرون عليه، ويسبونه وأمه بأبشع الألفاظ، وأشنع التهم

وسيحاولون قتله وصلبه..

بل سيظنون إلى يومنا هذا أنهم فعلوا، وما قتلوه يقينا..

ولسوف يغلو فيه آخرون، ويألهونه وأمه وينسبونه ولدا، للذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحدا..

وستبقى العقيدة الإسلامية النقية البسيطة، التي تقبلها القلوب وتتشربها العقول..

إنها عقيدة التوحيد المصونة بحفظ ورعاية الواحد الجليل..

عقيدة:

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾.

إن هذا لهو القصص الحق، وإن تلك لهى الحقيقة الناصعة، وإن ذلك لهو عطاء الله لأوليائه..

عطاء الله الذي رأيناه جليا في سورة مريم، التي استرسلت حول بعض من معانيها في تلك الكلمات اليسيرة..

سورة مريم التي سميت باسم تلك الصديقة، تكريما لها، وإعلاء لقيمتها، ورفعا لشأن قصتها العظيمة، والتي توجت بعطاءات الله لها ولولدها؛ من معجزة باهرة، وبركة ونجاة، لم يكن يظن بالله جل وعلا أن يعاملها بغيرها..

وكذلك عطاءات الله لأوليائه وأنبيائه، والتي امتلأت بذكرها بها آيات السورة العظيمة..

عطاءاته تعالى لزكريا ويحيى وإبراهيم وموسى وإدريس وباقى من انتظمتهم السورة، ممن أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين..

عطاءات تملأ القلب بالرغبة والأمل في أن يصيب من تلك العطاءات والكرامات..

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن

ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَاءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَآ ﴾.

لماذا؟؟

ما الذي ميزهم وما سبب إكرامهم؟؟

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾..

هذه درجتهم، وتيك ميزتهم، وتلك خصوصيتهم..

فهل عرفت الدار أم أنكرتها؟

هيا قم فوف حقها، واطرق بيدي عزمك بابها، واشهد الجمع الغفير عامرا بروضة رغبها ورهبها، وابتغ القرب والزلفي حينها، قم فتقنت، واسجد واركع

وابتهج؛ أنت في باحة الراكعين الساجدين.

❊ ❊ ❊

في برد الجحيم

(١٤)

في برد الجحيم (١٤)

«نسمات اليقين، بين لفحات الجحيم»

تعالت أصوات الداعين والمبتهلين في هذا الجمع العظيم الذي اكتظ بـه ذلك الجزء من المدينة البابلية العتيقة..

وما بين راكع وساجد ومقبل بقربانه يذبحه؛ اجتمع أهل تلك المدينة في ذلك المعبد العظيم..

هذا يبكى ويبتهل لعشتار - ذلك الصنم ذي الـرأس الكبـيرة والبنيـان المهيب..

وذاك يمسح بيديـه وثيابـه عـلى سـاقي مـردوخ - ذاك التمثـال مـتقن الصنع، الذي يجسد كبير الآلهة عندهـم..

وهذا مظلوم جاء إلى «إي» -إلههم للعدل- ليقتص له ممن ظلمه..

و تلك المرأة جـاءت برضـيعها البـاكى، تستـشفي لـدى هـذا المعبـود الحجرى الذي خصص للشفاء..

الجميع في شغلهم بمطالبهم وحاجاتهم التي طرحوها وانطرحوا خلفها طامعين في الإجابة والبركة من آلهتهم..

المكان يبدو كأنما هو خلية نحل يدوي في جنباتها هدير أصوات المتعبدين المتبتلين الذين جاءوا بحاجاتهم وقدموا قرابينهم لمردوخ وعشتار وأي وسين – إله السماء – وباقى آلهة الشمس والقمر والزهرة وسائر النجوم التي جسدتها تللك الأحجار والأخشاب المجتمعة في المعبد البابلى العريق..

مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ.

سؤال يشق سكون طقوس الوثنية الصاخبة في المعبد التليد..

- تري من يكون السائل؟

هل هو غريب؟!

أليس يعرف آلهتنا؟

أليس من قريتنا؟

إبراهيم؟!

لو غيرك قالها يا إبراهيم، لو غيرك قالها يا ابن آزر، كيف وأبوك من شارك في نحت هذه الآلهة التي تسائلنا عنها؟

كيف وهو الذي يصنعها لنا إلى الآن إن أردنا أن نأخذ منها إلى بيوتنا؟

أنسيت أننا قد وجدنا آباءنا لها عابدين؟

لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ .

- ماذا؟!!
- هل تجرؤ على تسفيه أحلامنا وتضليل آبائنا؟
- لابد أنك تمزح أو تريد أن تلعب أيها الفتى.

أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ
فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ .

- رب العالمين؟

لسنا نفقه ما تقول..

إنها هذه آلهتنا التي ورثنا عبادتها عن آبائنا وأجدادنا..

﴿بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

- رب السماوات والأرض!!

أي رب؟!

أي إله واحد تدعي؟

ما هذا الكلام الذي لم نعرفه في آبائنا الأولين؟

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ﴾ .

- تكيدن أصنامنا؟

هل تجرؤ وهل تستطيع أيها الفتي على ارتكاب هذا الفعل الشنيع؟

إياك أن تفعل، سوف تندم سوف تلعنك الآلهة..

دع عنك تلك الأفكار، تعال معنا تلهو مع شباب المدينة، وترفه عن نفسك كما يفعل بنو عمومتك، هيا يا إبراهيم قد حان وقت الاحتفال..

إِنِّي سَقِيمٌ

أجاب إبراهيم عليه السلام..

لكأني به قد أسقمته أفعالهم، وآذت نفسه النقية شركياتهم..

انصرف القوم إلى احتفالاتهم

وبقي إبراهيم..

خلت المدينة إلا منه ومن تلك التماثيل الخرساء، التي لا تنفع ولا تضر..

تقدم إبراهيم بين التماثيل العملاقة معلقة أمامها القرابين الغالية؛ من صنوف الطعام والشراب، وقد بدأت اللحوم في التعفن؛ من طول ما علقت دون أن ينتفع بها مخلوق.

- **ألاَ تأكلون؟!**

صاح إبراهيم!

رددت جدران المعبد صدى صيحته العالية..

إنه يسألكم فلم لا تردون؟

إنه يحاججكم فلم لا تدفعون؟

ما لَكُم لا تَنطِقون؟

لا مجيب ولا جواب إلا الصمت..

و لو كان للصمت لسان لصاح مجيبا:

لا فائدة يا إبراهيم..

لا فائدة ترجى من تلك الأحجار المصمتة..

لا قيمة لتلك الآلهة المزعومة..

و لا عقول ولا حكمة لمن يظنون بها غير ذلك..

لم يتردد المقدام، ولم يتلكأ الخليل، الذي لم يعرف يوما التراجع ولا التباطؤ ولا النكول..

لقد قال ووعد، وسيوفي بوعده، ويبر قسمه، ولو كان الثمن... حياته..

استل الخليل معوله..

وضرب..

بكل الغضب للحق، والغيرة التي تعتمل في نفسه... ضرب..

بكل العزة والإباء الإيماني... ضرب..

بكل البغض والاحتقار، لهذه الأحجار الفاتنة، ولهذا المنطق العليل... ضرب.

لم تمر لحظات حتى كانت الحجارة تتهاوى عند قدميه الفتيتين..

لم تمر لحظات إلا وقد ظهرت الحقيقة الجلية..

هؤلاء تراب..

لا يساوون شيئا..

إنها ليست معركة متكافئة..

إن فأس الحق يطيح برؤوس الطواغيت التي طالما سجدت لها جباه الأقوياء..

فلتهتز جدران معبد الكفر أمام ضربات العقيدة ومعاول الحق والتوحيد..

الآن صاروا جذاذا وعادوا إلى حقيقتهم..

هباءا منثورا..

إلا هو

إلا مردوخ

ها قد برز شامخا بشموخ الكذب وما كان ليظل واقفا لولا أنه قد تركه قاصدا

لقد ترك إبراهيم كبيرهم الذي يدعونه مردوخا..

تركه وأهون عليه أن يلحقه برفاقه لكنها الحجة والبرهان..

ها هو المعول على صدرك يا كبيرهم..

هاهى أداة سحق زملائك..

ادفع عن نفسك التهمة يا أبكم..

ادفع عن نفسك إن كنت تستطيع

ولن تستطيع

ما أنت إلا فقاعة لن تلبث إلا أن تنفجر، حين يقربها وهج الحق..

- ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

صاح الحمقى بعد عودتهم من حفلهم..

صاح أصحاب العقول الخربة، وهم يرون كبير الأصنام سليما معافىً..

لم يدر بخلدهم أن مردوخا الصنم هو من فعل هذا ولو للحظة..

رغم أن التهمة ألصق به..

لم يتبادر إلى أذهانهم ولو لوهلة أنه قد يكون من حطم زملاءه ليتفرد بقرابينهم، رغم أنه المستفيد..

ترى لماذا؟

لماذا لم يتهموه؟

ببساطة؛ لأنهم يعرفون..

بل يستيقنون، لكنهم بما استيقنته أنفسهم يجحدون..

فطرتهم تدرك أن هذا مجرد حجر، لا ينفع ولا يضر..

لكنه الكبر الذي يطمس البصيرة..

تسألون من فعل هذا بآلهتكم؟

وهل آلهتكم من الضعف بمكان لدرجة أن يُفعل بها ولا تفعل؟

والله إنكم بهذا السؤال تحاجون أنفسكم، لو أنكم كنتم تعقلون..

- ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾.

معقول أن يكون إبراهيم قد تجرأ ونفذ تهديده؟

معقول أن يكون هذا الفتى من فعل هذا بآلهتنا المجيدة؟

هاتوه......

إلينا به..

ائتوا به أمام الناس، لنشهدهم على فعلته الرهيبة..

انطلق أهل المدينة إلى إبراهيم..

ملأ عظيم يزفزف ويرتجف من الغضب..

- ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ ؟!

- ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ ..

يالثباتك

ويالبساطة منطقك

ويالقوة حجتك معا في آن..

ما أهدأك في مواجهة هذا الجمع الغاضب!

هل هو الإيمان..

هل هو نور العقيدة، وضياء التوحيد الذي أعطاك رباطة الجأش وهـذا الإقدام؟.

ها قد كشفتهم أمام أنفسهم..

ها قد أزلت عن أفكارهم المشوهة اللثام..

ها قد تعرت حماقتهم، فصارت أمام الناظرين، بلا ستر أو حجاب..

قولوها بينكم وبين أنفسكم..

إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ..

قولوها أمام أنفسكم، فكبركم سينهاكم عن الاعـتراف بهـا أمـام هـذا الفتى الصنديد..

لكن هذا الكبر لن يمكنكم من رفع رؤوسكم في مواجهته..

هـا هـى رؤوسـكم منكوسـة بيـنما أنـتم تعترفـون بـضعف مـوقفكم وبلاهتكم..

- **لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ..**

نعم لقد علم..

فمتي تعلمون؟

أما تفكرون؟

ومتي لحالكم تتأملون؟

حق له الآن أن يطيح بمنطقكم المريض وحججكم العليلة..

فلينطلق الآن ليسمعكم الحق الذي تأبون سماعه:

﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ

وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ..

﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ..

أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ..

يا لقوتك ويا لضعفهم..

يا لعزتك ويا لهوانهم..

صدقت يا إبراهيم..

قلت ووفيت ونطقت فحججت..

لكن من يسمع ومن يعي؟

المفترض بعد هذه الحجة البالغة، والبيان العملي أن يستفيقوا من غفوتهم، ويغادروا ضلالتهم..

لكن هيهات هيهات..

لقد تمكن الشرك منهم ، وتشربته قلوب مريضة..

الآن بعد أن طاشت حججهم وضاع منطقهم؛ لم يعد أمام الطغاة إلا طريق واحد..

هو طريق الضعفاء لا الأقوياء..

أضعف حالات الطاغية حين يضطر إلى ما سيضطرون إليه..

حين لا يجد أمامه سبيلا إلا إسكات صوت الحق الذي يؤرقه..

إلى قمع حملة الحق وإيذائهم..

- ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾

فلنجعله عبرة لمن يعتبر ويجترئ يوما على آلهتنا..

لن يُلقى في أى نار، ولن يحرق أى حرق..

بل هو جحيم يبنى بنيانا تتحاكى عنه الأجيال..

إنه لبنيان من النيران ألسنته تتطاير، حتى تكاد تلهب ظهور الطير في كبد السماء – إذا ما مرت من فوق الجحيم..

- ﴿ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾..

ها هم قد نصبوا المنجنيق، وها هو البطل يتقدم، رافعا رأسه صابرا محتسبا

لم تُحن رأسه أثقال القيود، ولا دفعات السفهاء..

وماذا يضيره إن مات فداءً لعقيدته؟

إن قُتل فداءً للحق الذي يؤمن به؟

وهل ترهبه نيرانكم؟

وماذا عساها تكون في نيران الآخرة التي تنتظركم؟

إلى المنجنيق تقدم الفتى العزيز ، وكلمة واحدة ليس إلاها على لسانه ..

كلمة: **حسبي الله ونعم الوكيل..**

يكفيه الله لا يريد سواه..

ترى كيف كانت مشاعره وهو يقترب من النيران؟!

كيف كان إحساسه، وألسنة اللهب تبدو من بعيد، وهو يقترب منها بسرعة رهيبة؟!

حسبى الله ونعم الوكيل..

لا غير، ولا ضير..

ما هذا؟!

ما ذلك البرد؟!

ما أجمل هذا السلام الذي يشعر به!

سلام يشبه ذلك الذي يحويه قلبه العامر باليقين..

لقد تبدلت النواميس الكونية كرامة لك أيها المقدام..

لقد صار الجحيم بردا وسلاما لك أيها الخليل..

فلتذب النار القيود، وليخرج الخليل، وليمش بين الناس لم يصبه مسٌّ

من لهيب!

نِعم الرب ربك يا إبراهيم، ونِعم الدين دينك أيها المسلم الحنيف..

خرج إبراهيم يمشى فهل أسكته الإيذاء؟

هل قمع الضر الذي كاد أن يمسه صدعا بالحق على لسانه وكل كيانه؟

أبدا..

إن حامل الحق لا يسكته كيد، ولا يخرسه ضر..

لقد خرج من النار على ما هو عليه بل أشد ثباتا

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ..

و كذلك حامل الحق..

لا يضيره كيد، ولا يسكته بأس، ولا يثنيه بطش..

فاسأل الله أن تكون كذلك، وأن تكون من أهل ذلك.

ارجعون

(١٥)

ارجعـــون (١٥)

رَبِّ ٱرۡجِعُونِ!!

صرخت كل خلية في جسده الواهن بهذا النداء..

صاحت كل ذرة من ذراته بهذه الصيحة التي لم يسمعها الجمع الملتف حوله..

فقط سمعها الضيف الذي لم يره أحد..

ضيف جاء دون أن يشعر به أفراد الأسرة المكلومون، ولم يلتفت إليه الأصدقاء الدامعون..

ضيف لا يحتاج إلى استئذان ولا يطرق الأبواب..

هو فقط يدخل..

وهو يعرف طريقه جيدا..

رغم أنه ربما لم يدخل من قبل هذا المكان..

لكنه يعرف طريقه ويعرف هدفه..

ويعرفه المُضيف المعني بتلك الزيارة التي لابد منها..

يعرفه ويعرف لماذا جاء..

هذا البرد الذي يسري في أوصاله، ويتصاعد ببطء إلى تراقيه، ثم إلى حلقومه، يجعله يدرك جيدا لماذا جاء الزائر الآن..

بالنسبة له هو زائر غير مرحب به، وغير مرغوب فيه لكنه رغم ذلك لا يملك طرده، ولا تأجيل موعد تلك الزيارة!

البعض يرحب بهذا الزائر ويسعد به..

بل هناك من صاح مرحبا به عند لقائه قائلا: زائر مغب وحبيب جاء على فاقة!

هناك من صاح فرحا لرؤياه، وقال: واطرباه وافرحاه بهذا الزائر..

لكنه ليس منهم..

ولا مثلهم

ليس وهو يسترجع شريط حياة مدنسة بالآثام، تمر ذكرياتها أمام عينيه الآن..

ليس وهو يسترجع تلك الفظائع التي ارتكبها، والمحارم التي انتهكها، والأهواء التي عبدها..

ليس وهو ينتبه - فقط الآن - من غفلة طويلة، وسكرة مديدة، لم تستجب قط لكل محاولات التنبيه والإفاقة والإفهام..

على الأقل ليس الآن..

ليس قبل أن يأخذ فرصة أخيرة..

رب ارجعون..

صاح بها مرة أخرى من أعماق نفسه

صاح بصوت لم يجاوز حلقه، وقد اصطدم بمرارة السكرات، وغرق في متلاطم الغمرات..

أرجع فقط ولو ليلة..

ولو ساعة..

ولو بمقدار ركعتين خفيفتين، أتوب فيهما وأنيب إليك يا مولاى..

ولو بمقدار عمل صالح يختم لى به..

بسجدة أجيب الزائر وأنا فيها، لعلي ألقاك وأنا عليها..

لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ ..

آلآن؟!

آلآن تذكرت الأعمال الصالحة؟

آلان تتكلم عن المسارعة إلى الخيرات، وأنت الذي طالما تباطأت عنها؟؟

آلآن علمت أن لك ربا تدعوه وتسأله؟

الآن ترفع عقيرتك المكتومة بدعاء تعجز يداك عن الارتفاع معه، وأنت الذي كنت من قبل في أوج قوتك تتكاسل عن رفعهما بمثله؟!

آلآن تخاطب ربك بصيغة الجمع التعظيمية، وأنت الذي لم تعظمه ولا عظمت حرماته ولا شعائره في حياتك؟

آلآن؟؟!!

كلا..

كلمة من ثلاثة أحرف، لكن ما أثقلها على سمعك الآن..

ربما لن تسمعها في تلك الساعة..

ربما تترك لتكررها عقودا..

وربما قرونا كما قال البعض..

ربما لن تسمع الرد على طلبك الذي ستكرره في كل موطن إلا بعد مئات السنين!

ستظل تكرر تلك الكلمة التي أنت قائلها الآن في كل مرحلة تمر بها في رحلتك الأخيرة..

ستقول بعد قليل: **رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ**..

ستقولها كما قالها أمثالك في كل زمان: **رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ**

و ستقول يوم يأتي تأويل ما أنذرت به: **قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ**..

و ستقول وأنت ناكس رأسك عنده: رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ..

وستصرخ حين ترى ما حُذِّرت منه مرارا: هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ..

وستجأر حين تجد نفسك حبيس ما قد رهبوك منه طويلا: رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ..

ثم سيخفت صوتك وتضرع مع من يضرع قائلا: رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ
رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ..

لكن كل هذا ستطيشه كلمة واحدة..

كلا..

أتدرى لماذا؟

لأن ما تقوله مجرد كلمة..

ما تقوله مجرد صياح عند الاضطرار، ولو رددت لعدت لما نهيت عنه وإنك لكاذب..

نعم أنت كاذب ولو كنت صادقا لقلت ذلك مبكرا..

لقلت ذلك حال صحتك وقوتك وبطشك..

لقلت ذلك وأنت ما زلت فيها..

لكنها عادتك..

أقوال لا أفعال وشعارات بغير أعمال..

﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ..

وبعد البرزخ، وبعد كل مشهد شهدته، وكل موقف وقفته طلبت فيه نفس المطلب، وتكلمت بذات الكلام..

ارجعون،

أخرجنا،

أخرنا،

نرد..

بعد كل هذا الكلام..

ماذا كانت النتيجة؟

رد واحد سيكست كل ما نطقت به متأخرا..

رد واحد سيخرس كل الألسنة التي لا تجيد إلا فارغ الكلام..

رد واحد وكلمة واحدة، ولكنها ليست أى كلمة..

إنها كلمة من تنادى..

كلمة ربك الذي طالما نسيته..

الذي طالما سخرت من أوليائه، وتعاليت على أحبائه..

﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾..

قضي الأمر..

وانتهى الكلام..

لم تعد لحروفك قيمة، ولا لجدالك معنى..

لم يعد لندمك لزوم، فاليوم لا ينفع الندم..

قد قضى الله في أمرك وأمر من معك، وحكم عليكم، وهو أحسن الحاكمين..

ألم تأتكم البينات؟

أولم تسمعوا الحجج؟

أولم تعرفوا النذر والبراهين؟

أولم تقم عليكم الحجة العملية بمعاصرة الفريق الآخر..

الفريق الذي طالما اتخذتموه سخريا..

ولطالما جعلتم أولياءه مادة للهزل والفكاهة والتندر..

لَكَم تعالت ضحكاتكم المستهزئة بهم، ولطالما مارستم التغامز في عناد..

لقد صار هؤلاء الطائعون الخاشعون المتبتلون أكبر حجة عليكم عند ربكم..

إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ

فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ

إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ .

هم الفائزون..

وأنتم لا تملكون إلا أن تقولوا: رب ارجعون

فلتسمعوها ساحقة لأمانييكم الجوفاء:

ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ..

كفاكم كلاما، فاليوم لا يُقبل منكم عذر، ولا تؤخذ منكم شفاعة..

فلتنخفض أمانيكم إلى أدنى دركاتها، وليصبح أعظمها أن تخفف عليكم ساعة، ولتهرعوا إلى مالك طالبين منه الشفاعة..

شفاعة بالهلاك؟!

بأن يُقضى عليكم؟؟

وليصفعكم رده الماحق..

إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ .

لا رجوع، لا عودة، ولا تخفيف..

فقط دونكم السداد..

سداد ثمن تأخركم عن الإجابة..

سداد ثمن سخريتكم وتعاليكم..

سداد ثمن تغافلكم عن تلك الأمنية التي كان ينبغى أن تقال ويعمل بها مبكرا..

أمنية

رَبِّ ٱرْجِعُونِ

لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ ..

فتخيل نفسك في هذا المقام، قائلا هذا الكلام، راغبا في عودة لاستدراك خطير الشأن، واستنقاذ غالي الكيان..

وها قد رجعت .... فماذا أنت فاعل؟!

العاضّون

(١٦)

العآضّــون (١٦)

«أيها العاضون على الأنامل في وادي الجمر...
ما كان أيسر عضكم بالنواجذ على يسير النهي ولذيذ الأمر»

زحام شديد..

حرارة خانقة..

تدافع رهيب..

الكل يتخبط..

رائحة العرق تزكم الأنوف، وقطراته المختلطة بالتراب تلهب العيون، وتكاد تعمى الأبصار..

صراخ ولهاث وضغط يكتم الأنفاس..

حالة عامة من الذهول تعتري الجميع..

من بين الجموع الحاشدة والتدافع الرهيب ظهر ذلك الرجل المهيب..

رجل تبدو عليه مظاهر العز والجاه، رغم آثار حرق قديم يمتد من جبهته إلى شفتيه..

لولا ما يفعله لقيل عنه: عاقل..

لولا هذا التصرف العجيب لبدت عليه علامات الحكمة والوقار الذي يليق بسنه..

إنه يعض يديه!

نعم..

تماما كما قرأت..

رجل ناضج يعض يديه ويكاد يلتهمهما التهاما..

يطبق فمه على يده اليمنى تارة واليسرى تارة أخرى، بعصبية شديدة، وبعنف هائج تدمى له يداه..

تري ماذا وراء مثل هذا السلوك الغريب وتلك الحماقة العجيبة؟!

كف يا رجل؛ ستؤذى نفسك..

إنما العض عند القلق والغيظ، وإنه يكون على الأنامل..

لكنَّ ما تفعله غريب حقا!

تقترب أكثر وتتأمل في وجهه المُعلم، فتجد عينين قد اغرورقتا بالدموع..

دموع تبحث لها عن مجرى بين أمواج العرق المنهمر..

إنه يبكى فما أشد بكاءه، ويتحسر فما أعظم حسرته!

عض ندم هو إذاً؟!

إنه نادم، نعم؛

هذا هو باعث السلوك، وذاك هو مصدر الألم..

ترهف السمع أكثر وتحاول أن تتجاوز بسمعك ضجيج التزاحم وأنين التدافع، فتلتقط بصعوبة، من بين عميق انتحابه، تلك الترنيمة الباكية المتحسرة:

يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ..

الرسول!!

أي رسول؟!

أتعنى محمدا ﷺ؟؟

الآن تقول عنه الرسول؟

قد عرفتك وتذكرت وجهك..

قد تذكرتك يا صاحب الوجه الباكى، والأيدي الدامية.

تذكرتك حين كان وجهك هذا يتهلل ساخرا، بينما تتابع من تقر الآن برسالته وهو ساجد لا يستطيع رفع رأسه؛ بسبب أمعاء الذبيحة المتعفنة التي وضعتها يدك الحقيرة الآثمة على رأسه الكريمة العابدة..

تذكرتك وأنت تتشفى بمراقبة ابنته الزهراء رضي الله عنها؛ بينما تزيح الأذى المنتن الذي وضعته على رأس أبيها الذي تتحسر الآن على فوات صحبته!!

تذكرتك وأنت تُهَيِّج قريشا على قتاله يوم بدر، مثيرا فيهم العصبية، معيِّرًا من آثر منهم القعود، مشبها إياهم بالنساء، تستفز بذلك حميتهم، وتنكز وتحفز جاهليتهم، ليقاتلوا الرسول الكريم، ذلك الذي تنتحب الآن على مفارقتك سبيله!

تذكرتك وعرفتك يا عقبة ابن أبى معيط..

يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا

لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ..

استمر عقبة في نياحته بكلمات ندمه، التي تتناثر مع دمائه من بين أسنان تنهش جلد وعظم يده الممزقة المتقيحة!

يا ويلتى؟؟!

الآن تدعو على نفسك بالويل والثبور؟!

تندم على خلتك وصحبتك لأبىّ بن خلف وأخيه أمية!

تري؛ أيهما أضلك؟

أبي بن خلف؛ ذلك العصبي الجهول؟

أم أخوه الرعديد أمية؟

أحدهما السبب فيما أنت فيه الآن..

أتذكر يا عقبة يوم أن جاءك الهدى وكدت أن تقبله؟

أتذكر كيف تهللت أساريرك وانشرح صدرك بين يدى النبى ﷺ حينما لقنك الشهادتين؟

فماذا دهاك؟

وأي شيء أغواك؟

آهٍ يا عقبة..

أنت يا من كنت في سابق عهدك من أقل الناس إيذاءً للحبيب ﷺ، ومن أكثرهم حرصا على حسن معاملته، وعلى ضيافته حين تراه - فتدعوه لطعامك، وترجو إكرامه في بيتك..

انقلب حالك، وساء مآلك، لأجل صاحب ساحب هالك!

يا لك من مخذول خاسر..

أوتفضل صحبة أُبي بن خلف وأخيه على صحبة خير من وطئ الثرى؟!

أوتبتغى طريق صديق سوء، فتختاره على سبيل الهدى والرشاد، مع صاحب الحق والخلق العظيم والسداد؟!

يا لغبنك لنفسك!

ويالشؤم أبىّ بن خلف، ما له وما لك؟

رجل أسلم أو كاد يسلم في غيابه بالشام فما الذي يضره؟

ألهذه الدرجة يصل الشر بالإنسان؟!

أن يكره الهدى لغيره، ويبغض الصلاح لمن دونه؟

إنه دأب نافخ الكير في كل زمان ومكان..

دأب جليس السوء ورفيق الغواية..

لا يحب أن يرتقي أحد عن الدرك الذي هو فيه، ويبغض أن يتطهر مخلوق من مستنقع الآثام الذي يتقلب في نجاسته..

تقبع داخله بقايا فطرة منتكسة، وتسكن هنالك نفس حاقدة حسود؛ تدرك أن صاحبها ليس على خير، وأن السوء والفحشاء شعار حياته، هو لا يريد لأحد أن يكون أفضل منه..

ولسان حاله: إن ضللت أنا فلا يهتدين أحد غيري..

كأني به يهتف بكل أفعاله في رفاقه: مثلهم مثلي ليسوا خيرا مني..

ما أشبه ذلك الجليس المضل بإمامه إبليس..

بدلا من أن يتوب عن عصيانه؛ اختار أن يأخذ معه كل من يستطيع فيلبسهم مثله رداء المعاصي والآثام..

أبى أن يُلعن فيلج الجحيم وحده، وقرر أن يغويهم كما غوى، فيسحبهم جميعا معه..

و كذلك فعل معك صاحبك أبيّ بن خلف..

هل تذكر يا عقبة يوم أن وصل من سفره فأنبأته قريش أنك قد صبأت -هكذا سموا إسلامك- فهرع إليك ووجهه مسود وهو كظيم؟

هل تذكر حينما رفض أن يرد عليك؛ حين حييته، فلما سألته عن سبب جفوته أجابك بغلظة: لا أرد عليك تحيتك وقد صبأت؟

حينئذ رقَّ له قلبك المريض، وللغواية مالت نفسك وحنَّت، فلم تلحظ الحفرة التي يلقيك فيها إلا الآن - لكن بكل أسف قد فات الأوان..

فماذا كانت تضيرك حينذاك مخالفته؟

أما كان أولى بك أن تقدر الضرورة بقدرها، وتزن الأمور بميزانها؟

وهل تستوي صداقتك المضرة تلك، بنور الحق الذي جاءك وعرفت؟

لماذا تحرص علي استرضائه والتذلل إليه؟!

فلتذهب تلك الصحبة الصادَّة عن سبيل الله إلي الجحيم..

لكأني أراه الآن وقد علا عليك، وأكاد أسمع صوت السفيه الحاقد حين صاح بك: لا أرضى حتى تأتيه في مجلسه، فتبصق في وجهه، وتطأ عنقه، وتسبه..

ألم تدرك ما يفعله بك؟

ألم تعِ أنه يستغلك، ويضلك فيرجعك أسوأ مما كنت..

نعم أسوأ؛

فبعد أن كنت من ألين الناس مع النبـي ﷺ؛ إذا بـه يـدفعك دفعـا لأن تكون صنواً لأبى جهل، وسابقا لحمالة الحطـب وزوجهـا، ومتخطيـا بقـبح أفعالك أقصي ما كانت تمتد أيديهما إليه!

تبا لهم ولك..

العيب ليس على ابن خلف وحده..

الخطأ الأكبر عليك أنت يا ابن أبي معيط..

لقد استسلمت لصاحب السوء..

وجرأته عليك، وسمحت له بأن يشكل نفسك، وأن يسوقك مـسلوب الإرادة كالأنعام بل أضل سبيلا!

أما كان الأجدر بك أن تعض حينئذ على الحق الذي جـاءك بالنواجـذ، بدلا من أن تعض على يديك الآن؟

انظر إلى حالـك الآن، وتـذكر جيـدا مـشهد النبـى ﷺ، وهـو يمـسح بصقتك عن وجهه الشريف..

انظر إلى حالك الآن، وتذكر سـلى الجـذور الـذي وضـعته عـلى رأسـه الشريف..

تذكر كل هذا ثم بعدها..

عض علي يديك..

عض أكثر وأكثر، وتذكر ما كنت تفعل..

عض واشتد أكثر، فلعل ما تجد من الألم الآن يكون أجود المران علي ما أنت مقبل عليه من عذاب أليم وذل وامتهان..

عض أكثر، آسفا على ما جاءك من حق لم ترعه حق رعايته..

واندم..

و لا تعض وحدك..

ها هم «العاضون» يبدون في الأفق

ها هم قادمون يخترقون الزحام

هاهم يتكاثرون من حولك

ما أشبه بعضكم ببعض!

سبحان من جمعكم في زمرة يوم يحشر الناس زمرا..

هاهم مثلك يلتهمون أيديهم بحسرة بائسة..

إنهم أقوام على شاكلتك؛ استهوتهم الشياطين في الأرض؛ حيارى، قد ردوا على أعقابهم بعد أن هداهم الله..

مثلهم كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، بما انسلخوا عن آيات الله التي آتاهم إياها..

ثم هل تري ذلك القادم من بعيد؟

لقد كان مجاهدا في سبيل الله، فتن عن دينه وارتد -عياذا بالله، وهو الذي كان يحفظ القرآن كاملا، فأنسيه كله- إلا آية ظل يذكرها بعد ردته؛ وهي قوله تعالى:

﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾..

و هذا الذي تسمع لهاثه كالكلب من بعيد كان عالما يشار إليه بالبنان، لكنه انتكس، فصار يبيع دينه بعرض زائل من الدنيا فان..

و هذا الشاب الذي يمشى هناك منكسا رأسه

أتعرفه؟

ربما لا تعرفه فأنت تسبقه بقرون..

لقد كان شابا مجتهدا يضرب به المثل في الدعوة إلى الله، ثم انقلب على عقبيه، فصار من الصادين عن سبيل الله، المحاربين لشرعه، الساخرين من ثوابته،

انظر إليه الآن!

لست نسيجا وحدك؛ فكل هؤلاء يشبهونك..

وكلهم يتمنون لو كانوا قد اتخذوا مع الرسول سبيلا تماما مثل أمنيتك!

فلات ساعة مندم، ولات حين مناص..

فات الأوان وقد صرتم من حزب الشيطان..

فأين هو الآن؟

ماذا هو فاعل بكم؟

وماذا هو قائل في خطبته لكم؟

وعدتكم فأخلفتكم،

لوموا أنفسكم،

ما أشد خلانه لكم اليوم!

﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾

فما بعد بيانه من بيان، ونعوذ بعظمته من الخذلان.

❊ ❊ ❊

اليد الناعمة

(١٧)

اليد الناعمة (١٧)

«من رغد اليد الناعمة، إلى أصفاد اليد المجرمة الآثمة»

- أفسحوا الطريق..
- أفسحوا الطريق..

تعالت تلك الصيحات من بعيد، مختلطة بصهيل الخيول المطهمة، تتقدم تلك النوق المُزينة التي ما إن لاحت في الأفق؛ حتى دبت الحركة في شوارع المدينة، بينما العبيد يهرعون من كل حدب وصوب، متقدمين ومفسحين الطريق للموكب المهيب، الذي جاء يتهادى ويتبختر، تنضح منه الأبهة والثراء..

يا لجمال تلك الخيول!

إنها من أجود السلالات العربية الأصيلة..

ما أبدع تلك الزخارف المنقوشة بعناية على الهودج الفاخر الذي يعتلي سنام هذه الناقة الكوماء والتي لم تشهد شوارع مصر مثلها!

يا للعز والأبهة!

تري من يكون هذا المحظوظ صاحب الموكب، والذي لا نكاد نحصى العبيد الذين يفسحون له الطريق؟

ومن يكون هؤلاء الرجال الأشداء الذين تلتمع عضلاتهم المفتولة تحت أشعة الشمس، بينما يحملون مجتمعين صندوقا يكاد يسحقهم لثقله، سائرين خلف هودج المحظوظ صاحب الموكب؟

إنها العصبة المكلفة فقط بحمل مفاتح خزائن هذا الثرى.

هكذا تمتم أحد الحضور، والحسد يقطر من كلماته..

هل هذا معقول؟! وهل يتصور أن تبلغ مفاتيح الكنوز ما تنوء به تلك العصبة الفتية، وهذه الكتلة من العضلات البشرية؟

غمغم آخر بصوت ينضح غلا ويفوح بالرغبة: إذا كان هذا شأن المفاتح؛ فكيف يكون حال ما تحويه الخزائن؟!

اجتمع الناس من كل ناحية من نواحى المدينة، يتأملون الموكب الفخم، يتهادى أمامهم، وأعينهم الجاحظة تكاد تنبت لها أنياب، تنهش زينته وزخرفه البارع العجيب المهيب..

وبينما يقف القوم مشدوهين؛ يسيل الزبد من بين أشداقهم راغيا بشراهة على تلك الكنوز البارقة والثروة المتحركة؛ إذ برزت من خلف أستار الهودج الراغد المتمايل الأنيق على ظهر الناقة الكوماء، يد ولكن ليست كأي يد...

ليست كتلك الأيدي العاملة الناصبة..

إنها يد مثقلة بالحلي الماسية والأساور الذهبية المرصعة بالدر والجواهر واليواقيت.

يد ناعمة لا تبدو عليها خشونة المعاناة، ولا ترتسم عليها خطوط الكدح، ولا تشققات السعي ولا علامات الكدِّ والشقاء..

يد لم تتعود يوما عطاءً، ولم تألف قط بذلا..

إنها يد لم تعتد في حياتها إلا الأخذ، ولم تألف إلا ملال التقلب بين فاخر المتاع، ولم تعرف جهدا إلا في حمل السوط الذي تلهب به ظهور العبيد والرعاع!

مشعرة هي – كأيدى الرجال – لكنها رجولة كادت تختفي خلف لمعان الذهب، وكاد يحجبها بريق الجوهر وفخامة الحجر الكريم، يخلب الأبباب، ويكاد يخطف الأبصار.

أزاحت اليد أستار الهودج بدلال يغذوه ثقل الذهب المصون

ليت شعري: من يتحمل المواجهة ويحظي بطيب اللقاء؟

ثم برز من خلف الأستار رأس ليس كأي رأس

رأس ينافس اليد في زينتها ويتفوق تاجه على زخرفها مرصعا بالجواهر واللآلئ الملونة الفاخرة – بارقة – تناسب وجها هو وجه صاحب الزينة والموكب السيار..

إنها ملامح نعرفها جيدا..

هذا الأنف المعقوف، وتلك النظرات الحادة، والجبهة القاسية، لا يكـاد يحملها في مصر اثنان..

إنه قارون!

إنه الوحيد من بنى قومه الذي بلغ تلك المكانة والمنزلة..

لقد وصل إلى درجة من الحظـوة إلى أن صـار الكـل يعملـون لـه ألـف حساب، حتى رأس الدولة نفسه..

و رغم ثرائه الفاحش، وعلاقاته المتشعبة، إلا أنه لم يرع قومه يوما..

لم يعن بأمرهم، ولم يأسف علي ما بلغـوه مـن الاستـضعاف والعبوديـة والذلة والهوان..

بل في الحقيقة قد شارك هو في اسـتعبادهم وإذلالهـم، ولعـل ذلـك سر حظوته وحقيقة ما بلغه مبلغه من الملك والثراء..

ما أشد اختلافه عن ابن عمه..

ما أوسع الهوة التي تفصل بينهما..

وهل يقارن هذ الكبر الذي ينضح من عينيه، والعلـو الـذي يقطـر مـع ابتسامته من بين شفتيه، وهو يقلب بصره، فرحا بإعجاب المعجبين، وتهافت المتهافتين؛ هل يقارن كل ذلك بتواضع موسى بن عمران؟!

هل يقارن هذا التعالي والاستكبار على بني قومه، بحرص ابن العم عليهم وعليه، ومروءته الدائمة معهم؟!

شتان شتان بينهما..

ما مر قارون بهذا الحى من أحياء بنى إسرائيل الفقيرة إلا استعراضا وسمعة..

ها هي الشماتة والفرحة تتراقص في عينيه وهو يقلبهما في هذه الأبدان الضعيفة، والوجوه الكالحة، التي كان أصحابها يوما أهله وعشيرته وفصيلته..

الآن يشعر بالزهو يتملكه وهو يسمع صيحاتهم تتناثر من حوله مرددة: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾..

نعم نعم بلا شك أنا ذو حظ عظيم، وإلا ما بلغت تلك المكانة، وأنتم على هذه الحال من الذل والمسكنة والصغار..

هكذا تكلم لسان حاله متكبرا متعاليا علي الأقارب والآل..

وهكذا ارتسمت تلك الشفرة علي كل ذرات بدنه فصبغت دمه ولحمه ونبضه بذات اللون؛

لون البطر والنرجسية والخيلاء..

أنتم بلا شك تستحقون ما أنتم فيه، أما أنا فلا ريب أني عليكم مفضل وأمامكم مقدم وفوقكم مكرم ومنعم..

هيا قولوها أكثر..

أسمعونى إياها مجلجلة..

ما جئت اليوم إلى حيكم المقزز إلا لأسمعها وفي أعينكم الكسيرة أراها فبها أسعد ولذلها قلبي يطرب..

هيا قولوا يا ليتكم مكانى، ويا ليت لكم مثل حظى العظيم..

قولوها فلن ينالكم منها إلا حالم الأماني..

وهل يمكن يوما أن تكونوا مكانى، إلا في الخيالات والأوهام والأحلام؟!

وهل لديكم أيها الصعاليك مثل إمكانياتى ومواهبى التي أهلتنى لما أنا فيه؟

أيها العبيد إنما أنتم رأس مالي وحقيقة زادي؛ أبيعكم وأسخركم لدى رأس الدولة، فتزداد ثروتى، وتستقر حظوتي، وتمتلئ أكثر وأكثر خزانتي وتنوء ظهور عصبتى..

استمع إلي أمنياتهم، وسرح بخاطره مفتتنا بذاته، فتعالت وتعالت ضحكاته..

لكن عبارة صاح بها بعض رجال قومه - قطعت حبل أفكاره وأوقفت سيل خواطره صادعة مجلجلة : ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾..

تبا لكم، وشاهت وجوهكم، هل هذا وقته؟

إنه يعرف تلك الوجوه جيدا..

إنه يذكر ذلك السمت دائما؛

إنها وجوه بسيطة عميقة تلقائية،

ربما تكون أقل نعومة وترفا من وجهه الفاخر ويده الناعمة لكن نورا ينبعث من قسماتها ينافس بريق جواهره، بل يطغي ويربو عليه ويقهره؛

نور لا تكاد تراه النفوس المطمئنة والقلوب القانعة إلا كما تري النجوم البعيدة الباهتة مقارنة ببياض القمر المنير!

آهٍ من هؤلاء المناكيد المثبطين..

لقد نغصوا على فرحتي..

إنهم أتباع موسي، تبا لهم وأفٍ له..

قطعوا طريق مسرتي، أما كنتم أخرتم قليلا حتى تتم متعتى وترضى شهوتى؟

هل هذا وقت وعظ وتذكير بثواب ربكم؟

أوكلما استمتعنا بمتاع دنيانا ونظرات راغبيها جئتم لتذكرونا أنها ليست المنتهى، وأن هناك دارا آخرة خير وأبقى؟

و ماذا عساي أن أجد فيها خيرا مما أنا فيه الآن؟

تمادى قارون في غضبته محنقا، وهو ينظر شذرا إلى أتباع موسى؛ يعظون

القوم مزهدين إياهم فيما عنده، مذكرين إياهم بأن ما عند ربهم خير وأبقى..

استرسلت خواطره والغيظ يكاد يأكل قلبه أن لم يزل هناك رجال لم تفتنهم زينته، ولم تخلب لبهم زخارفه، ولم تخطف أبصارهم جواهره، ولا حتى أرهبهم سلطانه..

أي رجال هؤلاء، ومن أي معدن نفيس قدت قلوبهم!

- ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾..

يا لها من صيحة عاودت قطع حبل أفكاره مجددا..

هذه المرة الخطاب له شخصيا..

لا أفرح!

لا أتكبر بدنياي!!

لا أزهو بمالي ورياشي وسلطاني!

ماذا يقولون؟

بل كيف جرءوا أن يوجهوا خطابهم إلي؟

أما كفاهم أولئك الرعاع والسوقة الذين يصرون على إفسادهم عليّ وتزهيدهم فيّ؟

أوقد وصل بهم الحال إلى أن يوجهوا نصحهم لي؟؟!

- ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾..

يالها من صيحات متتابعة ويكأنها على أذنيه صواعق مرسلة..

اجترءوا على وعظه وتذكيره للمرة الثانية..

لكنه هذه المرة لا يتحمل ما يقولون..

إنهم يطالبونه بالقصد..

إنهم يطالبونه بالميزان الحق والقسط..

يدعونه للمنطق البسيط الواضح..

أن يعطي للدنيا قدرها، وللآخرة قدرها، وشتان ما بين القدرين..

حين تذكرون الدنيا تنصحوننى ألا أنسى نصيبى منها..

فقط؟

لا أنسى؟!!

كيف لا تقولون انهل وانهش والتهم وتقلب في مفاتنها؟ كيف ذا؟

تقولون فقط.... لا تنس؟؟

وحين تذكرون الآخرة تطالبوننى أن أبتغى بما عندى إياها؟

دون تقييد!!

هكذا بإطلاق!!

أُعرض عن الدنيا السادرة وأبتغي فيما آتاني الدار الآخرة؟!

دنيا فانية، وأخرى وآخرة باقية..

دار زوال، ودار قرار وبقاء ودوام سرمدي..

نعم نعم تلك عقيدتكم التي علمكم إياها ابن عمى..

أذكر ذلك إلى حد ما..

عقيدتكم في أن الآخرة دار القرار وأن الدنيا تـزول وإن طـال بنـا فيهـا الأمد والاستقرار..

بالطبع لابد أن يكون قياسكم على هذا النحو إذاً..

لكن لعمري: ما هكذا أنا..

لست أعرف هذا

لست أرغبه أنا..

لا علم لي بما تقولون ولا أعترف بما أنتم إليه تدعون..

لا أعترف إلا بهذه..

بما ألمس وأرى..

هكذا حلل لنفسه قياسه الفاسد وانكبابه على الدنيا..

تمادي الغافل في غيه..

واستمر الصالحون في وعظه :

- وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ..

الله، الله، الله..

أو كلما تكلموا ذكروا الله؟!

أوكلما نسبوا فضلا فيما عندي جعلوه لله؟؟

هكذا توالت الوساوس علي رأس مثقلة بالذهب..

تارة يقولون: آتاك الله ثم أخرى يقولون: أحسن الله إليك، ومن قبلها: ثواب الله خير!

ألا يفكرون إلا في الله؟!

ألا يذكرون غيره..

أفلا يلتفتون لسواه؟

كيف يتغافلون عن علمي؟

عن ذكائي وفضلي..

عن إمكانياتي..

عن علاقاتي..

أيلقون كل ذلك جانبا ولا يؤمنون إلا أنني نفحة من فيض ملك ربهم وما أنا فيه محض فضل منه؟!

إذن لأسمعنكم إياها واضحة صريحة فدونكم..

- ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾.

ماذا تقول يا رجل؟

ويحك، ويلك، تمهل، توعظ، انتبه..

انسب الفضل لربك..

أنت كلك نفحة من نفحات عطاء وفضل ربك..

وإلا فمن علمك؟

ومن وهبك عقلا تتعلم به؟

ومن خلق ذلك العلم أصلا؟

أوليس الله رب العالمين؟!

ألا تعلم أن الفضل كله بيده يؤتيه من يشاء؟

أولم تتدبر ما حل بمن هم أقوى منه وأغنى وأكثر؟.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾..

حقا إن الإجرام إذا بلغ بالعبد منتهاه وأوصله إلى درجة التعالى على خالقه ومولاه، فكيف يُسأل عن باقى طوامه وآثامه ومفصوم عراه؟

خرج قارون في زينته، واستمر في تفاخره، غير مبالٍ بوعظ الواعظين متكررا عليه في كل طريق يسلكه متعاليا على أهله المساكين..

خرج على قومه في زينته، لينعم بمشاهدة تمنيهم مكانه اليوم، وهو لا يعلم أنهم عما قريب سيحمدون الله أنهم ليسوا مكانه..

فلن يتمنى أحد بعد اليوم مكانه..

ولن يطيق أحد ما حل به..

لقد زال وزال معه قصره وأبهته..

كل شيء ضاع!

ابتلعته الأرض..

الخزائن، الأموال، الحلي والجواهر، كل شيء في لحظة زال..

خسف به!

أين هو الآن؟

أين يده الناعمة المتزينة تدفع عنه ما يلاقيه؟!

ويكأني لست أعرفها..

أهي هي؛ نفس يده الناعمة؟

ها هي ذي تغوص رويدا رويدا في ثرى الأرض، وبريق جواهر حليها يخفت..

ويخفت..

ويخفت...

كم غَيَّر التراب المتراكم من معالمها، كم طمس على نعومتها، كم شوهت خشونته منظرها!

لم تعد يدا مرصعة، ولا صاحبها ظل ملء السمع والبصر ..

وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ .

الآن قلتموها؟!

أوقد عرفتموها؟!

الآن فهمتم يا من تمنيتم مكانه بالأمس، وسال لعابكم لما رأيتم؟

أين ماله؟

أين ملكه؟

أين عزه وأين كنزه؟

تراه نفعه؟!

وهل سينفعه فيما هو مقبل عليه..

هل سينفعه في الدار التي لم يؤمن بها ولم يبتغ فيما عنده فضلها وسرمدي نعيمها؟!

لا؛ أبدا..

إن فاقد الشيء لا يعطيه، والسماء لا تمطر ذهبا ولا لبنا،

ماذا زرعت؟

قل وخبرني ماذا غرست وكيف حرثت فأخبرك ماذا أنت حاصد غدا بإذن ربك ..

فالمعيار هنالك واحد، والمقياس متفرد، عادل،لا يحابي، لا يتبدل ولا يتغير.

وليس لقارون ولا لأمثاله فيه مكان..

ولا لامتداد عظيم شأنه في الدنيا وجود ولا كيان

فهل ظلمك الله يا عبد، وهل تجد فيه غير ما كان؟

دونك الميزان يا عبد، فزن في الدنيا وقدر قبل فوات الأوان

واعلم أن:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ .

❊ ❊ ❊

في القرية جرذان

(١٨)

في القرية جرزان
(١٨)

« وبين طغيان الماء وطغيان البشر؛ سبحان من جعل الجزاء من جنس العمل »

على عادتها وعادة قريناتها انطلقت المرأة

بيدها تحمل مغزلها، وعلى رأسها مكتلها..

انطلقت بهما قاصدة الخروج إلى ربوع تلك القرية العامرة من قرى اليمن السعيد.

بالغزل تتسلى وبوارف الظلال تستمتع، وعليل النسيم لا ينفك عن مداعبة أشجار تلك الربوع الممتدة على مرمى البصر..

ما أجمل قريتك أيتها المرأة!

لو أن في الدنيا مثالا، يقرِّب جنة الفردوس إلي أذهاننا؛ لكانت تلك القرية وأخواتها، لولا أن في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر!

لكن ما لا شك فيه أن هذه الحدائق الغناء، والجو الصحو النقى، والنسيم العليل الذي تتمايل له أغصان الأشجار المثمرة؛ التي تستقر في تناسق بديع على ضفتى النهر العظيم، والجداول التي تتفرع عنه وتنساب مياهها العذبة، بلطف لتسقي تلك الزروع الممتدة عن اليمين والشمال سقاءً لا يكاد ينفد، هى أقرب ما يقدح التصور الإنساني البسيط، إذا ما قرر أن يغلق عينيه، ويشرد بذهنه متخيلا جنة الخلد، مشوقا قلبه إلى لقياها.

انطلقت المرأة تمشى، وإناؤها على رأسها، في تلك القرية العجيبة التي هى واحدة من سلسلة مديدة، مكونة من آلاف القرى المتقاربة، ينافس بعضها بعضا في الجمال والرونق والفخامة النقاء..

قرى لا تكاد ترى فيها بعوضة ولا جرذا ولا برغوثا هائما، وكأنها بيئة معقمة، لا تحتمل هوام الأرض وحشراتها عيشا فيها..

من بعيد تبدو البحيرة متلاطمة الأمواج يخيل إليك لفرط اتساعها وعظم شأنها أنها بحر لجيٌّ، لولا تلك الجبال الخضراء التي تحاصرها من كل جانب، في سلسلة نضرة حية زاهية الخضار، بالغة النضارة والجمال..

ومن هذه البحيرة تتدفق تلك الجداول الرقراقة، التي تسقى كل جنان تلك القرى الظليلة..

العجيب أنه رغم ضخامة البحيرة؛ إلا أنها لم تكن موجودة في هذا المكان في العصور الغابرة!

لقد كان محلها عبارة عن مجرد كتل صخرية مجدبة، تحوط وديانا مقفرة، لا تتخيل للحظة أنه من الممكن تحولها لهذا المشهد شاهق الإبهار بعد أعوام من الزمان..

إنها بحيرة مستحدثة، أو ما سيعرف بعد قرون بالبحيرة الصناعية..

حينما تدقق ببصرك وتحده، ستلمح بين أضخم جبلين حول البحيرة سدا هائلا..

بلى.. إنه ليس جبلا كما حسبته لأول وهلة..

إنما هي الصخور المتراصة بعناية، تدعمها جذوع الأشجار العملاقة، مربوطة بحبال غليظة، ليست طبيعية بلا شك، من الواضح أنها بنت من بنات أفكار حضارة الإنسان..

واضح أن هناك جهدا بشريا عظيما قد وضعها في هذا المكان، وصممها ذلك التصميم..

إذاً فتلك الشلالات التي تنهمر مدوية من بين الجبلين؛ إنما هي شلالات اصطناعية تخرج من الأبواب الضخمة التي يحويها هذا السد العبقرى العظيم..

لا يمكن أن ينسى أهل تلك القرية والقرى المجاورة ذلك الرجل الذي هُدى لتلك الفكرة العبقرية، فلا يشكر الله من لا يشكر الناس..

هذا الرجل الصالح الذي تنسب إليه حضارتهم العظيمة وتتسمى باسمه

الرجل الذي جعله الله سببا لذلك الخير الوفير الذي هم فيه الآن..

لا يمكنهم أن ينسوه، ولا أن يقصروا في الوفاء بحق تلك النعم الجليلة، والتي منَّ الله عليهم بها بسببه..

لا يمكن لهذا الفضل الجزيل أن يُجحد، ولا تلك المنة العظيمة أن تنكر..

تلك المرأة التي تمشى في ظلال تلك الجنان، وهاتيك الفتيات اللائى يسرن حولها؛ وآنيتهن فوق رؤوسهن، تكاد تسقط لثقل الثمار الحلوة التي تتساقط فيها دون أدنى جهد منهن، لا يمكنهن أن يجحدن هذا الفضل قطعا..

لا هن ولا غيرهن..

هذا هو المنطق القويم، وتلك هي الفطرة السديدة..

كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ..

فقط عليكم الشكر، هذا هو التكليف، ووالله ما أيسره، وما أبعده عن التكلف..

و هل يملك من يتقلب في تلك الخيرات، وينهل من هذا النعيم، ألا يشكر من أنعم ويحمد مَن منَّ؟

إن الشكر ها هنا فطرة، والحمد سجية، لا يملك القلب النقى إلا أن يصدع بها، فتقفز إلى لسانه، وتسرى في جوارحه وتعتمل في أركانه؛ فيعمل شكرا، وينطق حمدا، ويسجد امتنانا..

و هذا فقط ما قد طُلب منهم..

كلوا كما تشاءون، وانهلوا كما ترغبون، واستمتعوا ببلدتكم الطيبة كما تحبون..

ولكن فقط: اشكروا له، واحمدوه..

لا تنتقل سدودكم من بين جبالكم إلى قلوبكم، فتحجب ذلكم الامتنان المسارع إليها، كما يُحجب الماء ويُزم..

- **«لو كان جَنْيُ ثمارِنا أبعدَ، لكانَ أشهى وأعلى قيمةً»!**

يالها من مقولة خبيثة أثيمة!

لقد سرت هذه المقولة وانتشرت بين أهل القرى انتشار النار في الهشيم..

ترى من كان أول من أطلقها؟

من صاحب هذا العقل المعوج الذي يبطر تلك النعم، التي يحسدهم عليها كل من يسمع بها؟

رغد وخصوبة وبركة وتيسير..

و أمن.....

أمن يجعل الراكب يسير، وينتقل بين قراهم العامرة، في أى وقت، بليل أو نهار، لا يخاف إلا الله، ولا يحمل هم مخلوق، ولا ينشغل حتى بزاد رحلته، فهاهى القرية التي يقصدها، تبدو في الأفق بارزة أمام ناظريه، لن تمر ساعة حتى يكون مستقرا فيها، فأي هم يحمله بعد ذلك؟

و ما الداعى لأن تخرج مثل تلك الدعاوى الآن؟!

باعد بين أسفارنا؟!

لماذا ولأي شيء هذا..

أهو حب المغامرة..

أم هو بطر، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير؛ كما فعل أقوام غيركم؛ فاستبدلوا منا وسلوى بعدس وبصل!

أهذا هو شكركم للنعمة؟!

أهذا هو التكليف الميسور الذي به أكرمتم ولطف بكم؟!

... وأى شكر تعنى؟

لا نعرف إلا أن هذه النعم إنما هى بفضل الفكرة العبقرية التي ابتكرها جدنا الأكبر، ومؤسس حضارتنا..

فإن كان لأحد علينا حق في شكر أو امتنان، فهو جدنا الذي هو ولي نعمتنا..

ما أكفركم بنعمة الله، وما أعرضكم عن شكره..

أى جحود هذا؟!

و هل لجدكم فضل في عقله الواعد؟

هل لجدكم فضل في خصوبة أراضيكم؟

هل جدكم هو من أنزل من السماء ذلكم الماء، الذي يحبسه سده المنيع؟

هل جدكم هو من ينبت تلك الجنان وارفة الظلال، وينشيء حدائقها البهيجة الغناء؟!

آه لو كان جدكم الصالح بين ظهرانيكم الآن حيا يرزق..

آه لو رأى سبأ بن يعرب إعراضكم، وسمع لجحودكم أيها النسل الكفور..

وإذا لقال أفٍ لكم، ما على هذا تركتكم..

أتستكبرون عن الشكر، وتنسبون الفضل لغير صاحب الفضل..

يا ويلكم مما سينالكم جراء إعراضكم..

«إن منسوب المياه يرتفع في النهر!!»

هكذا صاح بعض سادات القرية، لما رأوا من فيض الماء على جنبات النهر الذي يشق أراضيهم..

لا بأس

الأمر بسيط

فلترسلوا برجالكم يغلقوا بعضا من أبواب مأرب، فعساه ينضبط الماء فلا يطغى..

سارعت عصبة من فتية سبأ إلى أعلى الجبل، إلي تلك المنطقة التي يتحكمون من خلالها في أبواب سدهم العملاق، وبدأوا في جذب حبال السد الغليظة، ليغلقوا أحد بواباته الكبيرة..

مجهود يسير لا بأس به، ثم تعود المياه لمجاريها ونرجع لحياة الرغد والدعة والنعيم، ونعاود رتم الحياة الرتيبة. .

كم سئمنا!

لكم نتمنى أن نخرج من تلك القرى المملة، التي لا يجد فيها جديد، وكل ما فيها تليد..

لكم نتوق إلى أسفار بعيدة؛ نرى فيها نعما أخرى، وننهل فيها من خيرات جديدة..

هكذا تجاذبوا بينهم أطراف الحديث، أثناء تجاذبهم أطراف حبال السد، لغلق بابه..

فجأة...

وبغير سابق نذير؛ تمزقت الحبال الغليظة بين أيديهم، فانقلبوا على ظهورهم برد فعلى عكسى لانقطاع ما بأيديهم من غليظ تلك الحبال..

دوى صوت الباب، وهو يسقط مختلطا بهدير المياه؛ مندفعة بقوة، والبحيرة الهائجة من خلفها تقاتل لتعبر جدران السد المنيع!

ماذا حدث؟

بل كيف حدث؟؟

إنها أجود ما عرفه البشر من حبال!

كيف تمزقت؟

إن هذا لشيء عجاب!

ما هذه المخلوقات؟؟

هل هذا يعقل؟؟

في قريتنا جرذان؟؟

ترددت تلك الأفكار في رأس أحدهم، بينما هو في سقطته، قد رأي على أطراف السد تلك القوارض،

قوارض وبائية مقززة هي،

ضخمة بشكل عجيب

لا يكاد يتخيل حجمها وعددها إنسان!

لم نتعـود قـط في قريتنـا الـصحية العـامرة رؤيـة مثـل تلـك الهـائمات المؤذيات..

ماذا تفعل هنا، ولماذا في هذا المكان بالذات؟

ولماذا لم تنزل تلك الفئران في ربوع بساتيننا الوارفة؟!

لماذا هنا؟

على الأقل كانت سـتجد هنـاك قوتـا أكثـر وأطيـب مـن تلـك الحبـال والأخشاب التي تنشغل بقرضها..

دارت في ذهن الشاب تلك التساؤلات الحـائرة، ثـم لم يلبـث أن ألقـى بالأمر عن باله، والتفت إلى أصحابه يتباحثون أمر البـاب الـذي لم يتمكنـوا من إغلاقه..

نزل الشباب إلى السفح، فلعلهم يجدون رأيا عند حكـماء القريـة، ومـن تبقى لديهم علم موروث عن جدهم، صاحب فكرة السد، لعلهـم يـصلون إلى طريقة يصلحون، بها ما فسد منه، فالماء يزداد باطراد، وقد بـدأ يـصل إلى منسوب لم يعهدوه من قبل، ويخشى على الزورع إن استمر في معدل زيادتـه، أن تتأذى من مزيد المياه..

أما الشاب الذي لمح الفئران فظلت صورتها تعاوده كل حين..

عجيب حقا أمر تلكم الفئران!

ما الذي يستهويها في تلك الحبال والأخشاب؟!

الأمر محير..

بل مقلق، مخيف..

هل يعقل أن يكون الباب الذي تهدم وانقطعت حباله بسبب تلك الفئران الحقيرة؟!

هل تقوى تلك القوارض علي مثل ذا؟

ولم لا؟!

لقد شاهدها بنفسه تمارس هوايتها بدأب عجيب..

دافع تلك الخاطرة التي أتته وهو جالس في ظل شجرة، يتساقط عليه من ثمارها، على ضفاف نهرهم العظيم..

قال لنفسه محاولا طمأنتها، وإزالة تلك الهواجس من قعرها، دافعا غصة في حلقه بسببها قائلا: ليس يعقل طبعا أن يخشى على سدنا العظيم، من مجرد جرذ تافه ضعيف مهين..

ردت عليه نفسه قائلة: ليس مجرد جرذ **إنها جرذان وإنما السيل اجتماع النقط**، وقد رأيت بنفسك الحبال العملاقة كيف تفتت وصارت واهنة، وكيف ذابت وتقطعت بين أيدينا في لحظات..

ولكنه سد مأرب العظيم -هكذا كان رده- كيف يتصور أن يؤذيه جرذ لئيم؟!

ولكن..

ما هذا الدوي الرهيب؟!

صفير شديد في أذنيه، يكاد لا يسمع بسببه شيئا..

هل أصبت بالصمم!

لكأني بصوت ألف صاعقة مدوية، نزلت على قريتنا الآمنة..

التفت إلى مصدر الصوت الرهيب، فإذا بالمشهد المروع يبدو من بعيد..

إنه السد العظيم العجيب الفريد؛ سد مأرب؛

انهار..

لقد انهار مأرب!

صار ما بين طرفة عين وانتباهتها، أثرا بعد عين..

هذا الغبار الذي يبدو من بعيد متعاليا في الأفق، هو ما قد تبقى من السد العتيد!

ها هو الماء يندفع، بسرعة جنونية، من أعلى الجبل، مسابقا الرياح، إلى سفح الجبل..

يا له من مشهد، ما أشد هوله..

ويا له من رعب؛ ذلك الذي أصاب الشاب..

فليتحرك بسرعة، فالماء قادم، وما هي إلا دقائق حتى يغرق الوادى، وحدائقه الغناء وارفة الظلال..

فلتتحركن يا نساء القرية، فليس هذا وقت المكاتل، ولا جمع الثمار..

اتركن هيا كل شيء،

النجاة النجاة بحياتكن فالخطب جلل،

والسيل عَرِم..

تمنين أنفسكن بالعودة بعد هدوء الماء، وانجلاء ثورته، لتأخذن مكاتلكن، مملوءة بالثمار..

ثمار؟؟

أي ثمار؟

هيهات هيهات..

أوبعد نزول الخراب وحلول الدمار؟!

ثمار!

و هل بعد الإعراض عن الشكر وكفور نعمة المنعم من ثمار؟ هيهات أهل سبأ؛ لقد انقطعت العادة واستقر الخراب!

ما أبقى السيل إلا على شجر الأراك؛ شجر الخمط، وما عاد بعد اليوم من حلو الثمار..

إنه الأثل، والسدر؛ النبق مُرُّ المذاق شائك لا يفي بحاجات أهل القرى، ولا لتحصيل الزاد..

إنه كلحم جمل غث، على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى، ولا سَمِينٌ فَيُنْتَقَلُ

فمن لأهل البلاد؟

إلي مثل هذا صار حال سائر القرى، وآل مآل البلاد؟!

من بعد السيل، لم يعد ينبت من أرضنا إلا تلك الزروع المُرَّة التي يحوطها الشوك لبئس العذاب..

أين الظلال الوارفة؟

أين النسيم العليل؟

أين الخضرة التي لم نكن نلتفت يمنة أو يسرة إلا وجدناها من حولنا، على مرمى البصر؟

أين النقاء والطهر الذي كان سمة البلاد؟

وصل بنا الحال أن نرى الجرذان تسعى في قريتنا التي لم نر فيها من قبل بعوضة، لقد أورثنا إذا بئس المهاد!

قد طلبناه بطرا، فصار اضطرارا، ليت شعري، أفي حلم نحن، أم حقيقة، أم خيال؟ !

قد طلبنا المباعدة بين أسفارنا، وبطرنا أمن قرانا، وهوينا البعاد!

سوف نخرج منها رغما عنا، فما عاد يطاق فيها البقاء..

سوف نرحل، ولسوف يطول في قطع فيافيها الكباد..

إنه آخر العهد، إنه حديث لسان الحال..

قبل الرحيل..

و بدء السفر..

سفر الفراق؛ سفر التفرق والتقطع والتشرذم والضلال..

إنه التمزق في الأرض كل ممزق

ليسيروا في الأرض هائمين، ولينقلب أمنهم فزعا، ولتتحول وحدتهم إلى فرقة، وليصيروا أحاديث، ولتصبح قصصهم عبرة للمعتبرين، إنه جزاء الجاحدين، وإنها لعقوبة الكافرين بنعمة ربهم المنعم الكريم،

وبقي البلاغ، وبقي البيان، من رب العزة، وبقيت الحجة، وصدق ربي، وخير القول قول ربي:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ
رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ
الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ
﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ

ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا
ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ
وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾.

وبين طغيان الماء وطغيان البشر؛ سبحان من جعل الجزاء من جنس العمل

❊ ❊ ❊

خلف أسوار المحراب

(١٩)

خلف أسوار المحراب (١٩)

«فِي بحار الأذكار وتدبر الأسرار، هنالك؛ خلف الأسوار»

ليلة هادئة هي..

سكون لطيف يغلف الكون في حياء نقي، لا يعكر صفو نسيمه شيء، ولا يخترق صمته إلا صوت بديع يتنامى من بعيد، بزجل رائق، يتعالى تدريجيا كلما اقتربت من مصدره..

يتعالى وتتردد أصداؤه في تلك المنطقة الجبلية التي تحدها عن اليمين والشمال سلاسل جبلية عالية، تمتد على مرمى البصر..

لحظة!!

إن هذا الترداد ليس مجرد صدىً عادي لذاك الصوت البديع..

ليس هذا دأب الصدى المتكرر والمتقطع المتخافت تدريجيا كما نعرفه..

إنه صوت أعمق بكثير، وأثبت ببون كبير..

صوت يثير مكامن الشعور، ويستجيش حسنه، وتستدر معانيه أنهار العبرات من المآقي، مهما بلغت قسوتها..

تري: ما أنت أيها الصوت البديع؟!

من أين تأتى أنغامك التي تشبه معازف لا عزف فيها؟!

هذه الحالة الكونية التي تكاد ترى الجبال المحيطة بالمدينة تتمايل لرقتها وعذوبتها..

من أين أتت؟؟

على منبعها دلوني!

وعن مصدرها حدثوني..

هنالك تجد المنبع الناغم منشدا قصيدة تصدح بسر الوجود..

ذلك المحراب، بارزة أسواره، هو مصدر تلك التسابيح التي تتردد بين ثنايا الوادى في تناغم بديع مذهل ربما لم يشهد الكون مثله من قبل..

محراب من؟!

أهو محراب أحد العباد الذين اشتهرت بهم سلالتكم؟

أم هو محراب رجل من زهادكم المنقطعين عن الدنيا، المنعزلين في صوامعهم؟

إنه محراب ملكنا وحاكمنا وقاضينا وقائد جيوشنا وقبل كل ذلك نبينا..

إنه محراب داوود سلام عليه!

ماذا؟!

ألحاكمكم محراب يتخذه للعبادة؟!

ألقائد جيشكم، وبطل قومكم، خلوته وعزلته التي يأوى فيها لعبادة ربه؛ كيف هذا؟

كيف يجمع بين ما تقولون من تكاليف الحكم، وأعباء القضاء، وهموم الدعوة، وبين هذه اللحظات التي اقتنصها، يخلو فيها بربه، ويتعالى صوته العذب بتلك التسابيح الخلابة، التي لم تتحمل الصخور الراسيات أن تسكت عنها، فسارعت لترديدها معه، منافسة بذلك الطيور، التي ما انفكت عن التأويب والتغنى معه بذكر الإله الحبيب..

و هل يعقل أن تجتمع فروسية النهار، وبطولة الميدان، وقسوة الصوارم، وحدة الرماح، مع عبودية الليل، ورقة التسبيح، وعذوبة الصوت، ووجل الخشية، ودمع الإنابة ونشيج الإخبات؟!

ما على هذا تعودنا، وما هكذا عرفنا المقاتلين، ولا كذلك قد ألفنا الحكام!

إن هذا لشيء عجاب!

وياليت الأمر اقتصر على تسبيح وذكر..

إن هذا الذي تسمعه ويبهرك تسبيحه، هو عابد ليس كأي عابد

إنه صاحب أفضل قيام وأفضل صيام في تاريخ البشرية، بشهادة معلم البشرية، الذي سيأتى بعده بقرون،عليه أفضل الصلوات وأتم التسليمات..

إنه نموذج القصد، والتوازن بين النجاح الباهر في تكاليف الدنيا، وبين قربات الدين..

ستنبهر أكثر، إذا ما تأملت حال يد هذا الذكار الشكار..

ستفاجأ بيد خشنة، تبدو عليها آثار الكد، وتظهر عليها خدوش العناء!

إنها ليست بآثار حمل السيف الذي استعمله منذ سنين، لقتل رأس الكفر وقائد العماليق جالوت..

إنها آثار صنعته التي يأكل من عائدها..

ماذا؟؟

ألم تقل أنه ملك وقاض وحاكم؟؟

ما الذي يدفعه لمثل ذاك المسلك العجيب؟!

وما الذي يضطره للتعفف عن الأكل من ملكه العتيد؟!!

و أي مهنة تلك التي خلبته، يأكل من ريعها؟!

حداد!!

تلكم المهنة التي يتعالى البعض عن مثيلاتها..

تصنع لجيشك الدروع، ثم تلبسها معهم حين يحمر البأس!

أنعم بك من عابد عالم عامل مهيب..

عجبت لحاكم متطوع، وملك متوج، لا يمتلك قوت يومه، إلا من عمل يديه..ألهذا الحد يمكن أن يصل التعفف بعبد؟!

لله درك يا داوود: لا تسأل الناس أجرا على دعوتك وجهادك، ولا تستحب إلا أن تأكل بعزة نفس، وكد ساعدٍ، وعرق جبين..

كيف وجدت وقتا لكل ذلك؟!!

كيف استطعت أن تثبت عمرك كله على قيام ثلث ليله، وصيام نصف أيامه؟!

ويكأنك مثال يُضرب لكل متنطع خوار، يلتمس لنفسه معاذير التخاذل، ويسوِّل لنفسه القعود عن العمل والبذل والفداء والعبادة، بحجة ضيق الوقت وقلة بركته..

كأنى بك لو عشت بيننا لصحت بالمعذرين القاعدين، أو بأضدادهم من العاملين الذين هم عن العبادة منصرفين قائلا: اتقوا الله، ولا تعلقوا فشلكم وتنطعكم على شماعة الوقت، فالوقت يكفى لكل شىء، إن صدق العزم، وصلحت النية، والبركة إنما هي محض فضل من الله خالق الزمان..

ربما هى جملة لم تقلها بلسان مقالك، لكننى ألمسها بوضوح في حالك..

و هاهو ذا نموذج حي أمام الجميع..

ألا فلينظر المتنطعون القاعدون إلى جهادك وعملك وحكمك وحكمتك، رغم عبوديتك وزهدك..

و ليتأمل الغافلون المتشاغلون بأعمالهم وهمومهم، في عبادتك وقيامك وصيامك – رغم مشاغل وهموم تنوء بحملها تلك الجبال التي تردد تسبيحك..

و لتقم عليهم الحجة، وتثبت البينة..

فلو كان لأحد أن ينشغل عن عبادة، بسبب هموم وشغل لكنت أنت، لكن ها أنت تسبح، وتذكر، كأحسن وأندى ما يكون الذكر، وتصوم وتقوم، كأحسن ما يكون الصيام والقيام، وتعبد، علي أكمل ما يكون الجهد البشري في العبادة من التمام..

تالله ما علمت أبدع من تسبيحك يا داوود..

كأنها المزامير تعزف أجمل الأنغام..

كلما يقترب المشهد من أسوار محرابك، كلما يزداد انبهار النفس؛ بخشوعك، وإخباتك، ورقة ذكرك..

أسوار؟!!

أية أسوار!

و هل للمحاريب أسوار؟!

إنها أماكن عبادة وصلاة، فما الداعى لتلك الأسوار، يا نبى الله عليك السلام؟

هل لأنك تريد أن تحرس خلوتك؟

أم هو حرص على لحظات أنسك؟

أو لعله تشبث بحق قلبك..

أم أنه أدعى لاستجماع مكامن الخشوع، ومنابع الذكر والفكر والخضوع؟

إنها ليست إذاً مجرد أسوار..

إنها لَرعاية

وإنها لعناية

وإنها لحجر محجور، وحجاب مستور، بينك وبين منغصات الشعور، وبواعث الفتور..

لعمرى كم يحتاج كل عابد للحظات مسوَّرة..

لسويعات خلوة لا يقطع صفوها إنس ولا جان..

لأسوار من الحرص، وسياج من العزم، وساتر من الإخلاص والصدق، تحوط محراب عبوديته..

ربما لا يكون محرابا كمحراب داوود، أو محاريب ولده سليمان، أو محراب مريم أو كفيلها زكريا عليهم السلام..

وربما لا تكون صومعة كصومعة جريج، أو غيره من العباد والنساك..

لكنها لحظة خلوة

همسة مناجاة

جوهرة عبودية تحتاج إلى مثل هذا السور..

كم يغبطك على أسوار محرابك كل مريد أنس بمولاه طامع في جواره الكريم!

لكن ما هذان الظلان اللذان يتسوران المحراب؟؟!!

ما قصدهما بذلك الاقتحام الذي لا شك أنه سيفزع الناسك المتعبد في محرابه، والذي لا يتوقع تعكيرا لصفو خلوته، ولا قطعا لطريق عزلته..

- ﴿لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾..

ربما خففت تلك الكلمات التي بادر بها الرجلان من فزعة داوود، وهدأت من روعه كثيرا..

لا بأس،

جئتما إذن لتقاضٍ..

لكن هل هذا وقته، وهل يصح في الحديث ما ينتهجانه من أسلوب؟ !

إنه نبي مرسل، بخلاف كونه ملكا حاكما، فليس تناسبه حتما تلك اللهجة، وتيك النقرة..

لا تُشطط!

وهل يقال هذا لمثله؟!

وهل مثل هذا النبى العابد، يتوقع منه إلا كل عدل واعتدال، ومجافاة لكل شطط وزيغ وضلال؟!

لو أنه ملك غير هذا المتواضع، خافض الجناح، لكان له معكما بخصوص أسلوبكما واقتحامكما شأن آخر..

فهيا أخرجا ما عندكما، واعرضا مشكلتكما، فها هو العابد قد تأهب لأداء واجبه، والقيام بأمانته..

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ﴾

إنها الدنيا قد حضرت بمشاكلها، وأقبلت بمظالم الخلطاء والشركاء..

بعد هذه الواحة الغناء، التي كان العابد يتقلب منذ قليل في حدائق ذكرها، وبساتين تسبيحها، عليه الآن أن يعود قاضيا يحكم بين الناس..

سيحتمل قسوة المشاكل، وبغي الخلطاء، ومراء المتنازعين، ولكن إلى حين..

نعم إلى حين، فهذا حال العبد المتصل بمولاه..

لا يعد غير وصال حبيبه مغنما، ولا يعتبر ما يعطله عنه إلا مغرما..

إنما هى هنيهة، ستمر لحظاتها كدهر، على القلب المشتاق للانكباب على ذكره وشكره..

وإنها للحظات يتمنى المحب أن تنتهى بسرعة ليأنس بحبيبه..

لكن لا بأس..

إنه نداء الواجب، ومسئولية الحاكم، وأمانة القاضى، وهو على قدر تلك المسئولية، وما دام في الأمر مصلحة للعباد، فلن يتأخر الراعى بحال من الأحوال

عموما فالأمر يسير والحكم جلي غير خفي ولا عسير:

﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ﴾ ،

هذا هو خالص الحكم علي التمام..

بالطبع رجل لديه مائة نعجة إلا واحدة، يطمع فيها عند أخيه الذي لا يملك إلا واحدة، ليتم المائة، ظلم واضح، وجور فادح..

أى ظلم هذا الذي أوقعه بك أخوك الغني؟!

للأسف هذا حال كثير من الشركاء، إلا من من الله عليهم بالإيمان والصلاح، وما أقلهم..

لكن ما هذا؟!

لماذا خرّ النبي داوود راكعا ساجدا؟!

هل هو انبعاث لشوق في قلب لم يحتمل فراق الذكر أكثر من هذا؟!

لا.. بل هي سجدة ندم وتوبة، فلعله يستغفر..

ماذا حدث يا نبى الله عليك السلام؟

هل تستغفر لأجل ظن كان بك في الرجلين، أدى لفزعك منهما، كما سيفسر البعض سجدتك بعد حين..

أم أنه ندم على حكم قد أصدرته بسماع طرف دون طرف؟!

هون على نفسك، فقد سكت صاحب النعاج التسعة والتسعين، وما علمنا أنه رد عن نفسه، والسكوت في الأصل إقرار..

فيا لورعك أيها الناسك!

أنعم بك من رجاع أواب!

ياليت كل الحكام والقضاة مثلك يا داوود..

لا يعنيني كثيرا لماذا سجدت، وعن ماذا استغفرت، وما طبيعة الفتنة التي ظننت أنك فيها قد وقعت، وفى ذلك فليختلف المختلفون، وليتنازع المتنازعون، ولله في خلقه شئون..

ما يعنينا أنك قد سجدت..

أنك قد رجعت..

وأنك استغفرت..

رغم سعة ملكك، وقوة بأسك استغفرت فما استكبرت..

دُم على سجودك الخاشع أيها الناسك، والهج بزجل تسبيحك الرائع، ويا جبال أوبى معه، ورددي يا طير..

لقد عاد الذاكر إلى لحظة خلوته، واستقر العابد في واحته حتى حين..

عاد لمناجاة الرب الجبار والانغماس في بحار الأذكار وتدبر الأسرار، هنالك؛ خلف الأسوار

أسوار المحراب.

واهتز القصر

(٢٠)

واهتز القصر (٢٠)

«بين الطاغوت وقريبه؛ آية خذلان، وآية توفيق وعون، ولله في خلقه شأن »

تعالى هدير الغمغات..

وتردد صدى ودَويٍّ الكلمات المتناثرات من تلك المناقشات المحتدمة التي تدور في البهو الشاسع الذي يتوسط القصر الذي يجتمع فيه كبراء القوم، وأعضاء الأسرة الحاكمة وهيئة المشورة..

ويكأن الجمع كله يتكلم في اللحظة نفسها..

الخطب جلل..

والحدث خطير..

لابد أن يدلي كل منا بدلوه، فالأمر لم يعد يحتمل السكوت..

لو لم نصل لحل بسرعة مع هذا الرجل، فإن العواقب ستكون وخيمة..

لابد من وقفة..

لابد من وضع حد لتلك القلاقل التي يثير بها الرعاع علينا..

لقد جربنا معه كل الوسائل..

لكن الرجل لا يتراجع..

لا يخشانا، ولا يهاب قائدنا، ولا يأبه بقوتنا وبأسنا..

ما الرأى إذاً؟ ما الحل معه؟

ظل الملأ يتجاذبون الحديث، وتتعالى همهماتهم، حتى قطعها صوت جهورى غليظ..

صوت يفيض بالغرور، ويطفح بالكبر والعلو والفجور..

إنه صوت صاحب القصر، ورأس الدولة وعمود استبدادها..

لقد ظل يراقب مشاوراتهم طويلا، حتى قرر أخيرا أن يتدخل..

سكت الجميع فورا، فلا ينبغى لهم أن يتكلموا في حضرته إلا بإذنه..

إن كان المتمردون لا يعرفون قدره ولا يوقرونه، فإن هؤلاء يعرفون ويوقرون..

مهما بلغت مناصبهم ورتبهم، فهم يعلمون جيدا أن لهم حدودا لا يمكنهم تخطيها، ولا يحل لهم اختراقها..

هكـذا تربـوا وتربـى آبـاؤهم ووعـلى ذلـك نـشأوا ونـشأ أجـدادهم الأولون..

و كذلك وصلوا..

وبهذا بلغوا تلك المنزلة الرفيعة، والدرجة العالية، التي يحسدهم عليها أقرانهم؛ بأن يقربهم صاحب القصر، ويسمح لهم بأن يكونوا جزءًا من الزينة التي تغلف المكان..

حتى لو لم يكن لرأيهم قيمة، أو لمشورتهم تأثير، فيكفي أنه سمح لهم أن يكونوا جزءاً من الصورة الأنيقة، على ما فيها من زيف، والتي يجب أن يبدو في صـدارتها بمظهـر الرجـل المـشاور، الـذي يحـرص عـلى سـماع الآراء، والمشاركة في اتخاذ القرارات..

لكن في النهاية هم لا ينـسون أبـدا أن هـذه مجـرد رتـوش مظهريـة، لا تمنحهم حق المخالفة الفعلية، إنما فقـط تمـنحهم امتيـازات الحظـوة، ونفـوذ السلطة، والقرب من صاحب القصر.

إنهم ملوك الظل الذين لا يأبهون إلا بخزائن وخيرات مصر..

لذا فإذا تكلم وجب عليهم أن يسمعوا.. ويصفقوا..

و إن وُجدت الطبول بين أيديهم لطبلوا..

هكذا تربوا..

وكذلك وصلوا..

- هيا تكلم يا سيدنا، وأمتعنا بآرائك السديدة..
- لا حل مع المارق إلا القتل..

ذرونى أقتله..

دعوني أتخلص منه..

اتركوني أخلص البلاد والعباد من شر هذا الذي سيغير عقائدكم، ويضيع دينكم ودين آبائكم، ويظهر في أرضكم الفساد

نكس البعض رؤوسهم يخفون ابتسامات ساخرة حرصوا ألا يلمحها مخلوق..

ما أطرفها من كلمة حين تخرج من هذا الفم..

ذروني!!

و هل تستأذن أيها الطاغية؟!

منذ متى ؟!

و هل مثلك من الطغاة يحتاج من أمثالنا من المطبلين أن نذره ونتركه؟

إنها الصورة التي تحرص على إحكام تزييفها، لكن الحقيقة أنك لا تحتاج إلى رأينا، ولا تنتظر إذننا..

لا تقلق يا سيادة الطاغية، فلن تجد منا إلا كل تطبيل وتصفيق..

طبعا لم تجاوز تلك الأفكار أسوار عقولهم، ولم ولن تصل يوما إلى ألسنتهم، التي استمرأت النفاق، وألفت الكذب، ولم تعرف إلا التزلف والتملق والمداهنة، ولم تتعود إلا على قصائد المديح، ومطولات الثناء المنافق الصريح..

- نعم الرأى هو يا صاحب القصر..

و ما بعد قولك من قول..

ما أعظم توجيهات فخامتك أيها المفدى بالأرواح..

هكذا تعالت صيحاتهم المؤيدة، وارتفعت تهليلاتهم الداعمة للقرار ولكل قرار ..

لقد ألمح صاحبهم أنه يريده، وتلميحات سيادته أوامر بلا شك، بل إن أحلام فخامته لا مفر من تحقيقها بكل السبل..

هكذا تربوا..

وعلي هذا حرصوا..

وكذلك وصلوا

ارتسمت ابتسامة رضا وحبور على وجه الطاغية، وقد بدا في الأفق مخططه، قد بات قاب قوسين أو أدنى من التنفيذ، ودون أن يغير عادته التشاورية، التي يحب أن تصبغ بها قرارته الرشيدة..

من بعيد ومن بين الأعمدة العملاقة التي تمتلئ بالنقوش والزخارف البديعة، وترتفع شاهقة كمئات الأوتاد الشامخة في كبد السماء، التمعت عينان ترقبان المشهد ببالغ الاهتمام..

وقف الرجل يسمع ويرى ما يحدث، وفى صدره تتلاطم أمواج بحر لُجيٍّ من المشاعر المتصارعة..

هل حانت اللحظة؟

ليس يمكنه أن يكتم ما يجيش في صدره أكثر من ذلك..

إن صدره لم يعد يحتمل..

المشاعر تتلاطم، والأفكار تصطرع، والنزاع بينه وبين نفسه يحتدم..

هل لك أن تقوم لله قومة؟!

هل لك أن تصدع بما في صدرك؟ وقد كتمته طويلا..

أما آن أوان الجهر، وقد عظم الكيد، وصارت هلكة حبيبك ومعلمك وسبب هدايتك وشيكة..

بلى وربى، قد آن، قد آن..

لكنك ستلحق به!

ولن تحدث كلماتك فرقا..

إنك ستواجه جبارا طاغيا، ربما لم تعرف البشرية يوما مثله..

أما لك فيما فعل بامرأته عبرة؟

إنه لم يرع ودها، ولم يذكر عشرتها..

لقد أطاح بها، وبماشطة ابنته وأطفالها، فور علمه أنهما قد اتبعتا من تتبع..

فهل سيرعى لك قربى، أو يتذكر رحما وصلت بينكما؟

لو تكلمت سيصيبك ما سيصيب معلمك وقدوتك من مصير..

فما أغناك اليوم عن هذا، وأنت على ما أنت عليه من الجاه والسلطان..

أنت رجل من الأسرة الحاكمة، وكفى بها مكانة..

هل ستضيع كل ذلك بكلمة؟!

لكن من قال أنها مجرد كلمة؟

إنها كلمة حق وموقف صدق..

كيف أنظر إلى نفسي، وكيف أحترمها، إن لم أقم بتلك الكلمة ولم أوفها قدرها؟

إنه الحق وكفى به قيمة..

لا أعدل به منصبا، ولا أساوى به مكانة، ولا يثنينى عنه أذى يلحق بى..

لابد من قرار الآن..

لم أعد أحتمل أن أشهد ما يحدث ثم أسكت عن الحق، وكأني أبكم لا أقدر على نطق شيء..

الرجل سيُقتل، والملأ يهللون لقرار الظالم الكفور..

و ما طيب العيش بعد ذلك؟ !

لسوف يصدع الرجل بكلمة الحق، وليكن بعدها ما يكون وليقضي الله أمرا كان مفعولا

- ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ ..

قد قال الرجل كلمته، وتحمل تبعته، وقام لله بأمانته، وقد انطلقت بالحق قذيفته..

ساد الوجوم للحظات ثقيلة تتهادى في بطء كأنها تحبو..

وخيم السكون على المكان!

سكون لابد تعقبه عواصف التبعات وضواري الهجمات..

سكت الجمع مبهوتا، واختفى هدير الأصوات التي كانت تتعالى منذ قليل، هاتفة بحياة الزعيم الملهم..

لقد صدمتهم قذائف الحق التي تنطلق من فمك أيها البطل..

لقد اهتزت نفوسهم الخانعة، مع اهتزاز القصر بالحق الذي تـصدع بـه، فتتصدع له الجدران شقوقا تراها بصائر المتحققين

ولقد ألجمتهم حجتك الواضحة الناصعة، وبهتـتهم جرأتـك التـي مـا سمعوا بها في آبائهم الأولين..

ما هكذا تربوا، وما على مثل هذا تبوأوا مقاعد الحاشية متصدرين..

من بعيد بدا وجه مسودا وهو كظيم..

إنه هو وجه اللئيم..

وجه فرعون الزنيم..

ياله من غـضب عظـيم، يتفجـر مـن قـسمات وجـه، قاسـية كالـصخر الصميم..

فيضان من التساؤلات الثائرة، ينهمر على ضفاف نفسه..

أنت؟؟

مثلك يخرج مثل هذه الكلمات؟!

أنت تتحداني، وفي قلب قصري؟!

و بين حرسى وعسسى؟!

يا لك من ناكر للفضل جاحد كنود!

أنسيت دمك الملكى الأزرق، كيف سولت لك نفـسك أن تـدافع عـن رجل من نسل العبيد؟!

تابعته، واتبعت دينه..

إياك أن تكون قد فعلت

معقول؟

مثل هذا يكون؟!

بالأمس امرأتى مرقت عن طوعى، وكفرت بربوبيتي..

و اليوم أنت يا رَحِمِي؟

مستحيل..

كيف استطاع موسى أن يخترق قصري لهذه الدرجة؟

كيف تسللت كلمات هذا الساحر إلى عقر دارى؟

كيف عبرت الأسوار، وكيف تجاوزت الأوتاد؟

كيف لم يوقفها الحراس، ولم يحجبها البصاصون، فوصلت إليك وطالت امرأتي وماشطتها؟!

أي سحر هذا الذي يملكه ذاك الرجل ولست أملكه؟!

- ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾..

توالت صواعق الحق

انهالت الكلمات من فم المؤمن صحاب المهمات، وتوالت من لسانه الملهم المؤيد من ربه التذكرات، فحدقت العيون ذهولا من جرأته والثبات..

وأما عينا الفرعون علي وجه الخصوص..

فتكادان تغادران محجريهما، من فرط الجحوظ الغاضب الحسير..

ماذا عساه يردد الداعية العنيد المثير..

بأس الله؟!!

يتحدث في حضرتي عن بأس إلهه الشديد..

و يلمح أنه لا يمكننى النصر على ذلك البأس الأكيد..

هل نسى أنى أنا الفرعون الرشيد..

قد تعامى عن الحضارة والملك، عن الصولجان، وهذه الأنهار تجرى من تحتى..

هل يظن أننى أجلسهم حولي أشاورهم لكى يخالفوني؟

هل يصدق أنه يمكننى يوما أن أسمع إلا صوتي، وأن أتبع إلا رأيي؟

هل ظن أن عطفي وكرمي سيجعلني أقبل يوما أن يروا هم إلا ما أراه أنا؟

هيهات هيهات..

﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ ..

هكذا ارتج القصر بصيحة فرعون الصريحة، واستدارت العيون التي كانت تتأمل الرجل المؤمن، ملتفتة لتسمع إلى خصمه العنيد..

هذه هى الحقيقة فاسمعوها وعوها، ولتطش كل شعارات المشورة، مع رذاذ الكلمات الهائجة..

الرأى رأيي، والهداية ما أقول، والصواب دائما حليفي فلا رأى ولا قول بعد قولى..

ألا فلتفيقوا ولتثوبوا إلي رشدكم، ولتدعوا عنكم خزعبلات المشورة، التي صدقتموها..

لكن هاهي تتوالي صواعق الحق

- يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ

إنه الرجل يستكمل دعوته..

الرجل لا يلتفت إلي ما يصيح به الطاغوت..

لم يعد الأمر قاصرا على الدفاع عن موسى، أو الذب عنه، والتخذيل عن قتله..

بل صار الأمر دعوة وموعظة وتذكرة عامة، تقصد القلوب وتغمر الأفهام والألباب..

لقد هان الطاغوت في نظره، وانتهى الأمر..

لم يعد غضبه يخيفه، ولم يعد يخشى أوتاده ولا جنده العتيد..

لقد صدع وجهر، واختار العزيمة، ولسوف يستكمل الطريق، ويسلك السبيل، وليكن ما يكون..

لم يعد الأمر فارقا، ولم يبق للخوف من أثر،وما تبقى استحال إلي لون جديد..

إنه الآن فقط يخاف على قومه..

خوف الحريص على أن يذوق كل الخلق ما ذاقه، وأن يغترفوا مما اغترف..

خوف المشفق الذي يعلم ما ينتظر من لم يغترف..

ألا يذكرون ما حل بقوم نوح وعاد وثمود وسائر الأحزاب..

ماهم ليسوا يحملون لذلك هما؟!

ربما ليسوا متنبهين لحجم الخطر، إنهم لا يخشون على أنفسهم، لكن هو يخشى عليهم..

- وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ
يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ..

إن كنتم قد أمنتم إهلاكا في الدنيا، كالذي حل بمن سبقكم، فها هو يحذركم من يوم آخر..

إنه يوم التناد الذي ينادى فيه المكذبون، وما من مجيب إلا يبشر بالمكث في العذاب..

ما أجمل دعوتك أيها الرجل، وأنعم بك من داعية؛ صاحب دعوة الخير العميم..

إن دعوتك لهى دعـوة الفطـرة، والحـق، والخـير العظـيم، والنـصيحة، والحرص الأمين علي استنقاذ الخلق من العذاب المهين

دعوة مزينة رقيقة يقطـر منهـا الحـرص وتفـوح منهـا الرغبـة في الخـير للمدعو..

ألا هكذا فلتكن الدعوة، وعلى ذلك فليكن الداعى..

ويالها من قلوب قاسية، تلك التي لا تستجيب لمثل هذا الحرص، ولـين الجانب..

- وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ .

فلتذكروا تاريخكم، ولتسترجعوا ما فعله يوسف لكـم، ولتستحـضروا الخير الذي كنتم فيه علي عهده..

ووالله ما جاء موسى إلا بمثل ما جاء بـه يوسـف، ولكـن هكـذا دأب المتشككين..

الريبة والإسراف، لبئس الصفتان..

يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ
أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ

إ كلمات قالها فرعون في سماجة..

تعالت من حوله ضحكات المجاملين وصيحات المطبلين مهنئين..

نبرة من نبرات سخرية -وربما حماقة الفراعين..

هل تمزح يا فرعون؟

أي صرح من الطين ذلك الذي سيبلغ أسباب السماء؟!

أوبعد كل تلك الحجج والبينات التي أتاك بها موسى، لازلت تكابر، وتتحدى، وتمارى؟!

ما أثقل ظلك أيها الفرعون..

يبدو أنه لا فائدة مرجوة من رعونتك وحماقتك.

لا تلتفت إليه أيها المؤمن القيم الأمين..

أكمل ما تفعله واستمر في أشرف وأحسن قول يمكن أن يوفق إنسان لقوله..

إنه البلاغ عن الله..

وإنها الدعوة إلى الله..

أكمل موعظتك عساها أن تجد قلبا ينشرح لها، بدلا من قلب هذا الطاغية القاسي المظلم العتيد..

يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ..

هذا ما عند الرجل، فما أحسنه وما أجمله!

هي نصيحة شاملة جامعة، جمعت بين الترغيب والترهيب والتذكير وضرب الأمثال، وحوت المنطق العقلي، والمعالجة الإيمانية، والبعد التاريخي، وزينها تواضعه، وأدبه، واحترامه للمخاطب..

قد كفيت ووفيت أيها الرجل، وهذا حقا هو القول الذي ليس عليه مزيد، لكن من يسمع ومن يعى ويتذكر؟!

- فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ..

ختم الرجل الصالح بلاغه، وأتم دعوته، وفوض أمره إلى من إليه يرجع الأمر كله..

فلتفعل ما تشاء يا فرعون..

فلترغ وتزبد، ولتستشط غضبا، ولتملأ قـصرك بـصدى غيظـك، فلـن يضره..

فلتكد له كما تريد، ولتمكر به كما ترجو، فلن تصل إليه..

قد فوض إلى قدير، وقد صدر الأمر الإلهـى، واشـتملته دروع الوقايـة، وترست دونه متاريس الحفظ..

لن تصلوا إليه، فقد وقاه الله سيئات ما تمكرون..

أما أنت أيها الظالم، ومن حولك من المهللـين، فـانتظروا العـذاب، قـد قضى في أمركم، ولعذاب الآخرة أشق، ولكـنكم لا تعلمـون، بـلاغ، لـيس يعقله إلا المخبتون، ولا يدركه الظالمون المجرمون:

ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ....

❊ ❊ ❊

في الصومعة

(٢١)

في الصومعة (٢١)

«لعبادة الوقت ولفضل الوالدة، بنبأ جريج وأويس - الحقيقة الشرعية شاهدة»

بخطواتها المتهالكة التي أبطأها الهرم وأثقلتها السنون، مضت العجوز تقطع المسافة بين بيتها المتواضع وبين الصومعة..

صومعة طينية مرتفعة عن الأرض، تبدو للعيان من بين أغصان الأشجار التي تظللها، وهي تنضح بالزهد وتقطر بالبساطة والتقشف

لقد أبى ولدها إلا أن يسكنها، تاركا خلفه متاع الدنيا، وزخرف العيش..

لقد أصر فلذة كبدها على الانقطاع عن دنياهم الفانية، في تلك الكومة من الطوب اللبن، التي لا تتصل بالعالم إلا من خلال حبل ممدود، يستعمله العابد في استلام كسرات الخبز التي تقيم صلبه، ونادرا ما استعمله للهبوط من تلك الصومعة المعزولة..

و لماذا ينزل من الصومعة، وما يعلمه من ملته يبيح له ذلـك الانقطـاع، وتلك الرهبانية؟!

لقد استحب عزلته، وتلذذ بخلوته، ولم يعد يرضى عنها بديلا..

وصلت الأم العجوز إلى ظل صومعة ولدها، ورفعت إليهـا وجهـا قـد جعدته الأعوام، ونالت من نضارته السنون،ونادت بصوت منهك مرتعش:

يا جريج..

طرق اسمه مسامعه، بينما هو في عبادته منهمك، وعلى صلواته منكـب، وبأوراده منشغل..

بوضوح ميز صوت أمه..

هذا الصوت لا يمكن أن تخطئه أذناه، رغم وهنه وبعده..

وهل ينسى ابن صـوت والدتـه، أو ينكـر قلبـه نـبرة طالما آوى إليهـا، واطمئن لسماعها؟!

لكنه الآن يصلي..

هو في واد والناس في واد، أمه تنادى، وهو في حـال لا يملـك قلبـه أن ينزع عن خشوعه..

تري ما العمل؟

ماذا يفعل؟ !

هل يخرج من صلاته التي لا يعدل بها شيئا، ليجيب النداء؟

إن من العبَّاد لمن خروج روحه أحب إليه من قطع عبادته..

وأولى بجريج أن يكون منهم..

لكنها أمه!

ما السبيل إذا؟

يا رب أمي وصلاتي..

يا رب أمي وصلاتي..

جعلت تلك الجملة تتردد في صدره الحائر، ونداء الأم يتكرر مـرة بعـد مرة..

- يا جريج..
- أمي وصلاتي..
- يا جريج..
- أمي وصلاتي..
- يا جريج..
- ما من مجيب!

يا لشعور الأم في تلك اللحظة!

ولدي لا يجيبني!

بندائي لا يأبه..

ولحاجتي لا يقوم..

من أدراه أننى لا أبغيه لضرورة لا غنى لى فيها عنه؟

من أعلمه أنى أحتمل أن ينصرف عنى، وأن يعرض عن ندائى؟

هل هذا مقامى عنده؟

أن أناديه فلا يستجيب ويجيب!

وهل عبادته وزهده وصلاح أمره ورقة قلبه تأمره بذلك؛ بإهدار النداء، وإغفال الدعاء؟!

حاشا وكلا!

انصرفت المرأة بخفى حنين، تحمل حزنا أثقل خطواتها، وقد شعرت بإعراض فلذة كبدها..

لكنها عادت في اليوم التالى..

وعاودت النداء:

يا جريج..

وما من مجيب..

ما زال الرجل في صلاته، لم تبرح حيرته قلبه..

أمى أم صلاتى؟!

ثلاثة أيام يتكرر فيها المشهد نفسه والنداء ذاته..

وما من مجيب..

- أي جريج: أشرِف عليّ أكلمك..
- أنا أمك
- هيا تعال إلي..

توالي النداء، بصوت بدت عليه نبرات غضب حزين..

ما من مجيب!

هنا خرجت دعوتها سالكة طريقها إلي كبد السماء:

- **لا أماتك الله يا جريج! حتى تنظر في وجه المومسات!!**

يا الله!!

كيف طاوعك قلبك يا أمة الله، أن تطلقى تلك الدعوة؟

ويا لها من دعوة!

تدعين على عابد زاهد منقطع لطاعة الله، أن يشهد وجوه الغانيات، وأن يلهب بصره النظر في سمت الزانيات..

يا لها من دعوة عجيب أن تلفظ بها شفاه الأمهات!

كم من فجار يتمنون مثل هذه النظرة، ويدفعون الغالى والنفيس، لإدراك تلك المطالعة..

لكن هو؟!

جريج العابد؟

مثل هذه النظرة عذاب له، لا يطيقه قلبه الخاشع، ولا تحتمله نفسه الطاهرة..

لكنها دعوة أم صادفت ساعة إجابة..

ولم تمض أيام حتى أجيبت دعوة الأم المغضبة..

فها هي عاهرة من بغايا بنى إسرائيل تضع من سفاح حملها ويظهر على الملأ عارها..

كانت الفضيحة، وجاءت لحظة المحاسبة، وحضر البلاء، وكان لابد من ذاك السؤال:

من هو والد الطفل؟

الأنظار كلها منصبة عليها، وغضبة القوم ستنال منها وحدها..

ما الحل، وكيف السبيل للخروج من هذا المأزق العصيب؟!

فلتصرفي أبصار القوم عن خطيئتك، بشغلهم بفضيحة أكبر، تهز القرية..

فلتتهمي آخر من يخطر على بال القوم، لتحدثى زلزالا عظيما في قلوبهم، يصرفهم عنك إلى شأن آخر رهيب..

هكذا تآمرت نفسها الأمارة مع شيطانها اللصيق..

والعابد ما ذنبه؟

ماذا اقترف في حقك كي تؤذيه وتدمري كيان مروءته بمثل هذه الكيد العظيم؟!

يا للإجرام؛ حين يتمكن من النفس، فيسول لها دنس المعاصى، فتوالي اقترافها، واحدة تلو أخرى..

قد استمرأت الزنا يومًا، فهل تستنكف عن الكذب ورمي البرىء؟!

- أبوه جريج!

نزل الخبر على القوم كالصاعقة..

انتشر في القرية انتشار النار في الهشيم..

ما أمتع الفضيحة، ونهش الأعراض، لدى فاسدي الفطر..

وأعظم متعتها حين تكون في حق عابد زاهد شكور!

إنها الفرصة التي ينتظرها المقصر ليستحل تقصيره..

الفرصة التي ينتظرها المنافق، ليثبت لنفسه أن هناك من يتقلب مثله في دنس الرياء..

الفرصة التي يقتنصها الفاجر، ليبرر لنفسه فجوره، بحجة أنه مما عمت به البلوى..

هذا بخلاف مدمني القذف، وعاشقى فاكهة مجالسهم، المسماة عند من يعقلون بالغيبة..

ساد الهرج وانتشر اللغط..

ائتونا بهذا المنافق الكذاب، ودمروا صومعته التي يظن نفسه بها أنه أفضل منا..

فلتفضحوه على رؤوس الأشهاد، ولتأتوا به على أعين العباد..

ولكن هل ثبتت عليه التهمة، لمجرد دعوى من زانية، تعلمون أنها حملت سفاحا، ولم تنكر؟

فأين الدليل، وكيف اليقين، أوهكذا يُرمى الناس ويفضحون؟!

أم أنها رغبة دفينة في قلوبكم، تبتغون بها كسر هذا العابد، وتحطيم فكرة وجود من هو أفضل منكم وأتقى لرب العالمين؟!

ما من مجيب..

لا أحد بينهم يسمع لصوت العقل أو يفكر بذهن رشيد..

فقد جاءت الفرصة وربما لن تتكرر من جديد..

تعالى الضجيج تحت الصومعة، وبدأت طرقات المعاول في نقضها من أصلها..

قام العابد عن صلاته دهشا..

ماذا يحدث؟ أوقد جُن القوم؟!

لماذا يهدمون صومعتي وهتافاتهم تتعالى بسبي والنيل من عرضي؟ !

ماذا فعلت، ومتي، وأين في أرض دنياكم التي قاطعتها منذ زمن بعيد؟!

و كيف وأنا لم أغادر صومعتى حتى لأجيب أمي عن قريب؟!

أمي!!

نطق اسمها ذكرني بسر البلاء الرهيب..

قد سمعتها وهي ترحل داعية عليّ، ولم أقو على مفارقة صلاتي..

ولقد وقع في قلبى أن دعوتها لن تمر..

لعله قد حان وقت البلاء، وها قد أجيب الدعاء..

لله الأمر من قبل ومن بعد..

حان وقت استعمالك أيها الحبل..

ولينزل العابد من صومعته قسرا، قبل أن تتهدم على رأسه..

تلقفه القوم، فجعلوا يجرون أنفه، ويضربونه قائلين: مُراءٍ تخادع الناس بعملك..

الصفعات والركلات تنهال على جسده وهم يدفعونه أمامهم بغلظة وتشف وازدراء..

لا أحد يريد أن يسمع، ولا أحد يحاول أن يحقق ويتمهل..

فقط الرغبة في التشفي التي سيطرت عليهم، وقد تمكنوا أخيرا من أحد العباد، يالكم من لئام!

- مالكم يا قوم؟!

استجمع قواه وصاح بهم تلك الصيحة..

فأشاروا إلى ذلك الوجه المصطنع القابع خلف طبقات سميكة من الأصباغ الرخيصة وتنطق بفجوره عابثات القسمات وماجنات النظرات..

إنها دعوة أمه..

قد نظر العابد في الوجه الذي لم يكن يوما لينظر إليه، وهو يتقلب في نعيم عبادته، ويمخر بمركب صلاته في عباب خشوعه وإخباته وتلاوته..

إنها تلك البغي الباغية تزعم أنه أبٌ لوليدها من سفاح!

صعق العابد من هول الكلام، واضطرمت في نفسه سؤالات:

يا قوم أوقد فقدتم عقولكم ؟!

أنا الذي طالما تعففت عن الحلال، وزهدت في المباح، أواقع صاحبة هذا الوجه القاسي الكئيب المغطى بالاصطناع والتكلف وأنا الذي لا أطيق النظر إليها لحظة؟!!

وفي حرام؟

إنها الدعوة قد أصابتنى..

لا مناص عن التوبة..

لقد آثرت تلذذي بالتنفل عن إجابة أمى، وتساءلت حائرا دوما: أمي أم صلاتي؟ !

وقد علمت الآن إجابة السؤال..

إنهـا أمـي، وإن إجابتهـا كانـت الفاضـل، بيـنما كـان المفـضول تـنفلي بالصلاة..

دارت تلك الخـواطر في نفـس العابـد، ولم يخـرج منهـا عـلى لـسانه إلا مطلب واحد:

- ذروني أصلي ركعتين لربى!

ألا زلت ترائي أيها العابد الزائف؟

أفلا ينتهي نفاقك ويتوقف عند حد؟

أوتظن تجارتك بالدين قد صارت تنطلي علينا؟

نطقت أعين المتشفين بتلك العبارات الظالمة وكذلك كـان لـسان حـال اللئام..

فلتصلِّ ما تشاء لن نمنعك..

الآن علم العابد الفاضل عن المفضول، وآن وقت التضرع والخشوع..

الآن وقت اللجوء إلى كاشف الضر، فلا يرفع عنه هذا البلاء إلا هو..

لقد تعلم العابد الدرس، وليعد لأصل مقامه العالى عند ربه ولتجر علي يديه الكرامة التي يستحقها..

- أين الغلام؟

سأل بهدوء، بعد أن فرغ من ركعتيه..

ولماذا تريد الغلام؟!

هل اشتقت لولدك ثمرة الحرام؟

تعالت ضحكات الحمقى، وهم يسخرون من عابد قريتهم، ثم ما لبثوا أن جاءوا بالرضيع..

انظر إلى آثار سفاحك، أيها الوالد الحنون..

للأسف قسماته لا تشبهك كثيرا لكن هذا لا ينفي أنه ولدك بلا شك فقد صدر حكمنا وحسمت قضيتنا ؟

لم يعرهم جريج أدنى اهتمام ولم يلتفت إلى سخريتهم واستهزائهم، بل تقدم إلى الطفل بخطوات ثابتة، ثم نكزه في جنبه نكزة خفيفة، سائلا: يا غلام من أبوك؟!

عجبا لك يا جريج، هل جننت؛ تكلم رضيعا؟!

تحاور من كان في المهد وليدا؟

تحادث من لا يجيد إلا الصراخ والبكاء صغيرا؟

لكن..

ما هذا؟؟

ماذا يحدث؟

أحق ما نسمع؟

مستحيل!!

لا يمكن أن يكون هذا حقيقيا!!

لقد تكلم الغلام!!

تكلم رضيع عمره أيام!!

تكلم فبرأ ساحة الزاهد العباد القوام

ذلك الذي ظننا به سوءاً وهو أفضلنا..

هل تسمعون؟

إنه يقول: أبى الراعي فلان..

لقد ظهر الحق..

يالها من كرامة..

انقض القوم على عابدهم معتذرين نادمين،

ما عرفوا قدره عند مولاه، حتى أجرى له هذه الكرامة..

لا بديل عن إعادة بناء صومعتك، من ذهب أو من فضة أو كيف شئت أيها الرجل الصالح..

بل أعيدوها كما كانت، فلم يزده ما حدث إلا زهدا في دنياكم، ورغبة عنكم إلى من هو خير وأبقى..

- فقط أعيدوها، وذروني..

نفعل أيها العبد الصالح..

نظر إليهم وتبسم، بينما تتردد في أذنيه دعوة أمه..

«لا أماتك الله يا جريج! حتى تنظر في وجه الموسات»..

قد أجيبت الدعوة، وقد فهم الدرس..

قضية التعبد ليست فقط فيما يرضيني..

ليست وحسب فيما تتلذذ به نفسي، وتميل إليه جوارحي، ويستمتع به فؤادي..

القضية قضية استرضاء..

العبادة إنما هي استرضاء لله جل وعلا، وعمل بما يحب، وليست بتقديم ما تحب نفسي، على ما يحب ربي، حتى لو كان ما أحبه عبادة أيضا..

إنما يعبد الله بالذي يرتضيه في الحال الذي يكون عليه الإنسان، والمقام الذي أقيم فيه..

فإذا كان الوقت وقت جهاد وفداء، كان الأحب والأرضى لله أن يجاهد وَلِيُّه..

وإذا كان الوقت وقت بر وإحسان، لم يقدم على ذلك تنفل وانقطاع..

وإذا كان الوقت وقت صدع بكلمة الحق، لم يتشاغل عنها بغيرها..

وإن كانت أيام فضل، وأوقات ذكر، ولحظات مضاعفة، انشغل بتحصيل الأجر، وتبييض الصحائف..

وهكذا حال العابد يستغرق في عبادة الوقت مؤثرا مرضاة ومحبة مولاه..

إن التلذذ بالطاعة، والاستمتاع بالعبادة، والبكاء من خشية الله، ومشاعر السمو الروحي، وأحاسيس العلو في سماوات التذلل والتقلب في درجات الخشوع والإخبات، هى بلا شك من فتوحات العبودية، وبركات القنوت، وفيوضات الركوع والسجود..

لكن النية الأعظم، والمقصد الأسمى للعبادة والعمل الصالح **هو إرضاؤه..**

إرضاء الله.

أن يرضى وأن يغفر، هذه هي حقيقة الفوز، سواء جاء الاستمتاع وحضرت اللذة في ذلك العمل، أو كان عملا لم يجد فيه العبد ذلك

المهم أن يصح الدليل ويستقيم القياس بأن هذا العمل أفضل أو أولى في هذا الوقت وذاك المقام..

وهذا معيار صدق نفيس..

يتجلى ظاهرا في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥]..

تأمل قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾..

العبرة إذاً ليست فقط في صلاح العمل، ولا في رضاك أنت..

بل في رضاه هو..

المهم أن يرضى..

حتى لو لم تستمتع..

حتى لو لم تجد قلبك..

الرجل الذي كان يحمل أمه قديما، ويطوف بها، ربما لم يكن مستمتعا بهذا الجهد المضنى، لكنه فعله لأنه الأرضى لله جل وعلا..

ولو نظرت فيما روى من حال عابد آخر، وهو أويس القرنى رحمه الله، لوجدت نموذجا بديعا **لتفضيل رضا الله على ميل النفس**..

الرجل أسلم وعاصر النبى ﷺ – على الراجح من أقوال أهل السير كما في الإصابة لابن حجر– وكان يستطيع اللحاق بالحبيب والتنعم بصحبته، ولا شك أن هذا أمتع للمحب من المكث بجوار الأم

لو وضعت نفسك مكانه أيها المحب لوجدت رغبة عارمة في اللحاق بحبيبك في مدينته..

لكن المعيار لدى أويس، كان رضا الله، والتقديم كان لمراد مولاه، والتفضيل كان للأحب لسيده، والأجلب لرضاه..

ولقد كان هاهنا بره بأمه، فاختار ذلك..

فهل ضره هذا؟!

أبدا، لقد زكاه الحبيب، ولقبه بخير التابعين

وهو إن كان لم ينل شرف الصحبة، فإن النبى ﷺ قد أمر من نال ذلك الشرف - الصحبة أعني - أن يسأل هذا الذي لم ينلها أن يستغفر له..

تخيل تابعى يستغفر لصحابى، وأي صحابي؛ إنه عمر!!

لقد حفظها الفاروق وانتظرها وطلبها..

دعوة بالمغفرة، يطلبها فاروق الأمة، وخليفة خليفة رسولها، من رجل بسيط، لم ير النبى ﷺ، فأى شرف هذا!

أنعم به من فضل، ذلك الذي ناله هذا المسترضي..لماذا؟

أكرر: لأنه اختار رضا الله، وآثر مراده على مراد نفسه..

وهذا ما تشد له الرحال، وتنفق فيه الأعمار قبل الأموال..

إرضاء الله حيث أراد، وكيف أراد، وشعار المسترضى في ذلك قول الكليم عليه السلام: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾..

تأمل: **لترضى**

فإذا هو رضى فاعلم أنك أيضا في النهاية وبإذنه ... سترضى

إذا هو رضي، فقد رضيت أنت..

فراضٍ ومرضي، ومنادٍ ومنادى، وكـريم ومكـرم ودار كرامـة وسـبيل يسلك في ميادين النضال وساحات الوغى أو تحـت أقـدام الوالـد والوالـدة تماما كما يسلك هنالك..... **في الصومعة**.

❊ ❊ ❊

بلى قرآن

(٢٢)

بلى قد آن (٢٢)

«بلىٍ يا رب قد آن؛ خشوع القلب قد حان»

تحت جنح الليل المتسربل بأستار الظلام الدامس الذي يخيم على المكان، بدا ظل يتسلق جدار بيت ليس ينفذ منه في غليظ العتمة، إلا ضوء خافت، يتسلل من إحدى النوافذ..

بدا الظل متسلقا جدار الدار بمهارة وحنكة، تشى بأنه يعرف ما يفعله، إنه يحسن حرفته جيدا ويجيد..

كيف لا، ومهنة صاحب الظل الإغارة، وحرفته السلب، وصنعته النهب وقطع الطريق..

لكنه هذه المرة لم يأت لسرقة هذا المنزل الهادئ..

ما جاء به ها هنا إلا الهوى..

إن معشوقته تسكن هذا البيت، وقد آن أوان اللقاء، وحانت لحظة بث الأشواق..

لكم يتوق قلبه لرؤية تلك الجارية التي خلبت لبه، وأوردته ذلك المورد، واضطرته لذلك التسلل..

ولولا خوفها من افتضاح الأمر، ماكان مقامه التسلل تحت جنح الظلام..

ولماذا يتسلل وهو من هو؟!

إنه من ترتعد لذكره فرائص صناديد الرجال، وتهتز لمقدمه قلوب جحافل الشجعان..

إنه الرعب المجسد، الذي بالبعد عن سبله والفرار من مسالكه يتواصى الركبان..

إنه من ترهِّب النساء صبيانهن بذكر اسمه، وترتجف القوافل لمجرد رؤيته.

إن مقامه كان دائما مقام المخوِّف، فعجيب وروده الآن موارد الخائفين!

ألا قاتل الله سكرة الهوى..

آه من هذا الداء.. إنه العشق مهين الرجال..

ها هو العاشق الولهان، يتسلق بهمة شديدة، مخترقا مع أستار الليل ستور الحرمات، متخطيا أسوار الكبائر والمنهيات، غير عابئ بشرع ولا بدين، ولا حتى بوخز ضمير..

ما هذا الصوت الذي ينبعث من خلف الستور؟!

معقول!

هل هناك من هو مستيقظ الآن في هذا الوقت المتأخر من الليل؟!

يبدو أنه صاحب الدار..

لقد أوقد قنديلا، يبعث هذا الضوء الهادئ، الذي لمحه أثناء تسلقه يتسلل من خلف أستار النافذة مخترقا جنح الظلام..

إن الرجل قائم يصلى!

ياللهوة السحيقة التي تفصل بيننا!

أنا أتسلق جدار بيته طمعا في لقاء محرم، بينما هو متسربل بلباس التقوى، منشغل بلقاء من نوع آخر..

لقاء مع الملك..

ليس هناك متسع لتلك الأفكار، المهم الآن نجاحي في المرور الآمن، من تحت نافذته، دون أن يلحظنى..

لا داعى لقتله، فلن يفيدنى قتله شيئا..

يبدو من صوته الخاشع أنه من الصالحين..

يا له من صوت يثير الحزن، ويبعث في القلب مشاعر لم أكن أتخيل وجودها في قعر مستنقعاته الآسنة!

ما الذي أيقظك في هذا الوقت لتثير شجونى أيها العابد؟

كم مضى عليَّ من وقت لم أسمع فيه كلام الله؟

وهل لمثلى أن يسأل مثل هذا السؤال؟

وهل ترك لى قطع الطريق، والإغارة على الآمنين، وقتا لأسمع، أو لأفهم، أو لأستبين؟

ما الذي يسمرنى هكذا؟!

لماذا لا أستطيع حراكا، ولا أقوى على حتي مغادرة المكان؟

لماذا لا أذهب لإدراك بغيتى، ولقاء معشوقتى؟

لست أدري..

لست أدرك..

لست أملك..

لا أستطيع منع نفسى من الإنصات لهذه الكلمات، رائقة تخرج من فم هذا العابد الأثير..

لست أقوي علي كبح جماح أشواقى، لسماع كلام ربى..

طال بي الأمد البعيد، لا أتذكر منذ متي؛ أنا محروم ومشتاق لمثل ذلك الوقع العميق..

هات ما عندك، أسمعنى..

أسمعنى ماذا يقول ربى..

ربى الذي طالما أعرضت عنه، وعشت فسادا في جنبات أرضه، أراني اليوم بحاجة وشوق إلي سماع ما يقول..

فلسوف أنصت لرسالته، وسألتقط حبله الممدود

سأقبل على مأدبته..

ليت شعري!

لا أكاد أصدق..

أتسألنى؟!

وتعاتبنى؟!

أنت يا إلهي..

تستبطئ قلبي..

يا لهذه الكلمات!

مالكما أيتها القدمان تتهاويان؟

مالكما على حمل جسدي لا تقويان ؟!

مالك أيتها الأرض بي تميدين؟!

تراني أتصدع..

وكيف لا أفعل ومولاي يناديني قائلا: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾

بلى يا رب قد آن..

بلى يا رب قد آن..

إنها الإجابة؛ إجابة السؤال..

لقد أحيا الله القلب العاصي، كما يحيي الأرض بعد الموات..

لقد استحالت مشاعره القاحلة إلى رياض مزهرة من الخشوع والإنابة والإخبات..

فلتتغير حياة كاملة، ولينقلب مسلكه رأسا على عقب، وليتحول من قاطع للطريق، مُرَوِّع للآمنين، ومعتدٍ على المسالمين، إلى نبراس للعارفين، وتاج للزاهدين، وقدوة للعابدين الراكعين الساجدين..

فليتغير لقبه، وليعتدل سمته، فيصير عابد الحرمين، بعد أن كان من شرار الثقلين!

كل ذلك بعد فتح الله وفضله، لسبب رئيس..

لقد أجاب السؤال، ولبى النداء..

هذا هو المعيار الفارق بين من يتعاملون مع كلام الله..

كثير من الناس يستمعون لكلام الله ونداءاته وسؤالاته دون اعتناء، وبقلب لا يعي حقيقة الموقف الذي يشكلون واحدا من أهم إحداثياته، وطرفا صميما فيه..

ملك الملوك ينادي..

جبار السماوات والأرض يسأل..

يسألني أنا وأنت والجميع..

كيف لا يسارع القلب والعقل واللسان والجوارح من فورها للجواب؟!

الخلل هو في غياب الفهم والتأمل واليقين، حال معالجة الحدث العظيم..

ويكأن المخاطب ينتظر أن يسمع اسمه ولقبه، ليجيب ويستجيب!

والأصل حين ينادى العاقل أو يُسأل أن يجيب..

لما نودي آدم عليه السلام وزوجه، بعد الأكل من الشجرة، وسئلا عن سبب الوقوع في ذلك بعد النهي، أجابا معترفين نادمين قائلين: **رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ** ..

وكذلك لما نودي موسى عليه السلام، وسئل عما في يمينه، أجاب وأفاض: **هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ** ..

ولما سُئل عن سبب عجلته عن قومه أجاب: **هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ** ..

وعندما سوف يسأل المسيح عليه السلام عن اتخاذ الناس لـه ولأمـه إلهـين مـن دون الله سـيجيب **﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾** ما قلت لهـم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم..

هذا هو رد الفعل الطبيعي، حين يُنَادَى أو يُسأَل الإنسان..

أن يجيب ويستجيب..

ليس شرطا أن يذكر الاسم واللقب والوصف الدقيق..

المهم أن يشملك اللفظ العام الواسع الشامل المحيط..

وهذا تماما هو ما فعله الفضيل بن عياض الذي صدَّرت بقصته وطيـب ذكره..

وهذا تماما ما فعله ويفعله من يـدركون قيمـة النـداء الربـانى، ويعـون قدره، ويدخلون المجال..

هذا ما فعله الصحابة، حين سمعوا الآيـة التـي تفاعـل معهـا الفـضيل نفسها، فأنابوا وتفاعلوا، وعندها قال ابن مسعود: ما كان بين إسلامنا وبـين أن عاتبنا ربنا إلا أربع سنوات..

وكذا قال ابن عباس: «**استبطأ الله قلوب المؤمنين فعاتبهم**»..

وروى أنهم كان بعضهم يعزي بعضا، بعد استشعارهم لخطورة ذلك السؤال..

ألم يأن؟!

سؤال لابد له من جواب، وليس له إلا جواب واحد صحيح، يدركه كل قلب فصيح، ولا يستطيع عاقل لو فكر قليلا إلا أن يجيب ملك الملوك قائلا بالقول والعمل الصريح:

بلى يا قد آن قد آن..

فقط يحتاج أن يستشعر أن السؤال موجه إليه، وستأتى الإجابة بإذن الله..

هكذا استشعر المجيبون، فأجابوا واستجابوا..

حين سمع الصديق رضي الله عنه السؤال: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾..

أجاب من فوره: بلى والله يا رب نحب أن تغفر لنا..

ولما سمع أبو الدحداح أن الله يسأل: من ذا الذي يقرضه قرضا حسنا، ففورا أجاب، وأقرض الله بستانه البهيج..

ولما سمعت الجن سؤال الرحمن: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، أجابت من فورها: لا بشيء من آلائك نكذب،ربنا ولك الحمد، واستحسن النبي ﷺ لطيف الجواب..

ولما قال الله تعالى: فهل أنتم منتهون، بعد أن ذكر بشاعة الخمر والميسر، صاح المجيبون بأفعالهم قبل حروفهم: انتهينا يا رب، انتهينا يا رب..

وهكذا تفاعل العقلاء والأصفياء، مع نداءات الرحمن، وسؤالات القرآن..

تفاعلوا بالإجابة والاستجابة..

ما يزيد الموقف خطورة لو أن الداعى الذي له الحق والمقام الذي يمنحه استحقاق الإجابة، لا يدعوك لحاجته هو، بل لحاجتك أنت..

لا يدعوك ليأخذ منك، بل ليعطيك..

لا يناديك لفقره إليك، بل لافتقارك أنت..

ولله تعالى المثل الأعلى..

نعم الله ينادي

الله يدعو عباده..

يدعوك أنت، ويدعوني أنا، وهو الغني عنا، ونحن الفقراء إليه..

يدعوك ليغفر لك من ذنوبك..

يدعوك لدار السلام والجنة والمغفرة بإذنه..

يدعوك لما يحييك، ويناديك لما فيه خيرك..

كم امتلأ كتابه بالنداءات التي لم ترعها سمعك!

كم مرة سمعت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، و﴿ يَٰعِبَادِىَ ﴾!

نعم هو يناديك أنت..

أنت المنادَى، وهو المنادِي..

هل تأملت يوما، وتدبرت هذا المعنى الأثير؟؟

هل تدبر يوما من يعرض عن النداءات المتوالية، أن ملك الملوك ذا الجلال والإكرام والفضل والإنعام هو من يناديه؟!

كثير منا إلي الآن لم يضع نفسه في ذلك المقام..

ولربما لو تصور اسمه ولقبه يحل محل كلمات عمومات كقول الله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، أو و﴿عِبَادِىَ﴾ أو ﴿ٱلنَّاسُ﴾، فمؤكد أن الأمر سيختلف كثيرا..

لقد نودى أناس بأسمائهم، فتحولت حياتهم بالكلية، بعد تلك النداءات الربانية..

نودى موسى، ونودى عيسى، وآدم وزوجه ناداهما ربهما، ونودى إبراهيم، ونودى غيرهم من الأنبياء والمرسلين عليهم أزكى الصلوات وأتم التسليم هم ومن تبعهم من الأصفياء والصالحين..

نودوا ..

واستجابوا..

وهذا هو الطبيعي، ممن ينادى ويدعى ويُسأل..

أن يجيب ويستجيب..

﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾..

هكذا قال مولانا وخالقنا في سورة الشورى..

وهذا حقه علينا..

أن نستجيب، وأن نسارع، من قبل أن يأتى يوم لا ينفع فيه الندم..

ولقد تكرر هذا المعنى في كتاب الله العزيز..

كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ ﴾..

وكقوله -حكاية عن الجن بعد استماعهم لرسوله ﷺ-: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ ﴾..

فقضية الاستجابة لنداءات الله ولدعوته، من الأمور التي ينبغى للمسلم الحريص أن يقف معها طويلا متأملا..

لقد ذكر الله في السورة التي منها الآية المذكورة آنفا - سورة الشورى - نفسها، وفي غيرها، أن هناك من يسارع بالاستجابة، وهناك من يتثاقل بالإعراض والتغافل عن إجابة نداء الجليل..

فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾..

وقال: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾..

وقال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ ﴾..

وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾، وذلك في شأن من خرج مع النبي ﷺ بعد أحد، رغم ما أصابهم فيها من مصيبة وقرح، حتى كان منهم من يُحمل حملا، لشدة ما ألم به من جراحات وقرح، وذلك ليدركوا المشركين في حمراء الأسد..

هذا عن المستجيبين المسارعين الذين قدروا الموقف قدره، وعلموا قيمة النداء وأجابوه..

أما عن المعرضين فما أعظم مصيبتهم ..

﴿ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾..

ما أشبه هؤلاء بالموتى والصم

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾!

والعجيب أنهم يعرضون ويتعالون، رغم هوان شأنهم على من يناديهم ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾..

ولو سأل الُمعرِض نفسه لحظة؛ لماذا أعرض، ولمن التفت عن نداء الله..

لو سأل نفسه: **ألخير منه؟!!**

وهل هناك خير منه سبحانه؟!

ألشركاء متشاكسين، يتمزق بين دعواتهم؟

أم لدعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها ألقى معهم فيها؟

أم أجابوا شيطانا خسيسا يتبرأ ممن أجابه في النار قائلا: **وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم** ..

فاستجبتم لى!

ما أثقلها من كلمة، وما أشد وقعها على أسماع من أجابوا ذاك الرجيم!

من أعرضوا عن النداءات، وقتما كانت إجابتها سهلة ميسورة..

وقت أن كان مآلها سعادة ورضا..

قبل أن يأتي يوم التناد..

يوم ملىء بالنداءات أيضا..

لكنها نداءات من نوع آخر..

نداءات تخرج منهم، تنضح بالحسرة، ونداءات توجه إليهم، تقطر بالعزة..

وقتها يعرف المتغافلون عن نداءات الرحمن، فداحة ما اقترفوا من إعراض في الدنيا عن نداءات ملك الملوك..

حين سمعوا المنادى الذي كان ينادى للإيمان، فلم يقولوا آمنا، وحين أنصتوا لداعى النجاة، فلم يجيبوا..

حين استُنهِضوا فلم ينهضوا، واستُنفروا فلم ينفروا، وأدمنوا الإعراض، فوضعوا أصابعهم في آذانهم،واستغشوا ثيابهم، وأصروا واستكبروا استكبارا..

حينئذ يصطرخون فيها: **رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ**

الآن عرفتم معنى الإجابة، وفهمتم معنى اتباع الرسل؟!، أين كنتم من قبل وما عطلكم؟

﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾..

آلآن وقد جاءتكم النذر من قبل، فلم تعيروهم انتباها..

ما قيمة سماعكم الآن؟

فقد مضى الوقت وانقطع الزمان..

راح وقت الإجابة، وانقضى دون الاستجابة الأوان..

فلقد كان يُسأل من قبل: **أَلَمۡ يَأۡنِ** ؟

فما كان أيسر الجواب علي قوم أجابوا: بلى قد آن،

قد آن..

الآن.

❊ ❊ ❊

ولو بشبر ...

(٢٣)

و لو بشبر ... (٢٣)

«شبر النجاة، وختم الحياة، بسابقة الرعاية المرتجاة»

من بين يديه تسيل الدماء..

و على وجهه تظهر العلامات،

وفى قسماته تبدو الأمارات..

علامات الإجرام، وأمارات الطغيان..

ليس مجرما عاديا هو..

إنه سفاح باطش، لا يعرف إلا سفك الدماء، وإزهاق الأرواح..

يده إلى سلاحه أسبق من فكره ولسانه!

إنه يعالج بالسيف كل ما يشكل عليه، ويغير به كل ما يضايقه أو يعكر صفوه..

ها هو ذا، يقف بجسده الضخم، وملامحه التي قدت من صخر، وطلعته التي تقبض النفس، وتثير في القلب كوامن الخوف..

وجه مظلم وسمت تخيم عليه ظلال دماء..

دماء طالما أريقت بغير حق على يديه الغليظتين

وقف متحفزا متنمرا، أمام هذه الفريسة النحيلة، التي أوقعها نصيبها في طريقه..

الفريسة هذه المرة رجل بسيط زاهد، قُدر له أن يكون محلا لسؤال السفاح..

سؤال ما كان لمثله أن يجيبه..

ما له هو وللعلم!

إنه رجل عابد، بضاعته في العلم مزجاة، ورحاله في فيافيه وقفاره ضالة، ليست مرتجاة..

هلا سأل إن لم يعلم؟

هلا قال لا أعلم؟

لماذا تسرع فأجاب السؤال؟

أليس يلمح بناظريه قبضة السفاح؛ على قائم السيف، متحفزة بعد أن ألقى السؤال؟!

قد قتل نفسه المسكين..

وراحت هدرا تلك الدماء..

ها هوذا ينطق بالإجابة، فما إن تكتمل حروفها؛ حتى يطير السيف بسرعة البرق، مطيحا برأسه، وصدى كلماته يتناثر مع رذاذ الدماء المتفجر من عنقه:

ليس لك توبة..

مخلد في النار..

ما عاد ينفعك متاب..

لكن لحظة..

هل هذا يعقل؟؟!!

أنت أيها السفاح!!

عن التوبة تسأل؟؟

غريب أمرك..

إن دماء عشرات الضحايا التي أرقتها لم تبرد بعد، وها هو ذا آخرها يتناثر على وجهك، ويلوث شفرة سيفك..

وبعد كل هذا عن التوبة تسأل؟؟

عن الأوبة تبحث؟

أنت يا قاتل المائة نفس؟!

ارتعدت فرائص المارة، وهم يشهدون تلك الجريمة، دون أن يحرك أحدهم ساكنا..

نظـرات اللامبـالاة، ممزوجـة بـالخوف، تطـل مـن أعيـنهم، لتـصطدم بنظرات التحدى الممزوج بالحيرة، والتي أطلت من عينى السفاح..

يا لكم من قوم سوء..

ألا تمنعون المجرم؟

ألا تصدونه عن ظلمه؟

أتشهدون جريمة قتل مكتملة الأركان، دون أن تفعلوا شيئا!

يا لسلبيتكم وخوركم!

و الله إنكم من شجعتم الظالم على أن يظلم، بتخاذلكم وانكماشكم عـن الأخذ على يديه..

حقا إنكم لقوم سوء، وإن أرضكم لأرض شر..

- **دلونى على أعلم أهل الأرض..**

دوى صوت السفاح هادرا كهزيم الرعد، يهز أرجاء المدينة، ويزيد مـن ارتجاف المرتجفين، وترويع المارين بساحة مسرح الجريمة المريع.

سفاح يبحث عن توبة!

ما أعجب أمرك يا السفاح!!

لله في خلقه شئون.

سارع القوم يجيبون نداء المتجبر خشية بطشه..

لكنهم هذه المرة أصابوا..

لقد دلوه على من فضله على الأول كفضل القمر على سائر النجوم..

دلوه على أحد الموقعين عن رب العالمين..

دلوه على وعاء للعلم وخزانة حية للذكر..

لقد دلوه على عالم.

مالك تهرع إليه مسرعا أيها السفاح؟!

لكأنك حقا راغب في التوبة، مريد للاستقامة يا سفاح!

لم تضيع وقتا، سارعت بهمة، وطرقت الباب!

ما أعجب أمرك يا سفاح!

أطل الشيخ، من خلف الباب..

سيما العلماء على وجهه، قد أشرق نور الأذكار.

بصوت وقور لم يبد عليه أى تأثر بسمت الإجرام الذي يقف أمامه قال الشيخ: أي ولدي ما تبغي؟

عجبا للشيخ؛ أما تدري؟!

يجيب الضيف: «**إني قتلت مائة نفس فهل لي من توبة**»؟

بصوت أجش غليظ قالها السفاح!

لكن.. في غلظة الصوت.. كانت: نبرة غريبة!

وتسلل حزن، بين ثنايا الكلم، يخترق القسوة..

عجيب حقا هذا البريق

أو قد سالت دمعة!

ربما لا يلحظها لدقتها من ينظر من بعيد، لكنها، والنبرة، لم تكن لتغيب عن فراسة عالم من أهل الخبرة..

يبدو أن شيئا ما قد تحرك في قلب السفاح..

يبدو أنه فعلا شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا، وأراد حقا أن يستقيم..

فلتخرج إجابة العالم هذه المرة صائبة، فاتحة للأمل الأبواب، ولتشح بفأس الرجاء جذوع قنوط، كانت في قلب السفاح قد سكنت!

وليضئ نور العلم، جنبات نفس إلى الخلاص قد تاقت، ولتطهر كلماتك أيها العالم نجس موبقات طالما دنست الفؤاد، ولوثت طهر النفس، وسودت بياض القلب

يا لها من لحظة، ومن حالة، ومن مجال، ويا له من شعور؛ راحة تغمر قلب السفاح..

ما أعظم صرخة قلب ملهوف لمغفرة رب سميع قريب ودود رحيم رحمن.

يا الله!

ما أحلاها من كلمات!

قلها، رددها ن مرات أخرى!

أسمعنى..

أشجنى، أطرب روحى برحمات كلماتك، بوقع تغلغلها، تتسرب.. بعميق النفس!

ماذا تقول يا سيدي؟!

هل حق ما منك أسمع؟!!

أفتسأل عن حائل بيني وبين توبة أطلبها، حقا تسأل؟!

حقا حقا؟

صدقا صدقا؟!

لا تجد بعلمك ما يمنع؟!!

ليس لأحد، ليس لعبد، سد الباب الأوسع؟!

وغدراتى، وفجراتي؛ بها كيف أصنع؟!

انتظر

أيها التائب

أمسك عن فرحتك هنيهة فإن العالم لم يكمل فتواه بعد

استمع وأنصت

- **اخرج من القرية** الخبيثة التي أنت فيها، إلى القرية الصالحة قرية كذا وكذا، فإن بها أناسا يعبدون الله، فاعبد ربك معهم فيها، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء..
- **بلى أفعل**

صاح التائب ردا

حقا صدق العالم، أرض السوء، أهل المنكر..

لم ينهوني يوما عن فحش أو أسمع منهم نصحا..

لم أجد فيهم من يرشدنى إلى سبيل الله..

لم أجد فيهم صحبة صالحة تعيننى على القيام بأمره..

فقط وجدت انبطاحا وارتجافا، زادني طغيانا وغدرا، ولكأني بحالهم كحال قوم استخفهم طغاتهم فأطاعوهم، وإن قوما يفعلون ذلك لهم حقا قوم سوء فاسقون..

لست أدري كيف أشكر لك صنيعك شيخي..

لقد نقلتنى من حال إلى حال، وانتشلت قلبى من غيابات اليأس، لترفعنى إلى ثريات الأمل..

ويكأنى صرت شخصا آخر!

شخصا مختلفا..

حان الوقت لأن أنطلق، فالقلب يهفو لواحة الأمل التي عليها دللتنى، والنفس تشتاق لسبيل المؤمنين التي إليها أرشدتنى، وكفى من العمر ما فات، فلأعوض فيما هو آت..

قال هذه الكلمات، وهو لا يدرى أنه لم يتبق كثير فيما هو آت!

لم يتبق إلا سويعات!!

لم يضيع منها لحظات..

ما أثمن تلك الساعات الفارقة!

ساعات التوجه للفاطر الأول، حيث يمم جوارحه شطر بلاد الصالحين..

لم ينظر التائب خلفه..

لم يثقله إخلاد إلى الأرض..

لقد تحرر من أثقال القرية الظالمة، ومضى سائرا بعزم النادم الصادق، قاصدا طريق المتقين..

لقد شاء هذا التائه أن يستقيم..

لقد شاء أن يتبع سبيل المؤمنين..

و هنا مربط الفرس ومناط التغيير..

أن يختار المرء طريقه..

وأن يسلكه..

هذا الرجل الذي كان منذ سويعات أو أيام قاتلا سفاكا للدماء، صار بهذا القرار، وذاك الاختيار، عبدا يحرك الله لأجله الأرض فيطويها!

الرجل الذي كان أبعد ما يكون، صار بخطوة تقرب بها شبرا أقرب ما يكون!

يا لهول المفاجأة؛ لقد.. مات!

مات الرجل!

مات التائب في طريقه إلي هناك!!

قضى نحبه ولم يكن قد وصل بعد إلى مبتغاه..

لكنه يمم وجهه شطر غايته، واتخذ إلى ربه سبيلا..

ها هوذا الوجه ميمم، والصدر ينأى ناحية الأرض الصالحة، وكأنه عرف الموت فآثر السعي، ورغب بسرعة في الوصول إلي المقام المأمول!

أصر أن يحاول حتى آخر نفس يلفظه الصدر المحتضر!

وعلي الفور، سارعت إليه ملائكة العذاب، وقد ظنت أنها الأولى به، فهو معلوم لديها، وهو البعيد المشتهر بأنه لم يعمل خيرا قط، لتواجهها ملائكة الرحمة، وقد علمت أنه تاب، واتخذ القرار، وسلك طريق الأبرار، وهذا يجُب ما قبله!

لكن الوضع صعب؛ إنه قاتل المائة نفس، والنزاع على روحه بين الملائكة يشتد، وإبليس يقف ويشاهد ويتدخل في الجدال من آن إلى آخر، قائلا في رغبة حقيرة: «**أنا أولى به، إنه لم يعصني ساعة قط**»!

لابد من حكم يفصل بين الجميع..

فليختصموا إلى هذا الآدمي - الذي هو ليس بآدمي - وليرضوا بحكمه،

ما أخصر قضائه، وما أحسم حكمه..

- **قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو لها!**

فليكن إذاً..

نِعم الحكم هو..

فليبدأ القياس..

و لتبدأ المعجزة..

الحقيقة أن الرجل لم يكن قد قطع مسافة كافية بعد..

لكنه كان صادق الرغبة، مخلص المشيئة..

و لقد أراده مولاه!

نعم أراده وهو القائل: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾..

الله يريد، والعبد صدق ربه؛

واقترب،

نأى بصدره،

يمم وجهه..

واقترب..

والرحمة سبقت،

فلتتغير النواميس ولتُطوَ الأرض أو تُسَيَّر أو حتى تُقَطَّع

فالرحمة سبقت!

ولتعل الروح إلي بلاد الأفراح!

لقد أوحى الله إلى أرض الصالحين أن تقاربي، وأوحى إلى الأخرى أن تباعدي

ولقد قاسوا المسافة فوجدوه إلى الأرض التي أراد أدنى بشبر..

شبر واحد

فقط شبر!!

ياللعجب!

شبر واحد أحدث فرقا!

شبر واحد؟!

لكنه ليس أى شبر

إنه شبر للأرض الطيبة والبيئة الصالحة..

لقد غُفر للرجل على ما كان منه، وقبضته ملائكة الرحمة، بفارق شبر!

هو الذي طالما قطع أميالا في المعاصى والموبقات أنقذه شبر!!

ما أرحمك يا الله!

الحقيقة أن القيمة ليست في الشبر..

ولكن في القرار الفصل..

و هذا هو الفارق، بين من يصطلح بين الناس على تسميته ملتزما، أو مستقيما، وبين غيره..

فالأول شاء، ثم قرر

ثم سلك وصدق..

قال ربى الله، ثم استقام..

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٣٠﴾ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾..

هذا هو معيار التغيير، ومناط النجاة:

أن يشاء المرء، ثم يسلك،

فيستقيم على الطريق..

ويقترب..

يقترب ...

ولو بشبر!!

لست بقاتلي
(٢٤)

لست بقاتلي (٢٤)

«فطنة وربانية وإحسان، في مواجهة غباء شيطاني وطغيان! ليت شعري، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان»

بخطوات حائرة سار على الطريق..

تكاد نفسه تنشطر من شدة ما يلاقى..

يا لها من حيرة لم يشهد مثلها خلال عمره القصير..

أتراها قد انشطرت بالفعل، فصارت نفسين وليست نفسا واحدة؟!

نفسٌ منها منبهرة مشدوهة بأبهة الدنيا، وزينة القصر، ومكانته من معلمه الذي لم يبخل عليه بعلمه المثير، والذي سيضع بين يديه قريبا قوة خارقة وتصرفا نافذا، ليس يجرؤ أي من أقرانه لأن يحلم بمثلها..

أما النفس الثانية فتميل إلى ذلك الشيخ الطيب الوقور، تألفه الروح، ويجذبها حديثه الرقراق..

حديث عذب منطقي يسكبه الشيخ مباشرة على قلبه اليافع كلما مرَّ عليه في صومعته النائية، بينما هو في طريقه إلى قصر معلمه..

صراع رهيب يدور بين النفسين..

أو بين الشطرين!

صراع بين القوة المادية السوداء، التي يكشف له معلمه أبعادها تدريجيا، وبين غيبيات ذلك العالم الروحى النقى، التي يطوف به شيخه بين ربوعها..

أفكار تتلاطم، وخواطر تتزاحم، في جنبات نفسه، وتنهمر على ثنايا فؤاده بينما يسير في الطريق..

الحقيقة أن شطر الشيخ يتعاظم داخله، رغم قلة بهرجه، وندرة زخرفه..

إنه حقا لصراع وليس مجرد سجال في ميدان الوجدان..

إنه لا يستطيع أن ينكر أن فطرته أميل لكلام الشيخ الذي يفيض رقة وعذوبة وإقناعا..

لكن التحدى صعب، والفتنة شديدة.. ولولا تلك الألاعيب الباهرة، والقوة الخارقة التي أطلعه معلمه على شيء من أسرارها؛ لما وجد في نفسه أدنى تردد، ولانتهى هذا الصراع، ولوئدت تلك الفتنة منذ زمن طويل، فكلام الشيخ كفلق الصبح أبلج..

لكنها الفتنة، وإنه الاختبار..

قوة المادة، أم نقاء الروح؟

زينة العاجلة، أم سعة الآخرة؟

أبهة القصر، أم شظف الصومعة؟

خيار حاد وفاصل، ربما لا يتعرض لمثل مفاصلته كثير من الخلق..

لكن عليه أن يختار، فما عاد يتحمل تلك الحيرة..

انترعته من أفكاره أصوات جلبة، تنامت في مسامعه من بعيد..

ما هذا التزاحم الذي يبدو على الطريق؟!

يا لرب الراهب!!

إنها لدابة ضخمة، لم ير قط مثلها؛ قد استقرت في مكانها بعرض الطريق تسد على الناس سبيلهم، ويمنعهم خلقها العظيم من المرور..

ألم تجد تلك الدابة إلا هذا الطريق الضيق، الذي تحده من ناحية هاوية سحيقة، ومن الأخرى جبل أشم؟!

ويكأنها تقصد تعطيله عن معلمه، ليضطر مرة أخرى إلي اختلاق معاذير التبرير التي سيعلل بها معتاد التأخير..

ما لهولاء الناس يسارعون إليه؛ كأنما وجدوا بغيتهم، وجاءهم الفرج الأكيد؟!

ويحهم.. أيظنون أن مثله له قِبَلٌ بمثل هذا المخلوق العجيب؟

إن معلمه الساحر لم يبلغ معه بعد هذا المبلغ، بل ربما لا يقوى الساحر نفسه، علي صرف مثل ذلك الكائن الضخم العجيب..

الحقيقة المرة التي لا يدركها هؤلاء البسطاء المساكين، أن قوة معلمه هى في الأصل قوة تأثيرية خيالية؛ تسحر أعين الناس وتسترهبهم، ولا قبل لها بمثل هذا التحدى الواقعي العنيد..

أما هو فيدرك جيدا حقيقة تلك القوة الوهمية السوداء، التي ينخدع بها هؤلاء..

لكن..

لحظة!!

انتظروا..

داهمت الفكرة ذهنه..

لماذا لا يستغل هذا الموقف ليعلم الحقيقة عارية بلا خداع؟!

لماذا لا تكون هذه هى اللحظة التي ينهي فيها هذا الصراع الذي يضطرم في صدره، وتتلاطم أمواجه كالبحر الهادر في جنبات نفسه؟

إن شيخه الراهب قد أخبره أن ربه الذي يعبده قادر مقتدر، ليس يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فإذا قضى أمرا فإنه فقط يكفى أن يقول له كن، فيكون من فوره..

فلتكن هذه هى إذاً لحظته الفارقة، وليعلمن اليوم أي الأمرين أحق، وأي السبيلين أهدى..

تقدم الغلام يخترق الصفوف، الكل يفسح له، بينما تتعالى من حوله الهمهمات، مؤملة في غلام الساحر خيرا، يفرج كربتهم، وييسر أمرهم عن قريب..

ها هو ينحنى ليلتقط حجرا من على الأرض، ربما لا يؤذى دابة لها معشار حجم تلك الهائلة الكوماء..

لكن ماذا عساه يفعل الحجر يا غلام، قد ألقينا عليها صخورا، ونكزناها بجذوع الشجر، فتمنعت وأبت إلا البقاء؟!

تعالت من حوله الهمسات متعجبة، وهو يسير ثابت الخطوات، غير آبه بانطباعاتهم ولا بتحفظاتهم..

ماذا تقول أيها الغلام؟

لعلها تعاويذ، عَلَمَك إياها معلمك العتيد..

ومن تدعو؛ أهى شياطينكم أيها السحرة المشعوذون؟

- **اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر، فاقتل هذه الدابة، حتى يمضي الناس..**

اللهم؟؟!!

من عساه أن يكون ربك الذي تدعوه بـ «اللهم» أيها الغلام؟

من عساه أن يكون إلهك أيها الساحر الصغير؟!

أو ليس الملك الذي تعد لتكون خادمه، وتسخر سحرك لخدمة مملكته؟

و هل يسمعك مليكك الآن؟

يا لك من مسكين! يبدو أنك لم تتعلم من ساحرنا العتيد..

ماذا؟؟

غير معقول...

حدث جلل قطع عليهم حبل جدالهم العقيم؛ أنه حقا لشيء غريب..

سقط الحجر على الدابة كأنما هو قذيفة ملتهبة، أو صاعقة قتلتها في لحظة، فأردتها ميتة، وانقلبت تتدحرج إلى سفح الهاوية، ليرتج المكان بسقوطها المروع..

ما أعجب أمرك يا غلام!

كيف فعلتها؟!

لم يفعلها الغلام..

إنما فعلها رب الغلام..

هكذا فليصدع الغلام، الذي حسم الأمر في نفسه، قبل أن يبدو عيانا، علي أرض الواقع المشهود..

لقد انتهى الصراع، والتأم انشطار النفس، فعادت نفس واحدة متجانسة من جديد، ولقد ظهر له الحق الأبلج سافرا كنور الصباح..

إن أمر الراهب هو الصواب، وإن ربه هو الإله الحق عظيم الجناب..

ما عاد هناك مجال لكتمان الأمر، وإلا فسوف أتحمل إثم الجميع..

فليصدع الغلام، ولينتقل من منزلة العلم بالحق، لمنزلة تحمُّل الحق وحسن الأداء..

- **أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ اليَومَ أفْضَل منِّي قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى..**

كانت هذه هي أولى الكلمات التي قالها الراهب لتلميذه النجيب بعد ذلك الحدث الرهيب..

لكن: أفضل منك!

كيف وأنت الأصل.؟!

أنت من دللته على الحق، وعلمته إياه، وهديته سبله بإذن الله..

فكيف يفوق الفرع الأصل في صحيح العقول؟!

ألأنه حول العلم إلى عمل، وانتقل من درجة عارف بالحق، إلى منزلة حامل الحق، المتحمل لمسئولية الشأن العظيم؟

أم لأنك لمست في تلك الكرامة التي سيقت له شأنا عظيما يُعد لذاك الغلام؟

ما أكثر من يعلمون الحق، لكن قليلا منهم من يتحمل مسئوليته، ويحمله على عاتقه، ويتجشم في سبيله المشقة والعناء والجهاد..

و لقد فعل الغلام..

لم يلحق بالراهب في صومعته، ولا خرج ليبنى لنفسه مثلها..

لقد اختار سبيل المواجهة، وآثر الصدع بالحق، واستلذ سماع صوت تصديع جدار الباطل الغليظ..

من اليوم سيكون من أحسن الناس قولا..

و من أحسن قولا ممن دعى إلى الله؟!

هذا الدعاء المستجاب الذي رُزقه ذلك الغلام، سيُسَّخر من الآن فصاعدا للدعوة إلى الله..

كل من سيشفيه الله برقاه، ويشهد إجابة دعائه من مولاه، سيؤخذ بيده إلى هداه..

سيدل على الله كل أكمه وأبرص وأعمى، يأتيه ليطلب دعاءه، بعد أن ذاع صيته، واشتهر أمره،

سيدلهم جميعا على الله ويأخذ بأيديهم إلى رحاب مولاه..

سيدعوهم علي بصيرة وكرامة إلى الله..

و سيجيبون بإذن الله..

حتى جليس الملك وصاحبه المقرب، قد جعل الله الغلام سببا في شفائه من العمى، فآمن بإذن الله..

لكن تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن..

لقد قالها الراهب، حينما علم جهره وصدعه بأمر الله..

إنك ستبتلى..

و هل جاء أحد بمثل هذا الحق إلا ابتلى؟!

لقد كنت تعلم ما ينتظرك أيها الغلام..

ورغم ذلك أقدمت وصدعت، فلله درك من غلام أتعب من بعده صناديد الرجال..

ها هم جنود الطاغية قد حضروا..

إن جليس الملك لم يستطع أن يكتم بشاشة الإيمان التي خالطت قلبه، فما لبثت أن ظهرت على لسانه، ليعلم الملك الظالم مدعي الربوبية، أن لجليسه ربا سواه!

إنه ليس ناقما على جليس الملك أن دلهم عليه، فلقد لاقى من العذاب ما لا قبل لبشر بتحمله..

حتى هو نفسه لم يستطع تحمل ألوان العذاب الذي ساموه إياه، بعد أن أخذه الجند إلى الطاغية..

إنه في النهاية غلام..

صبي يافع يمتلئ قلبه باليقين، لكن لسانه أفلت منه، لما ذاق من مرار القهر وصنوف الاستضعاف والآلام

عندها عرف الظالم أين منبع هذا الإيمان العميق،

إنه الراهب فلان..

ذلك الشيخ الطاعن في السن الذي غادرهم منذ زمن بعيد، ونأى بنفسه عن مخالطتهم..

هو من وراء كل ذلك!!

صاح الطاغية، والشرر يتطاير من عينيه:

- ائتونى به أيها الجنود..

هاتوه فورا أيها العبيد..

لم تمض ساعات حتى كان الراهب يدفع دفعا إلى بلاط الطاغوت، حتى ألقوا به تحت قدميه، موثقا بالأصفاد..

أما وقد آن أوان الابتلاء، وحانت لحظة ارتقاء الإيمان؛ فلتثبت إذن أيها الراهب، والله المستعان..

- **ارجع عن دينك..**

هكذا ارتج البلاط بصيحة الظالم، يراود الشيخ عن دينه..

تبسم الشيخ ابتسامة أضعفها السن، وأضناها الأذى..

لن يريحه أبدا بكلمة، ولو مترخصا..

لن يكون الشيخ أقل من تلميذه، وقد حانت المفاصلة..

لم يعد يهاب شيئا، قد زالت من قلبه كل أثار الخوف، حتى ما كان منه جبليا..

لقد هانوا عليه، وهانت عليه دنياهم..

هل تظنون أن يخيفه ذلكم المنشار؟

هل تظنون أن يثنيه ملمسه البارد، ويفتنه شعاعه اللامع بارقا، وهو يوضع على مفرق رأسه؟

واهمون أنتم!

فلتستشط أكثر أيها الملك المنتقم، فها هو خصمك ثابت مبتسم..

فلترتجف غضبا بينما ترقب شقيه على جانبي المنشار يتهاويان، دون أن يعطيك ما به تقر عينك، وتطمئن نفسك الآثمة..

و ليزدد جنونك حين يتكرر المشهد نفسه مع صديقك، دون أن يعطيك شيئا يرضيك من جواب..

- **ائتونى بالغلام..**

بجنون مستعرٍ صاح الطاغوت

ماذا عساك أن تفعل ثانية بالغلام؟!

إنه لم يهبك حين هابك الناس، ولم يلق لك بالا حين قدسك الناس..

هل ستنشره بالمناشير هو الآخر؟

كيف وقد ذاع صيته، وعلا ذكره بين الأنام؟!

فلتكن ميتته إذا كحادث غير مقصود، حتى لا تؤلب الخلق عليك، فالشاب له شعبية، ومن تم شفاؤهم على يديه كُثُر لا تأمن ثورتهم ولا تستهن بغضبتهم، ولتق نفسك شر القلاقل أيها الملك

وما يدريك لعلك إذا أطلت التهديد، وجعلت القتلة بطيئة، ارتـد عـن دينه، وعاد إلي عبادتك من جديد..

صاح الطاغية بعد أن قلب الأمر في رأسه:

- حسنا إذا اذهبوا به إلى جبل كذا وكـذا. فاصـعدوا بـه الجبـل. فإذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه.

اللهم اكفنيهم بما شئت..

كانت هذه الكلمات القليلة عددا، والعظيمة قدرا، هى ما كل ما يملكـه الغلام، في مواجهة مكرهم العظيم..

لم يكن الأجل بعد قد حان، ما زال هناك متسع من الزمان..

لقد بلغت الدعوة عنان السماء، وسمعها مـن لا يـصيبه ضر ولا فنـاء، فكفاه بما شاء وكيف شاء..

هاهم جند الطاغوت يتساقطون من حولـه، وصـخور الجبـل الـراسي تتزلزل من تحت أقدامهم، بينما قدماه أثبت من شُم الجبال!

لقد زال الخطر..

فلتنج بنفسك أيها الغلام..

لكن.. لحظة

إلى أين تذهب؟!

علام تقتل نفسك، وما الذي يرجعك مرة أخرى إلى حتفك، لن يفلتك الطاغية من جديد..

نعم نعم..

قد نسيت..

إنها الرسالة..

لن تترك رسالتك، مهما كانت مصيبتك..

ومهما كان حجم الفداء..

روحك فدى التوحيد، فدى دين العزيز الحميد..

لقد صرت حامل حق، وصاحب رسالة، وصاحب الرسالة لا يولي الدبر ساعة النزال..

وإنها الدعوة..

ولئن يهلك الداعى ويؤمن الناس، خير له من أن يعيش آمنا، ويموتوا هم على كفرهم، ولو بعد حين.

فلتعد إذاً يا حامل الحق، وليحاول الطاغي مرة أخرى أن يهلكك، وإنه لعاجز، حتى يأذن ويقدر الله العزيز الحكيم..

أشهر سلاحك الماضي، وقل من جديد: **اكفنيهم بما شئت يا الله**، وستراهم يتساقطون من حولك، ويطويهم اليم عنك..

فلترجع مرة أخرى؛ أنت صاحب رسالة، أنت حامل حق..

جحظت عينا الملك ذهولا، وهو يرى الغلام يلج القصر بخطى واثقة، وقد ارتفعت رأسه بعزة الإيمان، واستنار وجهه بنور اليقين..

صاح مشدوها: ما فعل أصحابك؟

أين الحرس والجند، كيف أتيت وحدك ثانية؟!

رد الغلام بثقة ويقين: كفانيهم الله..

عندئذ اسودت الدنيا أمام ناظري الطاغية..

لقد أسقط في يديه..

ماذا يفعل؟

إن هيبته تضيع..

لم يعد الأمر يُحتمل..

لابد وبسرعة من قتل الغلام..

الناس يتناقلون قصص الغلام كالأساطير، وما هي إلا أيام حتى يجترئوا عليه وعلى ملكه، بعد أن يكفروا بعبادته، ويهون عليهم سحر ساحره، وبطش جنده، كما هان من قبل على الغلام..

لابد من حل..

ما من مشير..

افعل شيئا أيها الساحر..

دلوني يا خاصتي، أشيروا علي يا بطانتي..

ماذا عساي أن أفعل؟!

لم تمض هنيهة حتى جاءه الحل..

و من آخر مصدر كان يتوقعه..

لقد خرج الحل من فم الغلام نفسه قائلا: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به.

قال الملك مندهشا مما يحدث: وما هو؟

رد الغلام ضاربا مثلا لأروع معاني الإقدام والفداء فقال: تجمع الناس في صعيد واحد. وتصلبني على جذع. ثم خذ سهما من كنانتي. ثم ضع السهم في كبد القوس. ثم قل: باسم الله، رب الغلام. ثم ارمني. فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني.

لله درك من مقدام!

تدلهم على طريق الخلاص منك!

تهلك نفسك!

ستفارق الدنيا شابا يافعا، لم تأخذ منها حظك بعد..

بمباهجها ومتاعها لم تزل بعد أمامك..

كيف زهدت في كل هذا؟

كيف واجهت خوفك البشرى؟!

هل الرسالة وحمل الحق يفعلان ذلك بالمرء..

كيف تضحى بنفسك، وتجود بها بسخاء هكذا؟!

لكنها ليست تضحية مجانية

إن المتأمل في سلوكك، يدرك بعد نظرك، وعلو ثمن فدائك..

لقد اشترطت شرطا لو أن هذا الأحمق فكر هنيهة، بعد ما رأى من كراماتك، وحفظ الله لك، لما قبله أبدا..

لكنه الغضب حين يعمى الأبصار، والكبر حين يطمس البصائر..

هيا أيها الملك الغبى أطع الغلام، واكتب الأسطر الأخيرة في رواية تألهك، وتعبيد الناس لك..

هيا يا ناقص العقل، مهد الطريق لأمة كاملة تكفر بعبادتك، وتوحد الله رب الغلام..

مالي أراك تضحك ملء فيك، وأنت ترقب سقوطه بين يديك، مضرجا في الدماء..

يا لك من أحمق، ناقص العقل!

لست تدرك ما فعلت، لست تفقه أثر ما اقترفت..

حقا قد قتلت الغلام، لكنك قتلت معه وبسهمه أسطورتك ودمرت بقوسه خرافة ألوهيتك..

ألا تسمع يا ضعيف العقل صيحات شعبك تهدر من حولك، وتجأر بكلمة التوحيد؟!

ليس توحيدك طبعا أيها السفيه..

اسمع جيدا، واملأ بها أذنيك:

آمنا برب الغلام..

آمنا برب الغلام..

آمنا برب الغلام..

ما رأيك؟

ها قد نزل بك **ما كنت تحذر،**

قد آمن الناس برب الغلام، وكفروا بك وبكل طاغوت..

- لن يكون..

إما أن يحيوا عبيدا لى، وإما أن يلحقوا بالغلام..

صرخ الملك المسعور بتلك الصيحات المجنونة، وأقدم على آخر حصون الضعفاء..

إنه القمع..

إنه البطش والقتل والإيلام

حيلة من لا حيلة له، وسبيل الواهن الضعيف، مهلهل الحجة والبرهان..

ديدن الطواغيت في كل زمان ومكان..

ماذا ستفعل أيها المجنون؟

هل ستحرق شعبا بأكمله؟

هل ستقدم على إبادة أمة؟!!

يا لدمويتكم أيها الطواغيت!

افعل ما بدا لك أيها الجبار في الأرض، فما أسرع دوران عجلة الزمان وجهز جوابا لسؤال الملك الديان..

فلتأمر بالأخدود في أفواه السكك، ولتحفر الخنادق في الطرقات، ولتضرم فيها النيران..

ولتخير الناس ما بين نارك ونار الآخرة، ولتعلمن معنى الثبات منهم أيها الخوار الجبان..

لتعلمن معنى الثبات من الطفل يحض أمه على اقتحام النيران..

حين يراها تتردد وتتلكأ، اثبتي يا أماه فإنك علي الحق وإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الملك الديان؛ يحضها الصغيرعلي إيثار برد وسلام الجنان ..

ذلك الذي ينتظرهم بعد اجتياز الامتحان، وأنت يا ساذج تظن أنهما يألمان..

والله ما يجدون جميعا من نيرانك إلا كمس القرصة، ولتعرفن أنت معنى حقيقي النيران

نيران لا تمثل منها نارك ونار أمثالك من الطواغيت جزءاً من مائة جزء، كما أخبر الصادق العدنان..

النيران وعدها الله أمثالك من فاتني المؤمنين والمؤمنات قائلا: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾..

وإلى هذا الحين فلتحي أنت كالموتى، وليحيوا هم عند ربهم يرزقون، وقد كانوا من قبل أمواتا مثلك، لولا أن أحياهم الله بتلك الهمة..

همة حامل الحق، وصاحب الرسالة..

ورُبَّ هِمَّة أحيا الله بها أُمَّة.

❊ ❊ ❊

واحات الألم

(٢٥)

واحات الألم (٢٥)

«بين واحات الألم والصبر الجميل، وثمرات الأمل والرضا عن الرب الجليل»

- **واللهِ لقدْ أذنبَ صاحبك ذنبًا ما أذنبَهُ أحدٌ مِنَ العالمينَ..**

دوت تلك الجَملة في أذن الرجل، بينما يسير في طرقات المدينة مع رفيقه..

التفت إليه في دهشة، وصاح فيه مستنكرا: وما ذاك؟

قال ذلك، وعيناه الغاضبتان تتابعان حديثه الزاجر..

- ماذا تقول؟

ألا تعلم عمن تتكلم؟!

كيف تجرؤ على اتهام ذلك الرجل الذي ما عرفنا أتقى ولا أصلح منه قط؟!

تفكر صاحبه هنيهة، واسترجع سمت الرجل الذي اتهمه منذ قليل..

تذكر مواقفه التي طالما انبهر فيها بورعه وزهده وتقواه..

تذكر تعظيمه لحرمات ربه، وكيف كـان أكثـر النـاس إعـلاءً لكلماتـه، ورعاية لأيمانه..

تذكر صبره، وما أدراك كيف كان مداه..

صبر ربما لم تعرف البشرية مثله قط..

صبر سيصير بعد ذلك مضربا للأمثال، حتـى إذا مـا ذكـر الـصبر ذكـر صاحبهما..

إن له سنوات طويلة وهو ينتقل من ابتلاء إلى آخر..

ابتلاءات تجتمع عليه في كل سكنة في حياته..

فى ماله..

وفى عياله..

فى نفسه، وفي بدنه..

فى أهله وأحبابه وأصحابه..

الكل تخلى عنه إلا زوجه الوفية..

الكل هجره وقلاه..

تركوه في ذلك المكان الموحش، بضاحية من ضواحى المدينـة، لا قـوت له ولا دواء، إلا كسرات خبز، تحملها إليه امرأتـه الوفيـة، بعـد يـوم شـاق، تستغرقه خدمتها لنساء المدينة..

العجيب أنه لم ينشأ على هـذا الحـال، ولم يعـش عمـره في هـذا البـؤس ليقول قائل إنه معتاد عليه..

إنه رجل من شرفاء قومه، كان له من المال والولد والمقام بين الناس مـا يتحاكى به الخلق..

حتى جاء البلاء..

و فقد كل شيء..

زال كل شيء..

ذهب المال، وهلك النسل، ورحلت الصحة، حتى لم يبق في بدنه مغـرز إبرة لم يباشره المرض، ولم يوهنه السقم..

إلا قلبه الشاكر، ولسانه الذاكر..

إلا يقينه بربه، وجميل ظنه..

ومع رجل مثل هذا كفى بها نعما..

لقد صبر أعواما ثقيلة، قد تمر على غيره كأنها هى قرون..

لم يسخط قط..

ولم يشتك لمخلوق أبدا..

بل العجيب أنه وهو يـرزح تحـت وطـأة ذاك الـبلاء العظـيم، لم يـشعر بفداحته كما شعر بها من عاين حاله من الخارج..

ربما لأن جنته وبستانه وقرة عينه، ليست هي في متاع حوله..

ربما لأنه لا يجد لذته إلا في مناجاة ربه..

ربما لأن صدره يضم بين ربوع أضلعه قلبا ذاكرا يستضيء بشموس الحمد والثناء وحسن الظن بمولاه، وتسرى أنواره لتضيء جنبات نفسه العليلة، فتخفف عنها وطأة ما تكابده من شدة البلاء..

ربما لأن لسانه الشاكر لم ينفك لحظة عن ترجمة تلك المشاعر النورانية، إلى نسائم ذكر رطبت حلقه الذي يبسته الأسقام، وعقدت ريقه الأوجاع، وشقق أنسجته المرض!

ربما..

ربما كل ذلك..

لكن المهم أنه صبر..

و ليس أى صبر..

إنه صبر أيوب..

إنه صبر يعجب له الصبر ذاته!

تذكر الرجل كل ذلك، وهو يقلب في ذهنه فكرته العجيبة، والتي ألقاها منذ قليل..

هل يعقل أن يكون ما قلته منذ قليل صحيحا؟

هل مثل هذا العابد يقال عنه ذلك.

تردد الرجل وهو يهم بالإجابة على تساؤلات صاحبه..

لكنه أكمل طرح فكرته الحمقاء، بأحرف مهتزة، وكلمات متثاقلة، تصارع أفكاره، وتنازع لسانه، فيخرج بعضا ويمسك بعضا..

- ألا ترى ما هو فيه من البلاء؟
- هل رأيت أحدا أشد منه بلاء؟!
- لماذا لا يخفف عنه ربه؟
- منذ ثمانِيِ عشرةَ سنةً لمْ يرحمْهُ اللهُ تَعالى فيكشفَ ما بِهِ!
- لو كان الله قد علم من أيوب خيراً ما ابتلاه..
- لا أرى إلا أنه أحدث ذنبا عظيما و.... و.....و...... (لا يكاد ينطقها وإنها لثقيلة على لسانه أن يتلفظ بها)

و..... وها هو ذا عقاب مولاه..

حسبك يا مسكين!

يا لجهلك بسنن ربك!

ألا تبا لسوء ظنك!

أما علمت أن الأنبياء أشد الناس بلاءً، ثم الأمثل فالأمثل؟

أما علمت أن البلاء رفعة في الدرجات، إذا ما صبر العبد واحتسب؟

إن من تتكلم عنه هذا إنما هو نبى مكلم..

وما يدريك لعل ذلك أن يكون نموذجا عمليا للتحمل والصبر وإحسان الظن، يضربه المولى جل وعلا ليتذكره كل مبتلى؟!

حقا ما أجهلك..

هذا نبى الله أيوب سلامٌ عليه..

هلم بنا إليه فلنتبين منه، ولننهل من حكمته، ولنسأله عن زعمك المجحف الشنيع..

- **لا أَدري ما تقولُ، غيرَ أنَّ اللهَ يعلمُ أنِّي كنتُ أمرُّ على الرجلينِ يتنازعانِ فيذكرانِ اللهَ، فأرجعُ إلى بيتِي فأكفرُ عنهُما كراهيةَ أنْ يذكرَ اللهُ إلا في حقٍّ..**

بهذه الكلمات البسيطة التي تقطر تواضعا، أجاب أيوب عليه السلام!

يا إلهي !!

أهذا هو ما عددته ذنبا أو تقصيرا؟

أذلك فقط هو ما استطعت تذكره؟

شيء ما فعلته إلا تعظيما وتبجيلا لمولاك..

أنك ما احتملت أن يقسم بالله كذبا، فكفَّرت عن الحالفين، خشية أن يجعلوا الله عرضة ليمين كاذبة من أحدهما..

أكرِم بك من عبد، وأعظم بك من ولي!

و الله إنا لنحن المبتلون، لست أنت..

نحن الذين إذا طلب منا أن نعد معاصينا ما استطعنا..

نعم والله ما استطعنا.

ربما لكثرتها..

و ربما لغفلتنا عنها..

بينما أنت حين التمست شيئا مشتبها عليك، ما وجدت إلا فضيلة أو منقبة..

لله درك من عبد..

قال أيوب تلك الكلمات، لكن شبهة القوم لم تمر عليه مرور الكرام..

فكلمات صاحبه الجارحة، وظن السوء الذي ألقاه صاحبه ورحل، ترك في نفسه أثرا..

يا لقسوة تلك الكلمات..

أما من رأفة أو رحمة تكفكفهم، وهم يرونه على هذا الحال، عن اتهامه في دينه بهذا القال، وإيلامه بهذا المقال؟ !

مهلا أيها المستعجلون، رويدكم أيها المتأولون..

مع أمثال أيوب من حاملى الرسالة، ليس الأمر الأشق على النفس هو خوض الخائضين، وتشنيع المبطلين، وظن الظانين..

أمثال أيوب ما يعنيهم في المقام الأول إلا رسالتهم، ولا تشغلهم سوى دعوتهم..

وهذا الكلام الذي طرق مسامعه الآن، يعنى أن هناك خطرا علـى أغـلى ما يملكه حامل الرسالة، وصاحب الدعوة..

هناك خطر على دين الناس..

على حسن ظنهم بربهم..

على نظرتهم لعاقبة الطائعين..

لقد تحمل الأسقام لثمانيَة عشر عاما عن طيب خاطر ولم يشتك قط..

قد تجرع الآلام النفسية قبل البدنية، والأولى أقسى ألف مرة..

وهل تغادر قلبه لوعة فراق أبنائه، الذين هلكوا جميعا في يوم واحد؟

هل ينسى مشهد زوجه المسكينة، وقد عانت الأمرين لتتمكن من جلب كسرات الخبز التي يقتات عليها، بعد أن عجز عن الحراك..

هذه المرأة الكريمة العزيـزة تتحـول لخادمـة في بيوتـات نـساء المدينـة، والعين ترقب، واليد عاجزة..

لقد تحمل كل تلك الآلام، وما زال على استعداد لأن يتحمـل مثـل مـا فات من الأعوام..

لكن أن يسيء الخلق ظنهم بربهم؛ أن يفتنوا عن دينهم، بزور من التأول لحاله وبهتان..

هذا ما لا يحتمله قلبه الـذاكر، ولا تطيقـه نفـسه العابـدة الغيـور، عـلى جناب حكمة الله الرحيم الودود الرحمن..

فمن الآن فإن الوقت قد حان..

حان الوقت ليتحرك لسان طالما استحيا أن يشتكى..

بل طالما استحيا ألا يلهج بالحمد والثناء، وهو الذي يعد الشكر نعمة في ذاتها تستحق الشكر والعرفان..

بعد كل تلك السنين آن لهذا اللسان الصابر المحتسب، أن يتحرك بدعوة خاشعة تبرق من بين ثنايا فمه واللسان، لتشق طريقها إلى كبد السماء، شاكية إلي الرحيم الرحمن..

فليضرع لمولاه، وليفزع لسيده، وليناد ربه:

- ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾..

و لكن...

مهلا مرة أخرى

هذا ليس دعاء

أو على الأقل ليست الصيغة الطلبية التي نعهدها في دعاء المسألة؟!

همسة مناجاة هي..

شكوى حبيب لحبيبه..

أو هي نفثة مصدور، يكللها أدب، ويتوجها ثناء..

سبحان من رباك يا نبي الله عليك السلام..

أى أدب هذا الذي ينضح من مناجاتك؟!

أي لطف هذا الذي يقطر من عباراتك؟

مسَّني الضر!!

كل ما مر بك تسميه مسَّاً..

ضياع مالك، وزوال جاهك، واعتلال بدنك، وفقد عيالك، وهوانك على الناس..

كل ذلك مجرد..... مس؟!!

أي مقام هذا؛ أهو مقام أدبني ربي؟

أم هو جميل الصبر، أم لعلها بشاشة الرضا؟

أو هو شهود القلب لأنعم الرب، التي تتضاءل إلى جوارها البلايا، وتتصاغر إلى جنبها النقم والرزايا!

غريب مس ضر الأنبياء والأولياء ممن طهرت نفوسهم من الآثام، وصحائفهم من الخطايا..

أني مسني الشيطان بنصب وعذاب،

تستمر المناجاة وتتصاعد الشكاية..

ليس منك يا رب، وإنما إليك، فالخير بيديك، والشر ليس إليك..

لم يقل أيوب: ابتليتنى، أو: اختبرتنى..

بل نسب الفعل للشيطان..

و هكذا حال المحبين..

لا ينسبون الشر أبدا لمحبوبهم..

لكأنى بك يا أيوب، تتشبه بأخيك يوسف سلامٌ عليه، حين قال: **﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾** ..

وكذا من بعدك قال الكليم موسى عليه السلام: **﴿هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ﴾**..

وكذا قال فتاه عليه السلام **وما أنسانيه إلا الشيطان**..

سلامٌ على من علموا الدنيا الأدب مع الله..

و سلامٌ عليك يا أيوب..

فى ذلك الموطن العصيب، وقد قررت أخيرا أن تضرع إلى سيدك، وترفع إلى مولاك شكايتك، لم تنس الثناء..

لم تنسك شكايتك حق ربك من شهود مقام الامتنان بعطاء الربوبية وسابغ النعماء..

﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ..

ألا فليسمع من تشككوا منذ قليل..

ألا فليصدع ثناؤك في أرجاء الدنيا، لعله يبلغ من أساءوا بربهم ظنا..

ها هو صاحب البلايا والأسقام والرزايا المريض المسكين، ينادى أرحم الراحمين..

يقر له بالرحمة

بل بتمام وكمال الرحمة..

الرحمة التي شككتم بها، وكدتم أن تنفوها، رغم أنكم لم تذوقوا معشار ما ذاق أيوب..

لم يتزعزع حسن ظنه بالله قيد أنملة، ولم يهتز إيمانه ويقينه بربه لحظة..

وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ..

إلي هنا، واكتفي..

نعم: اكتفي العبد بما قال..

لم يزد كلمة في تلك الشكاية المختصرة..

رفع حاجته، وأثنى على ربه، وانتهى الأمر..

انتهت المعاناة الرهيبة التي تقلب فيها ما يقارب العشرين عاما..

بهذه البساطة..

نعم، وماذا يمنع..

و لم لا؟!

لقد سمعه القادر المقتدر، الذي إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون..

و لقد أبصر حاله من قبل، فوجده على حال يحبه ويرضاه، فشهد له الحق وقال:

﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾..

فلم إذا لا يغير نواميس الكون له؟!

وما أسرع الجواب!

الأمر لا يقتضى مع قدرته المطلقة الوقت الذي تنطق فيـه فـاء الترتيـب والتعقيب الفورى، والتي تصدرت البُشرى التالية لمناجاته السابقة..

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾..

صدر الأمر، وأعلنت الاستجابة..

استجابة لماذا؟

و هل طلب؟ وهل سأل؟

المهم أنه تكلم وناجى واشتكى..

فاستجاب المولى الجليل العليم بذات الصدور..

﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾..

ضربة بقدمه الواهنة، يتفجر بها ينبوع رائق، من ماء مبارك، يطهر بدنـه من أدران المرض، ويزيل من وعن جسده سائر الأدواء والأسقام، وعن قلبه البلايا والأحزان سبحان القريب المجيب الودود المنان!

الجلد صار غير الجلد، واعتدل البدن واستقام، وإلى عين النبى الـصبور قد عاد بريق الحيوية..

لكأنى به إلى ريعان الصبا قد عاد..

هاهى زوجه الوفية قادمة من بعيد، تبحث عن الشيخ العليل، الـذي تركتـه هنيهة لحاجة، وعادت تلتمسه..

- **أيْ باركَ اللهُ فيكَ هلْ رأيتَ نبيَّ اللهِ؟!**

هذا المُبتلى..

واللهِ على ذلكَ ما رأيتُ أحدًا أشبهَ بِهِ مِنكَ إذ كان صحيحًا..

لم تعرفه المرأة الوفية لأول وهلة..

لم تدرك أن هذا الرجل الذي ينضح بالقوة والعنفوان، هو بعلها!

لقد شُبه لها، وارتأت فيه ملامح زوجها في صحته وشبابه..

لكن ليس من المعقول أن يكون هو، مستحيل حتي علي الذهن ملاحظة الطفرة المدهشة وسرعة تبدل الحال..

- **أنا هو..**

قالها أيوب، وفاجأها بمعجزة الرحمن، التي تراها الآن رأي العيان!

يا لها من مفاجأة!!

بل يا له من سرور وحبور!

لقد شفي أيوب..

ليس هذا فحسب..

إن الاستجابة كاملة، والضر لابد له أن يزال كله، لن يبقى منه أثر مسَّة..

ومن الضر فقد الولد..

وفقد المال..

ألا فلتُصلح الزوج أيضا، وليعد المال، ولتتم النعمة ولينهمر جراد الذهب، وليرزق الصابر بضِعف ما كان لديه من الولد..

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾..

إنه كرم الذي ليس كمثله كرم..

ويا له من كرم، كرم الحنان المنان..

بل يا له من أمل، يلقى في روع المبتلين!

ويكأن سيرة أيوب لمن يتدبرها = واحة أمل ويقين، وارفة الظلال، مزهرة الأغصان، تنبت في قلوب رمى الشيطان فيها بذور اليأس التي لا تنبت إلا في تربة السخط وسوء الظنون..

و من ذا يسخط، بعدما رأى ما حل بأيوب؟

من له أن يقنط وهو يشهد بعين قلبه ما آل إليه الحال من حسن المآل؟!

فقط عليه أن يحقق الشرط، وأن يعي الدرس..

يعى أن كل ما فات، وكل ما هو آت من تقدير المضرات ونزول البلاءات، إنما هو رحمة، وحكمة، وذكري..

رحمة من الرحمن الرحيم..

وحكمة من لدن عليم حكيم..

وذكرى للعابدين..

للشاكرين في السراء، والصابرين في الضراء، والعابدين الثابتين في كل الأحوال لرب الأرض والسماء..

أولئك يستحقون تلك الرحمات ويتقلبون هنالك في تلك الواحات..

واحات الألم..

والأمل.

أصل حديث الرجلين المتجادلين في السلسلة الصحيحة للشيخ الألبانى رحمه الله من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه..

❊ ❊ ❊

ميت وميتون

(٢٦)

ميت وميتون (٢٦)

«يذهب الخلق، ويبقى الحق، صفة الرب، فاعرف الحق بالحق، لا بالرجال»

ألا من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد......

مات !

أجواء حزينة، تلك التي خيمت على أهل المدينة، حين طرقت مسامعهم تلك الكلمات، التي استجمع فيها الصديق رضي الله عنه كل ما يملك من حكمة وقوة ورباطة جأش، ليسمعهم إياها، وهم في حالة من الصدمة، بلغت لدى بعضهم مراحل خطيرة..

البعض لم يصدق، والبعض رفض أن يصدق، والبعض ألجمته الصدمة، وأعجزته المصيبة، وأقعده الحزن، وألجم الهول بليغ لسانه..

لقد بلغ هول المشهد أن قام الفاروق عمر رضي الله عنه فيهم بسيفه، مهددا من قال ذلك، ومتأولا أنه إنما ذهب للقاء ربه، كما فعل موسى بن عمران عليه السلام..

الكل في حالة من الوجوم، وعدم القدرة على إدراك هذه الحقيقة، التي أعلنها الصديق الآن..

ألا إن محمدا قد مات!

نعم: قد مات

فمن كان يعبد الله، فإن الله حى لا يموت..

تلك هى حقيقة الأمر الواقع..

هذا الدين، وتلك الدعوة، وهذه الأمة الوليدة، لن تقف مسيرتها لأجل بشر مهما كان قدره ومهما بلغت مكانته..

حتى لو كان خير البشر، ﷺ..

حتى لو كان من أخرجهم الله به من الظلمات إلى النور..

حتى لو كان القدوة، والمعلم، والصاحب، والموجه..

نعم، حتى لو كان هو، صلوات الله وتسليماته عليه..

في النهاية هو بشر..

وهو ميت وإنَّا لميتون..

فليسمعوها مرة أخرى من الصديق، تطرق مسامعهم، وكأنها المرة الأولى:

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾..

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾..

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾..

نعم نحبه

ونحزن لفقده..

ونسكب أنهار العبرات، كلما مرت بمخيلتنا تلك اللحظات..

كلما تذكرنا مشهد السيدة فاطمة رضي الله عنها، وهى تسأل عن أبيها قائلة: **أطابت أنفسكم أن تحثوا التراب على وجه رسول الله؟!**

كلما تأملنا مشهد هذا الصِّدِّيق، رابط الجأش، المتحامل على نفسه الآن، بينما هو منذ قليل لا يملك دمعه، بينما يقبل رأس صاحبه ويقول:

- **وانبياه، واخليلاه، واصفياه..**

طبت بأبي أنت وأمي..

طبت حيا ميتا..

والذي نفسي بيده لا يذيقنك الله الموتتين أبدا، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها..

كلما دار بخلدنا مشهده بعد عام، والحزن على حبيبه لم يفارق نفسه الوفية، بينما يعتلى منبر صاحبه قائلا: حدثنى خليلى عام أول...؛ لكنها العبرات تخنقه، وهو الرجل الأسيف، رقيق القلب، حينما توقظ أشواقه كلمة «خليلى»، فيكاد لا يكمل خطبته، ويبكي الخلق لبكائه..

و هل ننسى أبدا حين أقسموا على بلال ﷺ، ليؤذن لهم يوم أن فتح الله بيت المقدس، وكان قد امتنع منذ وفاة إمامه أن يؤذن لغيره، فلما رضخ وقام ليؤذن للفاروق، إذا به يصل إلى قول: «**أشهد أن محمدا رسول الله**»، فيغص حلقه بنشيج مكتوم، وتسيل دمعات اللوعة من مقلتيه، حين تذكر أن آخر من أذن له وأسمعه ذاك النداء، قد لحق بالرفيق الأعلى..

لم ينسوا..

و لن ننسى..

لكنها الحياة تمضى..

و المسئولية تقتضى بالصديق، أن يبين تلك القاعدة التي يوما بعد ذلك سوف ينساها الغلاة..

قاعدة بقاء الحق، وإن ذهب الأشخاص..

ولو كانوا أحب الأشخاص..

و إن تمزقت الأفئدة لفقدهم، وتهللت فرحا بلقائهم..

فمقامهم مقام البشرية أبدا؛ إلي زوال، لكنه زوال لن يوقف عجلة الكون، إنها الحقيقة التي تغافل عنها منذ بدء الخليقة وإلي يومنا هذا ما لا يعلمه إلا الله من متتابع الأجيال، فعلقوا أفئدتهم بالأشخاص، وغمروا مشاعرهم في بحار انبهار وإكبار غال مبالغ، أودى بهم في النهاية إلي دوامات الغلو والتقديس، ومهالك التعلق المطلق..

وما ظهر الشرك في الدنيا إلا بمثل هذا..

وهل كان ودٌّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر إلا رجالا صالحين، انبهر بهم قومهم، ودام تعلقهم بهم، حتى بعد موتهم، فما كان منهم إلا أن صنعوا منهم أوثانا تعبد من دون الله؟

و هل عُبد المسيح عليه السلام، واتخذ الخلق من بعده أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، إلا بالتعلق بهم، والغلو في شخوصهم، فأنساهم ذلك توحيدهم، وما من أجله خلقهم ربهم؟

إنه تعلق وغلو أغفلهم عن تلك القاعدة التي بينها ربهم:

﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾..

هكذا إذاً؟؟

بهذه بساطة

كانا يأكلان الطعام!!

يبقيان في النهاية بشرا، مهما علا قدرهما، ورسخت محبتهما في القلوب..

فما الداعي لعبادتهما وتقديسهما من دون المستحق علام الغيوب؟

إنها تلك الفتنة التي يبدو أصلها ميلا نفسيا منحرفا لدى كثير من الناس، للغلو وإقامة الرموز والأوثان، بإيعاز من الشيطان..

هي نوعية من البشر، تتحين وجود القدوات، وبروز الشخصيات الباهرات، فتنزلها فوق منزلتها، وتغلو فيها، ولتنصب لها الأنصاب، وتخلق الإفك وتعبد الأوثان..

ربما لا تكون أوثانا يُسجد لها ويُركع، أو أنصابا ينحر لها وينسك..

بل قد تكون أوثانا فكرية، وأنصابا معنوية؛ تجعل القائد أو الشخص المعظم رمزا مقدسا، ومعبودا يتقرب إليه، بما يتقرب به إلي الله جل وعلا..

فإن كان الغلو محظورا في حق المرسلين والأنبياء، فهومحظور من باب أولى في حق غيرهم..

بل الحقيقة أن خطورة هذا الأمر تتضاعف وتتفاقم، حين ينتقل التعظيم من الأنبياء - وهم أهل لذلك التعظيم، مادام في أطره الشرعية التي لا ترفعهم لدرجة الألوهية - إلى من دونهم من الناس، حتى وإن كانوا من

أصحاب الفضل أو المواهب والقدرات..

و ذلك لأنه مهما تعاظمت تلك المواهب والقدرات، ومهما بلغ بريق أفكارهم، وعبقرية طرائقهم، فإنها تظل في النهاية تجارب بشرية تحتمل الخطأ والصواب، وأصحابها قوم من بنى آدم عليه السلام، لا عصمة لهم، ولا قداسة لجنابهم، يخطئون ويصيبون، ويضلون ويهتدون..

ثم هم في النهاية أيضا **يموتون**..

لكنك تجد في بعض الخلق ميلا رهيبا للتمحور حول شخص، أو قائد أو إمام، مع ترميزه بصورة مبالغ فيها في غالب الأحيان..

ومثل هذه الرمزية، للقادة والقدوات، تكررت في كل زمان ومكان مع تفاوت في بعض التفصيلات..

بل لقد نشأت ديانات ومناهج ومعتقدات، قائمة على شخصيات، ظل أتباعهم يدورون في أفلاكهم لا يحيدون عنها ولا ينشزون، لأعوام عديدة، وأزمنة مديدة!

فمن البوذية كديانة قائمة على تعاليم بوذا، إلى القيديانية كديانة أخرى ابتكرها غلام أحمد قيديانى، إلى الماركسية كمنهج وفكر قائم على تصور كارل ماركس، إلى الناصرية كأيديولوجية قائمة على مبادئ عبد الناصر، تجد جماعات من البشر، تتقلب وتتنافح، وربما تقاتل، في سبيل إعلاء فكر هذا الشخص المعظم، الذي اتخذته تلك الجماعات البشرية قدوة أو معلما لها..

و الحقيقة أن تلك المبالغة في التعلق بالأشخاص وطرائقهم، لم تنج منها طوائف ومذاهب وفرق إسلامية كثيرة، قديما وحديثا

كم من فرقة أو جماعة، أسست معتقدها ومنهجها، على مبادئ شـخص ورؤيته..

يظهر ذلك جليا في كثير من الطرق، والتي يعد بعضها نماذج حية لتبعية عجيبة، حين يختار المريد طريقة عابد قضى وأفضى لما قدم، فيسير على أوراده وعباداته حذو القذة بالقذة..

و كذلك فعلـت فـرق عقديـة متعـددة، لم تـستنكف أن تـسمى باسـم مؤسسيها الذين هم في كثير من الأحيان لا يرضيهم ذلك الاتبـاع الأعمـى، والتعلق المبالغ فيه، والذي يصل في أحيان كثيرة إلى حد الابتـداع في الـدين، والتأليه والعبودية لغير الله رب العالمين..

فما أعجبها من عبودية مقنعـة متـسترة، فلـيس يـشترط فيهـا أن تكـون سجودا وركوعا محضا؛ وإنما قد تكون انقيـادا كـاملا، وولاءً وبـراءً عـصبيا هوائيا مصروفا لغير الله، ومن ذلك قول رسول الله ﷺ، حين سأله عدى بن حاتم عن قوله تعـالى: ﴿ **ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ** ﴾، فقال: كانوا إذا أحلُّوا لهم شيئًا استحلُّوهُ وإذا حرَّموا عليهم شيئًا حرَّموهُ فتلك عبادتُهم..

و كما أننا نعتقد اعتقادا جازما أن المسيح عليه السلام، لا يقبل أن يتخذ إلها من دون الله، كما في قوله حين سئل عن عبادة الناس له: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾..

فإننا على يقين كذلك، بأن كثيرا ممن يغلو فيهم الأتباع والمنسوبون، لم يكونوا ليرضوا بذلك الغلو، ولا بممارسات الغالين..

وهل يشك أحد أن عليًّا رضي الله عنه، لا ترضيه ممارسات من يسمون أنفسهم بالعلويين، وهل يقنع مؤمن بأن الحسين رضي الله عنه، تسعده تلك اللطميات التي تجرى فيما يسمى بالحسينيات..

لا يشك من شم رائحة العلم في ذلك..

بل يرجع مناط الأمر في أحيان كثيرة، إلى غلو التابع نفسه، وإنزاله لقدوته ورمزه منزلة فوق منزلته..

و قد ظهر ذلك في بعض أتباع المذاهب الأربعة، في عصور بلغ بهم التعصب المقيت فيها إلى أن رفضوا تزويج بناتهم لأتباع المذهب الآخر، وامتنعوا عن الصلاة خلف بعضهم البعض، وصار الولاء والبراء على المذهب، رغم ما ثبت عن أئمة تلك المذاهب، من رفض وتبرؤ كامل من

هذه السلوكيات، حتى صرح أبو حنيفة النعمان رحمه الله قائلا: «**هم رجال وأنا رجل**»..

و ها هو الإمام مالك رحمه الله يقول: «**إنما أنا بشر أخطئ وأصيب فانظروا في رأيى فإن وافق الكتاب والسنة فخذوا به وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه**»..

وكذلك فعل الإمام الشافعي رحمه الله فقال: «**ما من أحدٍ إلا وتذهب عليه سنة للنبى أو تعزب عنه فمهما قلت من قول أو أصّلت من أصل فيه عن رسول الله خلاف ما قلت فالقول قول رسول الله وهو قولي وجعل يردد هذا الكلام**»..

ومثل ذلك قال أحمد، وبه قال كل من وضحت لديه تلك الرؤية من تلامذتهم، ممن لم يهتز وعيه، ولم يعتل فهمه ليصل إلى ذلك الغلو المقيت..

وللأسف في الجماعات والتيارات المعاصرة أيضا، نجد مثل هذا الاهتزاز في الوعى لدى بعض أفرادها، ممن ينزلقون دون شعور منهم في هذا الفخ المتخفى داخل أغوار النفس

نماذج ذلك كثيرة، قد ينكأ سردها وتفصيلها جراحا ما من أحد إلا ويريد لها أن تندمل..

لكن يكفى أن تذكر نقدا لبعض أفكار رمزه أو قدوته أو إمامه، حيا كان أو ميتا، لتنصب لك المشانق، ولتعد لك أحجار الاتهامات فترجم بها،

جراء اجترائك المريع، رغم أنك ربما لا تجد رد الفعل الغاضب نفسه، إذا ما انتهكت حرمة من حرمات الله، أو أهين أحد أصحاب رسوله ﷺ.. بل ربما تجد دعوات التعايش والمودة والتآلف مع من يقترف تلك الجرائم، بينما كل الرفض لك إذا فكرت يوما أن تهز رمزه، أو تطالبه بإنزاله منزلته الطبيعية، والله المستعان..

ولأن هذا الأمر مطَّرد، ولأن تلك الخصلة متجذرة في قلوب البشر إلا من رحم ربى، كان لابد من وضع ضوابط لها، تجمع ما بين الواقعية التي تدرك جيدا ميل الخلق للترميز والانقياد لقائد أو قدوة، وبين الإصرار الواجب على تكسير الأصنام من قلوب العباد، قبل تكسيرها في واقعهم، لتتحرر النفوس من ربقة عبودية الأشخاص، ورِق المتبوعين إلى عبودية الله وحده..

نستطيع أن نقول إن هناك درجة معقولة أو مقبولة من الترميز والتقديم، يمكن قبولها والتعاطي معها في داخل الصف، بل وربما تكون لها فوائد في بعض الأحيان..

و لا شك أن المربين والموجهين والقادة، عليهم الحمل الأكبر في ضبط الأمر، وحصره داخل إطاره المناسب المفيد..

و من نماذج المسموح به، ما ورد في سورة البقرة بشأن ذلك النبى من أنبياء بنى إسرائيل، لما قالوا له: ﴿**ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ**﴾، فقبل ذلك منهم، وبالفعل ابتعث الله القائد، وقيد لهم طالوت ملكا،

ومن بعده داوود عليه السلام، وجاء نصر الله على يد داوود حين قتل رمز الكفر جالوت..

و في هذا الموقف نلاحظ أن نبيهم الأول، قد أدرك حاجتهم الملحة، لقيادة ورمز، يأخذ بأيدى القوم، بعد فترة التيه الطويلة التي مروا بها..

و كذلك كان من المهم أن تنكسر أسطورة القوم الجبارين، ببطل يثير الحماس في القلوب، ويلهب العزائم ويستنهض الهمم، حين يطيح برأس جالوت رمز الجبارين الذين طالما رهبوهم.

لذا نلحظ أن المشهد الوحيد الذي كلمنا فيه ربنا عن داوود عليه السلام في تلك المعركة الفاصلة كان حين قال: ﴿ **فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ** ﴾..

و من ذلك أيضا نجد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يبعث الله على رأس كل مائة عام من يجدد لهذه الأمة أمر دينها**»..

و هنا يبين النبى صلى الله عليه وسلم قيمة وجود الرمز والقيادة التي تجتمع عليها القلوب، ويسير الركب تحت لوائها، وذلك حينما يطول بالخلق الأمد، ويندثر من معانى الشريعة الشيء الكثير، فتكون الحاجة ماسة لأن يأتى القائد المجدد، الذي يعيد ترتيب الصفوف، ويكون اتِّباعه في هذه الظروف إنما هو اتِّباع لمعانى الدين، وثوابت الشرع، التي وفقه الله لإعادة تجديدها،

وليس اتباعا لمجرد لشخصه، أو لمقامه أو موهبته..

لذلك ما إن تنحرف البوصلة، ويختل المعيار، وتصير القلوب على شفا جرف الغلو، وهاوية التعلق بالأشخاص، حتى نجد المربى والقائد يعيد الأمر إلى نصابه، ويعلى القيمة والمبدأ، ويرجع القلوب إلى القسطاس المستقيم، الذي يعتدل فيه وبه ميزان الرجال.. وهذا ما فعله الصديق ﷺ حين قال: «فإن محمدا قد مات»، فلا تفتتنوا بوفاته، واذكروا أن الأصل هو عبوديتكم لله، واتباعكم للمنهج الربانى القويم..

وكذلك ما فعله من قبله رسول الله ﷺ، حين قام أمامه رجل يرتجف وترعد فرائصه، فقال له: **هون عليك فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد..**

ولطالما أبى الحبيب أن يُنزل فوق منزلته التي ارتضاها له ربه، فهو عبد الله ورسوله، ولما وجد من يقول: ما شاء الله وشئت، نهاه فورا وقال: «**أجعلتنى لله ندا**»، في إصرار واضح على تعليق القلوب بالله وحده لا بغيره..

و عين ذلك أيضا ما فعله الفاروق ﷺ من بعد صاحبيه، حين عزل خالد بن الوليد ﷺ عن قيادة جيش الشام، وولى مكانه أبا عبيدة ﷺ..

و كما هو معلوم فإن عمر لم يفعل ذلك سخطة عليه، أو اتهاما لدينه وأمانته، وإنما فعل ذلك - على الراجح - خشية افتتان الخلق، وتعلقهم الزائد بشخصه..

لقد قيم الفاروق الموقف، ووجد أن الصورة العامة التي يطالعها الناس، مؤداها أن جيشا على رأسه خالد هو جيش لا يقهر، ولا يؤخر عنه النصر..

و هذا ما لم يرتح إليه عمر، وخشى أن يعلق الناس النصر على خالد، وما النصر من عند خالد، ولا غير خالد، إنما هو من عند الله وحده..

خطوة يصعب على قائد أن يقدم عليها وهو يرى ذلك المقاتل المحنك، ويدرك أنه سيف سله الله على أعدائه، ورغم ذلك يعلى الفاروق القيمة والمبدأ، على الأشخاص، فتفتح الشام، وتتواصل الانتصارات، تحت قيادة أمين الأمة أبي عبيدة ﵁..

و علي مثل ذلك ينبغى أن يكون حرص المربين والموجهين..

علي إعلاء قيمة المبادئ والأصول والأفكار، وليس الأشخاص، فهم إلى زوال..

إن الأعمال والدعوات القائمة على مبادئ وأفكار صحيحة مستقيمة، هى التي ترسخ وتعمّر في الأرض، بخلاف تلك القائمة على جاذبية شخص، أو موهبته، أو حتى علمه وصلاحه، فإنها تزول بزواله..

ها هو ذو القرنين لما سُئل أن يجعل سدا بين القوم وبين أعدائهم لم يسارع بذلك، رغم قدرته وهو الذي أوتي من كل شيء سببا..

يمكنك أن تقول إنه لم يعطهم سمكا، ولكنه علمهم كيف يصطادوه بأنفسهم..

لقد قال لهم وهو المُمَكَّن القوى: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾..

ثم هو لم يكتف بذلك، وما زال بهم حتي علمهم صناعة سبيكة الحديد والنحاس، وأطلعهم على سر بناء السد المتين، الذي يصمد ويقوى على حجز يأجوج ومأجوج..

و هكذا القائد المتجرد النصوح..

ليست قضيته أن يظل الأتباع به عالقين، لا يتحركون إلا بأمره، ولا قيمة لهم إلا بوجوده وإنما يعنيه أن تكون لديهم القدرة على العمل والحركة والتغيير..

به أو بدونه..

فإنه في النهاية ميت، وإنهم ميتون..

هذا هو التوسط والقصد..

لا بأس من وجود القادة والرموز..

بل في الحقيقة لا غنى عن وجودهم..

لكن لا يصح أبدا أن تتمحور الحياة فقط حولهم، وتختزل في أشخاصهم حتى يتحولوا في ميادين النفس إلى أوثانٍ كبيرة، تنتهى إليها الأحداث، وتدور في فلكها الوقائع..

فليكن القادة..

وليحترموا، وليقدروا، ما داموا على الجادة..

لكن الأهم أن تكون معهم، وإلى جوارهم، وبمحاذاتهم الأفكار، والرؤى، والمناهج،والمؤسسات..

و ليحاكم كل ذلك إلى موقعه من موافقة الحق أو مخالفته، في إطار الأصل الجامع، والمبدأ العام..

مبدأ: إنك ميت وإنهم ميتون..

وأن الحق هو الحي الذي لا يموت

❊ ❊ ❊

الناس مقامات!!

(٢٧)

الناس مقامات! (٢٧)

«بين ذرات أعمال القلوب والإخلاص المقبول، ومجرات الهباء المنثور ومردود السراب المرذول»

بيديه النحيلتين تمسك جيدا، ثم دفع جسده الضئيل إلى أعلى، متسلقا تلك الشجرة الطيبة بخفة ومهارة، ليحضر لحبيبه بغيته التي طلبها، يروم تطهير فمه الشريف..

وبينما هو منهمك في تسلقه، إذ هبت ريح على الشجرة، فجعلت تحرك بدنه النحيف يمنة ويسرة وتكفؤه، وقد انكشفت ساقاه شديدتا الدقة والنحولة..

وبينما هو على تلك الحال من المجاهدة مخافة السقوط بجسده الضئيل من على الشجرة، إذ خرجت من أفواه بعض المارة ضحكات، وهم يتابعون هذا المشهد، ويلحظون تلك العظام الناتئة من القدمين النحيلتين..

- ما يضحككم؟

احتبست الضحكات في الحلوق، وهم يسمعون الصوت المهيب يطرق آذانهم..

من؟؟

رسول الله ﷺ!!

فليجيبوا إذا

و هل يجرؤون إلا على قول الحق في حضرته؟

- يا نبي الله من دقة ساقيه نضحك..

نعم هذه هى الحقيقة..

لقد نظروا لظاهر الحال..

انفعلوا بالقشرة الخارجية، ولم ينتبهوا بينما هم يضحكون إلى القيمة الحقيقية للأشياء..

- أتضحكون من دقة ساقيه؟!

و الذي نفسي بيده، لهما أثقل في الميزان من جبل أحد..

قالها رسول الله ﷺ..

قال تلك العبارة التي لو خُيِّر من قيلت في شأنه بين الدنيا وما فيها وبين أن تخرج تلك الكلمات من بين الشفتين الشريفتين لاختار أن يسمعها..

قال الجملة الخالدة التي يفهم منها أولو الألباب حقيقة الموازين ويدركون بها القيمة الحقيقية للرجال..

كل ذاك القدر لقدمين نحيلتين؟!

ويكأن الميزان لا علاقة لكفتيه بمظهر الموزون أو ثقله المادى..

ويكأنه ليس بالجاه ولا بالمقام بين الناس في ظاهر الدنيا المعلوم..

ويكأن المعيار هو المقام عند الله..

و أى مقام وأى وزن؟!

إنه أُحد..

ذلك الجبل الذي يمتد على مرمى البصر شمال مدينة رسول الله ﷺ..

إنه الجبل قد لا تستطيع العصبة أولو القوة أن ترفع منه صخرة واحدة..

ذلك الجبل الذي يحب رسول الله ﷺ، ورسول الله يحبه..

هاتان الساقان النحيلتان لهما قدر عظيم عند الله؛ إنهما عنده أثقل من هذا الجبل..

سبحان الله!

يا له من فضل، وياله من شرف..

هنيئا لابن أم عبد هذه المنقبة، التي فضله بها الله جل وعلا، وأعلنها رسوله ﷺ..

ما أجمل أن يكون لك هذا المقام عند الله، يا ابن مسعود..

لكن لحظة:

هل هذا المقام لابن مسعود فحسب؟ أم هو مطروق لغيره من ذوي الهمم العالية والأعمال السابقة؟

هل يمكن لعبد فقير مثلي ومثلك، أن يكون له مثل هذا المقام، وتلك الدرجة عند مولاه؟

الجواب: نعم..

هو مطروق لمن يدفع الثمن..

بدمعة صادقة تسيل من عين خاشعة، أو بأثر تتركه قدم في الأرض سعيا لخير وبر، أو برائحة تخرج من فم صام لله يوما من العمر، لا تدري أعلي مقامك قبولا عند الله تحصله بأي من العمل!

ليس هذا ضربا من المبالغات الأدبية، أو الاستعارات البلاغية، إنما هو كلام خير البرية..

اقرأ كلامه ﷺ، لتستجلي الخبر..

اقرأ حديثا عجيبا مدهشا، وقيِّم به ميزان القبول والعمل؛ اسمع منيبا خاشعا، إلي بيان سيد البشر.

ثم لن تلبث دهشتك إلا أن تتحول إلى استبشار حين تدرك أن شيئا مستحقرا لدى الخلق ربما لا يأبه ببعضه أحد من الناس قد يكون له مقام عظيم عند خالقك عز وجل:

«**ليس شيء أحب إلى الله من قطرتين وأثرين: قطرة دمع من خشية الله، وقطرة دم يهراق في سبيل الله، وأما الأثران: فأثر في سبيل الله، وأثر في فريضة من فرائض الله تعالى**»، صحيح الترغيب..

تأمل..

قطرة دمع وقطرة دم..

أما الأولى فدمعة خشية، وما أشرفها من دمعة..

دمعة إنسان ذكر مولاه ففاضت عيناه..

و أما الثانية فقطرة دم سالت من جسد مجاهد، جاد بها عن طيب نفس في سبيل الله..

وأشد عجبا ذاك التراب الذي تمشى عليه..

تراب أصله زهيد، لا قيمة له ولا ثمن..

لكنه ها هنا ذو مقام وثمن..

إنه التراب الذي تركت فيه أثرا، وأنت في طريقك لأداء فريضة من فرائض الله، التي ما تقرب عبد لربه بشيء أحب إليه منها.

أو هو التراب الذي فيه أثر سعي ذاك المجاهد البطل، تركه في ميدان القتال وساحات الوغى، بينما يرفع راية الدين، ويذود عن حمى المسلمين، وينصر الله ورسوله والمستضعفين..

إنه أثر يحبه الله ملك الملوك؛ ببيان من محمد سيد البشر أجمعين..

الله أكبر..

سبحانه من خالق ودود، يتودد إلى عباده ويحب أولياءه..

بل يحب أثر أوليائه..

يحب آثار طاعتهم التي قد لا يطيقها أقرب الناس إليهم!

تأمل قول حبيبك، ﷺ:

«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْك»..

تأمل قوله: عند الله..

هذه الرائحة التي منها ينفر الخلق، لها قدر ومقام عند المولى جل وعلا..

ذلك لأنها ناتجة عن عبادة لها قدر عظيم عنده، لدرجة أن نسبها الله لنفسه، وهى الصيام الذي قال عنه الله في الحديث القدسي: «**فإنه لى وأنا أجزى به**»..

إذا فالأمر ممكن..

الأمر عام علي ما سبق، وليس مخصوصا بأحد دون أحد..

من الممكن – بل من المطلوب – أن تسعى لتحصيل أجرك، وإحراز هدفك، ورفع مقامك عند ربك..

ممكن أن يكون لك أو لبعض منك قدر ومقام كما كان لقدمى عبد الله بن مسعود قدر ومقام عند الله

وكما كان لجليبيب ولزاهر بن حرام رضى الله تعالى عنهما قدر عظيم ومقام عند الله وشأن كبير، بينه لهما رسول الله ﷺ، في موقفين مختلفين قرر فيهما - حين ظنا يوما أنهما كاسدان، لا قيمة لهما ولا مقام،

حين هانا ودنى قدرهما عند الناس بل وعند أنفسهما أما الأول فقد عرض عليه النبى أن يزوجه فقال: إذا تجدنى كاسدا يا رسول الله

وأما الثانى فقد مازحه النبى قائلا :

من يشترى العبد فقال نفس الكلمة : تجدني يا رسول الله كاسدا

الصحابيان كانا دميما الخلقة لا يحب الناس النظر إليهما ولا يعنون بشأنهما أو يقدرونهما حق قدرهما لدرجة أثرت على ثقة كل منهما بنفسه وجعلته يشعر بهوانه على الناس وكساده وعدم رغبة الناس فيه حتى قالا تلك الكلمات التى تنم عن تدنى نظرتهما لأنفسهما

هنا علمهما النبى ﷺ وعلم الأمة معهما تلك القيمة التربوية الرفيعة وهذا المعنى العظيم؛

القيمة التى فقدت فى مجتمعات مادية لا تزن الناس أو تحكم عليهم إلا من خلال المظهر الخارجى أو المقام والمنصب فتحقر هذا وتنتقص من ذاك وتمتهن كرامة هؤلاء وتسخر من أولئك ولربما كان أدنى المهانين فى نظر الناس خير من ملء الأرض ممن يمتهنونه ويسخرون منه

هنا علمهما قائلا لكل منهما في سياقه: «**ولكنك عند الله لست بكاسد**»..

عند الله

تلكم هى الكلمة

و هذا هو المقام الحق

هذا هو المحك، وهو المعيار الحق،و هو الحال، والمقام..

فكم من سادة وأكابر بعين الخلق، بينما هم عند الله أصاغر أهون من الجُعل وأصغر من الذر، كما صح عن النبى ﷺ..

كم من أناس يشار إليهم بالبنان، وتُنظم في مدحهم القصائد، وتدبج في مناقبهم المقالات والمقولات، وهم في الحقيقة لا يساوون عند الله جناح بعوضة، ولاقيمة لهم في الميزان..

العبرة ليست بعظمتهم ولا بجاههم أو وجاهتهم في الدنيا، وبين الناس، لكن العبرة بحقيقة العبد وسره المنظور المدرك ببصر الله وسمعه، وميزانه العادل القسطاس..

قال رسول الله ﷺ: «**إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة. اقرءوا:** ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾»، صحيح مسلم..

هذه هى قيمته الحقيقية عند الله..

جناح بعوضة!

بل أهون وأرخص..

تلخص تلك القاعدة آية محورية من سورة ص، يقول فيها رب العزة جل وعلا:

﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾..

سؤال ليس له إلا إجابة واحدة، يقتضيها عدل الله جل وعلا الذي ندين لله باعتقاده:

حاشا وكلا..

لا يستوون..

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾..

لا يستوون أبدا..

فلكل مقامه..

و لكل وزنه..

﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾..

مرة أخرى: حاشا وكلا..

الناس مقامات..

هذه هي الحقيقة..

لكن ليس كما يرددها بعض البسطاء، يقصدون مقامات الحسب والنسب والجاه والمال والمنصب..

ليست مقامات الدنيا الزائلة هي مناط المفاضلة..

ولكنه المقام عند الله، لا يعلم حقيقته غيره..

عند الله

بهذا القيد الملازم..

هذا هو المهم، والفيصل..

كم تكرر ذكر أصحاب ذاك المقام الرفيع والدرجة العالية في كتاب الله..

تأمل في قوله عن داوود عليه السلام: ﴿**وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ**﴾..

هل شعرت بها تلامس قلبك؟!

عندنا، لزلفى..

ما أحلى تلك الكلمة؛ عند الله.. زلفى؛ قربى، مكانة..

هنيئا لداوود وسلام عليه..

و مثل ذلك قال عن ولد داوود؛ سليمان عليه السلام: ﴿**وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ**﴾..

و عن أيوب قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾..

و عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب قال: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾..

و عن إسماعيل واليسع وذى الكفل قال: ﴿وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾..

و عن جلهم قال: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾، إنه مقام العبودية، أجمع وأرقي مقامات المخلوقية!

كل تلك المقامات فقط في سورة (ص) التي فيها تلك القاعدة الفاصلة: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾..

فما بالك بمقاماتهم في باقى الآيات والسور؟!

سيستبين الجواب أكثر فأكثر كلما تأملنا مقامات الأبرار، ودركات الفجار والأشرار..

و ليُصدع به عاليا ساطعا كفلق النهار..

لا يستوون..

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾..

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾..

حقا: ساء ما يحكمون..

ساء حكم كل من يحكم بظاهر المقام عند الناس، مغفلا حقيقة سر المقام..

هنالك ..

عند الخبير العلام..

صحيح؛ قد لا يظهر في الدنيا، ولا يبشر به عبد بعينه كما سبق مع الأنبياء، أو كما حدث مع ابن مسعود ﵁، أو مع أمنا خديجة رضي الله عنها، حين بشرت في الدنيا بقصر من لؤلؤ وقصب لا صخب فيه ولا نصب، أو مع أبى بن كعب حين ذكره الله في الملأ الأعلى باسمه ونسبه، وأعلمه ذلك الذي لا ينطق عن الهوى..

بل ربما يظهر عكسه، كما في حال الأشعث الأغبر ذى الطمرين المدفوع بالأبواب، الذي لو أقسم على الله لأبره..

تأمل عجيب شأنه:

يقسم على الله!!

فيبره..

ما أرفع قدره!

جهل الناس مكانته، واحتجبوا عنه بظاهر بشريته، فدفعوه بالأبواب، وأعرضوا عن إجابة طلباته، وردوا شفاعته، فانحجبت عنهم معالم ولايته..

لكنه يبقى صاحب المقام..

المقام الحق..

المقام الذي يبتغى، والمنزلة التي ترتجى، والمكانة التي يبذل من الغالى والنفيس للوصول إليها وتحصيلها المنتهي..

فعنده سبحانه..

الناس درجات..

والخلق مقامات..

و الوري طبقات..

لكنها ليست تتفاضل بمعايير أهل الدنيا، من مال وجاه ومنصب وعز ومظهر..

حاشا وكلا..

بل هى **مقامات وطبقات أخرى**..

رأس مالها التقوى، وخزانتها الخشية، ومفتاحها صحيح العقيدة، وكنزها خالص العبادة، واستثماراتها في العمل الصالح..

و ريع ذلك كله هنالك ..

فى الآخرة..

﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

عبد الله الحر

(٢٨)

عبد الله الحر
(٢٨)

شخصية تبهرني دوما وتأخذ بمكامن قلبي إلى ربوعها وارفة الظلال

إنها شخصية عبد الله

عبد الله الحُر..

و عبد الله الحر هو ذلك الإسم الذي أطلقته في مخيلتي على تلك الشخصية العجيبة التي ذكرها حبيبى ﷺ وحدثنا عن صفاتها الخلابة

لقد بدأ رسول الله وصف تلك الشخصية بالعبد ثم أردف ذلك بذكر جوانب من تلك الشخصية الأخاذة التي تبرق بالتحرر والتجرد من أواصر المادة الحقيرة وأغلال المصالح العفنة..

عبد وحر؟؟؟!!

البعض يرى أنهما ضدان

والحقيقة أنهما كذلك إلا في تلك الحالة الفريدة..

حينما يكون عبدا لله وحده متحررا من غيره..

و هذا ما فعله صاحبنا الذي نتكلم عنه..

عبد الله الحر..

قال رسول الله ﷺ: «**طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قدماه إن كان في الحراسة كان في الحراسة وإن كان في الساقة كان في الساقة إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع**».

لقد بدأ حبيبى ﷺ بذكر أول قيد وأسر تحرر منه صاحبنا وهو في قوله: «**آخذ بعنان فرسه في سبيل الله**».

فصاحبنا المذكور في الحديث مجاهد يمتطي فرسه ويطير على صهوة جواده في ربوع الأرض يعلي كلمة الله وينافح عن عقيدته..

وهو هاهنا قد تحرر من أسر المكان ودعة المنزل ورغد العيش المنعم وجاذبية الراحة بين الأهل والمال..

تحرر من كل تلك القيود الثقيلة التي يخلد الإنسان بها إلى الأرض وأصم أذنيه عن دعوى إبليس الذي قعد لابن آدم بأطرقه ومنها طريق الجهاد فقال تجاهد فهو جهد النفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال فما كان من العبد الحر إلا أن عصاه فجاهد كما أخبرنا رسول الله ﷺ.

ثم ذكر لنا الحبيب **قيدا آخر** تحرر منه صاحبنا الحر وهو قيد المظهر الخارجى وزينته وهو ما يظهر في قوله: «**أشعث رأسه مغبرة قدماه**».

ليست تلك دعوة لأن يكون مظهر المسلم مزريا رث الثياب قبيح المنظر فليس ذاك دأب رسول الله ﷺ ولا سنته القولية أو الفعليه لكنه هنا انـشغال بمعالي الأمور عن سفسافها وتحرر من النظر للمظاهر بينما هـو في سـاحات الوغى ينصر دين ربه ويعلي كلمة مولاه

إنها إشارة إلى استغراق صاحبنا بكامل وجدانه في تلك العبادة العظيمة التي طار إليها على متن فرسه وعشقتها نفسه حتى أنسته أن يهنـدم رأسـه أو يزيل غبرة الحرب عن قدميه المعفرتين بأثر ما من شيء أحب إلى الله منه كـما صح عن رسوله ﷺ..

أثر في سبيل الله..

أما **القيد الثالث** الذي تحرر منه عبد الله الحر فهو ما ذكره رسول الله ﷺ في قوله: «**إن كان في الحراسـة كـان في الحراسـة وإن كـان في الـساقة كـان في الساقة**»..

إنه **قيد حب المناصب** والإمارة وياله من قيد ذلـت لـه أعنـاق الرجـال وخضعت له رقاب الصناديد..

حب الإمارة والحرص عليها الذي شبه النبي ﷺ من ابـتلى بـه بالطفـل الذي عن الرضاع قد فُطِم..

طهر قلب صاحبنا من ذاك الداء فلم يشغله منصب ولم تستهوه إمارة

حيثما استعمل عمل وأينما وضع أبلى بلاءً حسنا..

إن كان في الساقة - مؤخرة الجيش - جاهد ولم يتخلف

وإن طلب منه أن يكون حارسا على المتاع أو الأفراد لم يتذمر

ما أشبهه بابن الوليد رضي الله تعالى عنه حين عزله أمير المؤمنين عمر فاشتد في جهاده وهو جندى بما لا يقل عن جهده وهو أمير فجاء المرجفون يخذلونه عن ذلك ويثبطونه زاعمين ان الجندية ليست شرفا كافيا وأن عمر رضي الله عنه لم ينزله منزلته المستحقة ففيها التعب وفيها البذل؟

وإذا بخالد رضي الله عنه يصدع بها خفاقة «**إنما أفتح الشام لله لا أفتحها لعمر**»..

و رحم الله المجاهد الفلسطيني عبد الله عزام حين سألوه عن طبيعة عمله في جهاد الروس المحتلين فقال إنما نجلب الأحذية ونحملها للمجاهدين فهم يحتاجون لمن يفعل ذلك ونحن من نقوم بهذه الخدمات لهم..

أى تجرد هذا؟

بل أى تحرر هذا؟

لو شاء هؤلاء لطالوا نجوم المجد بأيديهم ولاستجلبوا أعتى المناصب والمراكز لكنهم آثروا الذكر عند مولاهم فخلد في العالمين ذكراهم لأنهم لم يطلبوا إلا رضاه ولم يسعوا إلا لخدمة دينه كما نحسبهم والله حسيبهم..

ثم جاء ذكر **القيد الأخير** وما أصعبه من قيد وما أشده على النفس..

إنه قيد الوجاهة والمكانة بين الناس..

يظهر في قوله ﷺ: «**إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع**»..

عبد الله الحر الذي ذكره حبيبى ﷺ في هذا الحديث البديع هو رجل ليس له مكانة ظاهرة بين الناس..

لا يقدرونه ولا يأذنون له بالدخول إذا استأذن ولا يقبلون شفاعته إذا شفع..

رجل بمعيار أهل الدنيا لا سعر له ولا قيمة..

لكن هذا لم يضره..

إن لم يكن له قيمة عند الناس فيكفيه أن له قيمة عند رب الناس

كمثل زاهر بن حرام رضي الله عنه حين قال لرسول الله ﷺ: إذا تجدنى كاسدا يا رسول الله فقال له ﷺ: «**ولكنك عند الله لست بكاسد**»..

هذا هو المعيار الحقيقى القدر عند الله لا عند الناس ورب أشعث أغبر ذى طمرين مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره..

عبد الله الحر تحرر من أسر تلك المطالب كلها فاستحق أن يعده النبى بكلمة ما أحلاها وما أعظم بهاءها..

لقد وعده بطوبى..

و ما أدراك ما طوبى

اختلف المفسرون في معنى طوبى في قوله تعالى:

﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾..

فروي عن ابن عباس أن معناه: فرح وقرة عين..

وعن قتادة: أصابوا خيراً..

وقال ابن عجلان: دوام الخير..

وقيل الجنة، وقيل شجرة في الجنة..

هذا كله لعبد الله الحر المتجرد الذي تجرد من كل تلك الآصار والأغلال الأرضية ليسمو بروحه عن كل تلك المطامع ولا يبقى في نفسه إلا شعارا واحدا ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴾.

وعلى النقيض عبد آخر ذكره الحبيب في نفس الحديث

عبد الدينار والدرهم

عبد الخميصة والقطيفة

عبد شهواني طماع إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط فتعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش..

عبد ممزق بين شركاء متشاكسين يرزح تحت أغلال عبوديته لهم قال عنه مـــــــولاه ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾.

عبد وعبد لكن شتان الفارق بين العبدين

شتان الفارق بين عبد كـل شـيء إلا الله ذلـك العبـد الـسجين خلـف قضبان هواه.

و بين صاحبنا العبد الحر.

عبد الله الحر..

❊ ❊ ❊

صدقوا وصدَّقوا

(٢٩)

صدقوا وصدَّقوا
(٢٩)

«المستقبل لهذا الدين، وعد رب العالمين، وبشارة رسوله الأمين، ويقين عباده الصادقين المصدقين»

هوى بمعوله على تلك الصخرة..

ضربة قاسية هي!

لكن الصخرة عنيدة..

لم يحدث شيء!

هوى به مرة أخرى..

وثالثة.. ورابعة..

لا فائدة..

الصخرة الكأداء صلبة للغاية، ويبدو كسرها مستحيلاً..

رفع عينيه يبحث عن عون فيمن حوله، من بين طبقات الغبار الكثيف الذي يتصاعد في المكان، وقد تعالت أصوات المطارق والفئوس تحفر في الأرض بهمة ونشاط؛ لم ينقص منهما الجوع الذي تتلوى منه بطون القوم

ما العمل؟

لا يمكن ترك هذه الصخرة هكذا..

لابد أن تُكسَّر..

الوقت يمر بسرعة.. والانتظار ليس في صالحنا وجيوش الأعادي على الأبواب..

يا قوم من لهذه الصخرة؟

التفت القوم إلى مصدر النداء، وبدأت طرقات المعاول تتخافت رويدًا رويدًا، وقد تقدم حاملوها للمساعدة في تحطيم تلك الصخرة العنيدة..

محاولات حثيثة لكن بلا فائدة!

الصخرة صلبة، لا تزحزح عن مكانها!

فليُرفع الأمر إليه إذن..

إنه هناك في الناحية الأخرى من الموقع..

لا ليس في خيمة مريحة، ولا في ظل شجرة وارفة مليحة!

إنه معهم، وبينهم؛ يعمل مثلهم.. بل أكثر منهم!

ها هو يبدو من بعيد، وقطرات العرق النضيد تلتمع على جبينه الأنـور العريض، بينما على بطنه صخرة تُصّبر معدته الخاوية، على لأواء الجوع وشدة المخمصة العاتية..

لقد أبى إلا أن يشارك جنده كل شيء!

فليس بمَلِك، ولا سلطان، إنما هو عبد الله، ورسوله ﷺ..

و الخطب جلل..

و التكليف عظيم يحتاج إلى كل ساعد يساعد..

خندق طوله خمسة آلاف ذراع، بعمق لا يقل عن سبعة أذرع، وعـرض لا يقل عن تسعة أذرع، حري بالجميع أن يتكاتفوا ويتآزروا لحفره..

و ما كان للحبيب ﷺ ألا يصبر نفسه مع المؤمنين، ويتقدم صفوف المجاهدين، فهو سيد المتواضعين، وإمام الباذلين المضحين..

هلموا إليه، وخَبِّروه بشأن الصخرة العنيدة؛ لعل الله يفتح بيديه الشريفتين، بأبي هو، وأمي، ونفسي، ومالي، وعيالي..

ها قد أشرق بوجهه الذي لم تستطع سحب الغبار الكثيف أن تحجب نور النبوة الذي يسطع من بين قسماته الوضيئة

تهللت أسارير القوم، وقد أنساهم قربه لفح الحر، وعناء الحفر، وقسوة الجوع..

تناول المعول من صاحبه الفارسي؛ صاحب هذا الاقتراح العبقري الذي يعكفون على تنفيذه منذ أيام..

ها هو يرفع يديه الشريفتين بالمعول، ذاكرًا ربه جل وعلا، مستفتحًا باسمه..

الله أكبر.. لقد انشقت الصخرة العنيدة، والشرر يتطاير من أثر احتكاك المعول بها، وكأنه البرق يسطع..

«**الله أكبر.. تمت كلمة ربك صدقا، وعدلا، لا مبدل لكلماته، وهو السميع العليم**

أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر من مكاني الساعة»!

ماذا؟!

فى تلك الأحوال العصيبة..

فى هذه الظروف القاسية؛ تبشرنا؟ !

سبحان الله!

تبادل بعض الحاضرين نظرات ذات مغزى، وسرى بينهم حديث بلغة العيون، فحواه التكذيب، وخلاصته الاستهجان..

إنها الوجوه المتشككة نفسها؛ التي تطل علينا في كل مرة..

وجوه مستريبة، تعلوها غبرة النفاق، وتظهر على قسماتها قترة الحقد، والتربص..

ويكأن عيون الحقد والنفاق تتراسل قائلة: نحفر خندقًا لأول مرة في تاريخ العرب، وقد رمتنا قبائلها عن قوس واحدة، بعدد لم تشهده حرب في جزيرتنا قط، ومحمد يعدنا أرض الروم؟!

قطع سيل أفكارهم، ونظراتهم؛ صوت الضربة الثانية، ورسول الله ﷺ يهوى بها على الصخرة..

«**الله أكبر... أُعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض من مكاني هذا، أخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليهم فأبشروا بالنصر**»..

بشارة نبوية في ذات اللحظة التي تطاير فيها الشرر البارق من الصخرة المتهاوية التي لم يتبق منها الشيء الكثير..

ازدادت حدة نظرات الريبة من نفس الطائفة المستريبة، وتواصل حوار العيون من جديد..

أي مدائن يعني؟!

أويقصد مدائن كسرى؟

هل غرَّ هؤلاء دينهم لهذه الدرجة؟

كسرى!!

أنَّى لنا بكسرى، وقيصر؛ ونحن لا نعلم ماذا يفعل بنا العرب غدا، أو بعد غد؟!

انقطع سيل الأفكار، وتمزقت خيوط الظنون من جديد، حين دوى صوت الضربة الثالثة في المكان، وتوهج بريق الشرر المتصاعد من حطامها، بينما تتعالى الصيحة يجللها التكبير: «**أُعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة**»..

اليمن أيضا؟!

إن هذا لشيء عُجاب!

هكذا تسارعت الأفكار لرؤوس مظلمة، حملتها أعناق المتربصين، ولسان حالهم الذي لم يلبث إلا أن صار لسان مقالهم حين خلوا إلى شياطينهم: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾..

خفافيش ظلام تكره النور، وتنفر من السرور الذي فاض من حروف الرسول ﷺ، إلى قلوب الصادقين المُصّدِقين..

أفي تلك اللحظات سرور، وحبور؟!

ونحن في غمرات هذا الخوف، والجوع..

كيف؟!

ألمجـرد صـخرة تتهـشم، مثـل هـذا الأثـر البـالغ عـلى قلـوبكم أيهـا المصدقون؟!

أم إنها البشارة أنتم بها موقنون، والنصر المبين أنتم له منتظرون؟

هذا هو الفارق الجوهري، بين من هم بموعود ربهم مـؤمنين، وبيـنكم أيها الضالون المكذبون..

أما الأولون فلا يضيرهم رهق الخوف، ولا تنال منهم شدة الجوع، ولا يؤذيهم نقصان أمنهم؛ فإن جنانهم، وبساتينهم في صدورهم، في ظلال يقينها يرفلون، ومن ثمار صدقها يقطفون..

وأما الآخرون فأسرى لخوفهم، يَصلون لهيب جبنهم ولفـح خـورهم، ويتقلبون في جحيم حقـدهم وشـكهم، فـأنى لقلـوبهم أن تـدرك الفـسحة والحبور، وتنال من فيض السرور؟!

إنه الفارق بين من شعاره حـين يـرى جحافـل الكفـر قـد احتـشدت، وأحزابه قد تمالأت: **هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا** ..

وبـين مـن لا ينقطـع عـن التـشكيك ناعقـا: **مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا** ..

إن هذا الزلزال الشديد، الذي تعرضت له المدينة في هذه الغـزوة، كـان كافيا لتتكشف الفوارق، ويحدث التمايز..

كان كفيلا بإظهار من يعبد الله على حرف، وما إن يأتى البلاء حتى ينكص على عقبيه، ويظن بالله الظنونا..

فما إن جاءت الأحزاب، واصطفت قريش وغطفان وفزارة وأشجع ومرة بجنودهم، حتى دارت أعين في محاجرها، كالذي يغشى عليه من الموت..

إنها **أعين المنافقين**..

أولئك الجبناء، الذين لا ينكئون عدوا، ولا يصلون صفا، ولا يسدون ثغرا..

قوم لا تجد منهم إلا التخذيل، ولا ينالك من ألسنتهم الحداد إلا التخويف، والتبطيء، ولا يأتون البأس إلا قليلا..

﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ﴾

يثرب؟؟!!

و ما يثرب؟

عجيب قولهم يثرب..

ذلك الاسم الذي له وقع غريب على الأذن، وصدى عتيق في القلب، يذكر بأيام الشرك والظلام..

يثرب!

ألم يندثر هذا الاسم ويزل ذكره عن الألسنة؟

ألم يُنس هذا الاسم؛ وقد أبدلنا الله خيرا منه، لما جاءنا الحبيب، فأنار من مدينتنا كل شيء، وصارت يثرب هى مدينة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه؟

ومن حينها صار اسمها المدينة النبوية وطيبة وطابة وطائب، وغير ذلك من الأسماء الحسنة التي امتن الله بها على مدينتنا..

فلماذا العودة إلي مثل هذا الاسم، الذي ارتبط في أذهان الجميع بعهود الشرك والضلال؟

هل ظننتم أن تكالب الأحزاب حولنا، واستئسادهم علينا، ورمى العرب لنا عن قوس واحدة، سيجعل الزمن يعود إلى الوراء، فينصرم الأمر، وينتهي الخير، وينفض الخلق؟

هل سولت لكم أنفسكم أن تتخيلوا أن فتح الله لمدينتنا، وإكرامها بنور الوحى، الذي أضاء جنباتها وقلوب أهلها،كان حلما جميلا، سنستيقظ منه على أصواتكم القبيحة، وهى تؤذي أسماعنا بتلك الكلمات المثبطة؟

هل توقعتم أن إرجافكم وتشكيككم سيفُت في عضدنا، أو يزعزع ثقتنا، أو يقوض عزائمنا؟

هيهات هيهات..

انظروا إلى تلك الأحزاب التي بها تخوفوننا..

انظروا إلى عدتهم وعتادهم وسيوفهم ونبالهم وعددهم وبأسهم الـذي لم تشهد مثله مدينتنا..

انظروا إلى حساباتكم المادية التـي تكـادون أن تعبـدونها مـن دون الله، وقد أكدت لكم أننا سنُمحى من على الأرض محوا في هذه المواجهة..

انظروا إلى كل ذلك، وتأملوه، واسترسلوا في وهمه..

و بينما أنتم تنظرون وتمنون أنفسكم بزوالنا فلتسمعوها منا، ولتـدعوها تقرع آذانكم، وتقض مضاجعكم، وتؤرق أجفانكم..

اسمعوها وعوها جيدا، فلا نقـول غيرهـا في مواجهـة أحـزابكم وعـددكم وعدتكم..

اسمعوا منا فلن نقول إلا:

هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا

نعم..

فهذا الذي ترونـه تهاويـا لأمتنـا، وتـداعيا لـدولتنا، نـراه نحـن بدايـة لمجدها، وفاتحة لعزها، وتحقيقا لموعود نبيها..

نرى في ذلك الزلزال الشديد، والبأس الرهيب، نصرا مـن الله، وفتحـا عن قريب..

نرى بعين قلوبنا مدائن كسرى وقصره الأبيض، وأبواب صنعاء، وقصور الشام الحمراء..

نراها بقلوبنا، تصديقا لوعد نبينا..

و إن كان أحدنا لا يأمن الآن أن يخرج في تلك العاصفة، ولو لقضاء الحاجة، خشية سهم عدو، أو حربة محارب،أو حتى تخطف ريح هادرة، إلا أن كل ذلك لا يؤثر ولو للحظة علي يقيننا..

فقد وعد نبينا، وهو لا ينطق عن الهوي، ولكن يبلغ عن مولاه الذي ما ودعه وما قلاه، فهو وعد من الله، ولا يخلف الله وعده..

أما أنتم أيها الأشحة الجبناء، يا من كنتم قد عاهدتم الله من قبل لا تولون الأدبار..

يا من أذقتمونا دوما مر إرجافكم، وجرعتمونا علقم تعويقكم، وما رأينا منكم يوما إلا أفولا وإعراضا وانسحابا وفرارا؛ فاسمعوها من ربكم ثم منا:

﴿لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾..

فهلا خبرتمونا:

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾..

ها قد ذهب الأحزاب، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا، وكفى الله المؤمنين القتال، بريح من عنده، وجنود لم تروها، فهل نفعكم جبنكم وخوركم، أم أنكم لازلتم تحسبون الأحزاب لم يذهبوا؟

بل قد ذهبوا، وقد أعلنها نبينا ﷺ عالية خفاقة:

«**الآن نغزوهم ولا يغزوننا**»..

إنه عهد جديد يبدأ..

عهد لم تصدقوا يوما أنه سيأتى..

عهد تمكين، جاد أقوام بأنفسهم، وسالت دماؤهم، وقضوا نحبهم، مصدقين بأنه آت لا محالة، وإن لم يروه أو يدركوه، وبقى آخرون ينتظرون أن يلحقوا بهم أو ينصروا..

عهد رجال صدقوا..

و صدّقوا..

و ما بدلوا تبديلا:

مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا .

كلا .....

(٣٠)

كلا ... (٣٠)

المكان: شاطئ بحر القصب المسمى حاليا بخليج السويس..

الزمان: قبل أكثر من ثلاثة آلاف سنة صباح اليوم العاشر من المحرم المعروف بعاشوراء

من بعيد بدت العاصفة الرملية..

أصوات تتعالى تدريجيا مع اقتراب الغبار الثائر..

صليل معادن ودبيب مدوٍ يتصاعد، وكأنه وقع سنابك خيل يختلط بصهيلها الذي يتضح رويدا رويدا..

يبدو أنه ما كانوا يفرون منه.

ليست عاصفة رملية إذن!

إنها سحابة تراب أثارته سنابك خيل الطاغية.

تردد الخبر بين الجمع الواقف على مشارف بحر هائج ترتطم أمواجه بأقدامهم ثم تعود آفلة إلى منبعها لتتلوها أمواج أخر..

توجهت أنظار الجمع القلق إلى الجيش الجرار الذي يقترب بخطى حثيثة..

يبدو أنه لا فائدة..

سرى ذلك الشعور في قلوب قوم ما انفكوا عن الإرجاف لأعوام وقد أفسدت فطرتهم عقود من الظلم والاستعباد جعلت شعار لومهم لمنقذهم وقائدهم: **أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ**..

لم يتغيروا على ما يبدو..

اليأس نفسه والخوف الذي طالما صاحبهم يظهر الآن من أعين تدور في محاجرها كالذي يغشى عليه من الموت..

إنا لمدركون..

كلمتان حوتا العديد من المؤكدات اللفظية نطق بها بنو إسرائيل بأصوات رعديدة تقطر بالفزع وتنضح بفقدان الأمل..

ويكأنهم نسوا كل ما مر بهم..

ويكأن كل الآيات التي رأوا فيها تجليات قدرة ربهم يجريها على يدي قائدهم قد تم محوها من أذهانهم..

يا لضعف ذاكرتكم!

أنسيتم العصا المتحولة واليد البيضاء من غير سوء آية أخرى؟

أغفلتم عن الجراد والقمل والضفادع والدم التي ابتلي بها عدوكم ومذلكم وقومه بينما نجاكم الله منها؟

ويحكم، أين عقولكم؟!

إنه نبيكم ومنقذكم الذي ما كذبكم يوما..

أولم يعدكم أن يهلك ربكم عدوكم ويستخلفكم في الأرض من بعدهم فينظر كيف تعملون..

فمالكم كيف تحكمون؟!

كل هذه التساؤلات المنطقية لم تخطر على بالهم ولئن خطرت لأزاحوها مستكبرين

حتى كانت الصفعة..

صفعة يقين على قلب كل مرجف واهن أكد بيأس أنهم مدركون..

صفعة بكلمة من ثلاثة أحرف بددت غيابات الإرجاف البادى من صياحهم..

- **كلا ...**

قالها الكليم وضيئة تتلألأ بأنوار العقيدة..

كلا ...

قالها حاسمة قاطعة لا شك فيها..

و كيف لا يفعل وهو من رقى درجات الثقة درجة تلو أخرى؟

كيف لا يفعل وقد تعلم الدرس مرة بعد أخرى؟

تعلم أنه لا يخاف لدى الله المرسلون..

تعلم ألا يخاف وهو الأعلى بإيمانه..

تعلم أنه بآيات ربه ومن اتبعه الغالبون..

و تذكر الوعد الربانى..

الوعد الذي كلمه به ربه منذ أعوام مخاطبا إياه وأخاه:

لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى..

هذا الوعد الذي وجد قلبا خصيبا لتنمو فيه جذور الثقة المطلقة في مآل الأمر وتنبت منها شجرة طيبة من يقين راسخ أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها.

وكان من أكلها أن قال بعد حرفه الحاسم: **إِنَّ مَعِيَ رَبِّي** ..

إنه يدرك معنى المعية؛ معية الملك الحق..

فكيف يخاف أو يشك؟!

إن معه ربه يسمع ويرى..

لا شك إذا أنه سيهدى..

لذا قالها بحزم نافذ: **سَيَهْدِينِ** ..

لكن كيف؟!

لا توجد أسباب..

من أمامهم بحر لجى ثائر لا يأمن أصحاب السفن على أنفسهم فيه، فما بالك بقوم قد أجهدهم طول المسير في صحراء مصر الشرقية وقد جفت حلوقهم وجلودهم تحت حر شمسها، ولا مركب لهم إلا أقدام قد كلت من عناء الرحلة..

ومن خلفهم طاغوت وجيش هادر لا هم لهم ولا غاية إلا إفناءهم..

من أين أتيت بهذا اليقين يا موسى؟!

دلنا إذا على المفر وخبرنا بربك عن طريق النجاة.

و من أدراكم أنه يعرف بعد؟!

إنه يصدق ربه، وهذا قد يسبق علمه بالتفاصيل لكنه يوقن أنه سيعلم في الوقت المناسب..

وها قد علم..

لقد جاء الوحى..

ووصل روح القدس القوى الأمين..

ها هى العصا ترتفع من جديد لا لتتحول هذه المرة إنما لتُحَوِّل..

لتحول مغرقا عميقا، إلى ملاذ آمن، وسبحان من جعل المغرق ملاذا، والملاذ مغرقا!

لقد كان الملاذ يوما مغرقا لولد نوح عليه السلام، فلم ينجه جبل آوى إليه ولم يعصمه ارتفاعه من أمر الله..

و ها هو المغرق يتحول إلى الملاذ الوحيد الذي سيأوي إليه موسى وقومه..

مشهد مهيب لم تر الدنيا مثله..

جبلان عظيمان من الماء كأنهما شلالان يهدران عن اليمين والشمال وبينهما أودية ضيقة يختلط طين أرضها بشعب مرجانية حادة يجاهد القوم في تفاديها والمرور من خلالها..

يا له من مشهد ويا لها من آية!

لقد انشق البحر فكان كل فرق كالطود العظيم..

مر بنو إسرائيل يسارعون الخطي، ولو نظر أحدهم إلى جبل الماء بجواره لربما أفزعه ظل حوت عملاق يتجول، أو سرب مخلوقات بحرية تسبح باحثة عن رزقها، ولا يفصل بينهم وبين أن يكونوا رزقها إلا أمتار قليلة.

لكن الله أراد لهم أن يمروا..

و أن يأمنوا وينجوا.

من بعيد كان المشهد مختلفا..

الزمان: قبل قليل من الأحداث السابقة

المكان: على بعد مئات الأمتار منها..

إنه ركب الطاغوت وجيش الظالم مدعي الألوهية والجبروت..

مائة ألف فارس على مائة ألف أدهم بخلاف العبيد والخدم..

إنه ركب **فرعون**.

ابتسامة عريضة تعلو شفتيه الغليظتين وقد بدا له مبتغاه من بين سحائب الغبار التي تثيرها سنابك خيله ورجله..

ها هو الجمع يظهر من بعيد على ضفاف بحر بلاده..

- ليس لهم من ملجأ مني الآن..

هكذا قال لنفسه..

الآن حان وقت الخلاص من أولئك المتمردين الذين يشككون في ربوبيته، ويزعزعون ركائز أسطورته..

آن الأوان ليكونوا عبرة لمن يأتي خلفهم وتسول له نفسه أن يحذو حذوهم..

ازدادت ابتسامته اتساعا وهذه الأفكار تتردد في ذهنه متـذكرا أحـداث الساعات والأيام السابقة..

نشوة رهيبة تملأ صدره العريض حين استرجع قدرته على تشويه موسى ومن معه ببعض كلمات استخف بها قومه فأطاعوه..

إن هؤلاء لشرذمة قليلون..

هكذا حقرهم وسفه من شأنهم أمام قومه..

ثم جاء وقت التحريض..

إنه حريص على أن يبدو في مظهر المشاور الذي لا يأخذ قرارا بمفرده..

تنهد وكادت تفلت منه ضحكة ساخرة حين تـذكر كيـف حـرك قومـه كقطيع من الماشية بقوله..

و إنهم لنا لغائظون..

و إنا لجميع حاذرون..

لقد تحدث بلسانهم وسيطر على أفكارهم وما أراهم إلا ما رأى..

يا ليتها حتى كانت خطبة عصماء طويلة..

إنها بضع كلمات خدع بها شـعبا مـن المـستخفين اسـتحقوا أن يكونـوا بذلك من الفاسقين..

و ها هو قد دنا من بغيته واقتفـى أثـر عـدوه واقتربـت المواجهـة التـي اشتاق إليها منذ أعوام أذله فيها موسى مرة تلو أخرى..

نعم أذله..

هذه هي الحقيقة حتى ولو لم يعترف بذلك أمام أحد، لكنه كان يوقن بذلك في قرارة نفسه..

لقد هزمه في كل تحدٍ..

علا عليه في كل مفاصلة..

و هل ينسى يوم النيروز..

يوم الزينة حين ألقى سحرته ساجدين وآمنوا برب موسى وهارون..

يا له من يوم محرج ووصمة عار في تاريخه..

صحيح أنه أطاح بأولئك السحرة المتمردين المتآمرين لكن المرارة لم تفارق حلقه قط؛ مرارة الهزيمة وفزع المشهد حين رأى عصا موسى تلقف أفاعي أتباعه..

ومرارة ثبات السحرة الساجدين وابتسامة الرضا العجيبة التي كانت تعلو قسماتهم أثناء صلبهم وتمزيق أجسادهم على يديه

والمرارة الأكبر حين اضطر أن يبعث لموسى يرجوه أن يدعو ربه ليكشف الرجز والمجاعة والآفات التي حلت بقومه..

اختفت ابتسامته وتلاشت نشوته، حين بلغت الذكريات هذا المبلغ..

لقد اجترأ موسى على تحديه في كل موضع، وقلَّب عليه أقرب الناس إليه، حتى وصل الأمر إلي امرأته التي آمنت بموسى، وإلي صاحبه وقريبه الرجل المؤمن الذي وقف هو الآخر يتحداه على الملأ..

لكن لا بأس..

ها قد حانت لحظة الانتقام..

سيذكر التاريخ طويلا هذا اليوم وسيجعل عاشوراء عيدا يحتفل به المصريون ويتذكرون كيف نكل إلههم فرعون بهؤلاء المتمردين الذين يبدون قليلى الحيلة من بعيد..

لكن..

مهلا..

ما هذا؟!

ما هذا الذي يحدث للبحر؟!

ما هذا الصوت الهادر الذي يصم الآذان؟!

تسمر الجيش في مكانه، وجفلت الخيل، وكادت أن تسقط براكبيها لهول المشهد..

إنه الموج يتعالى..

ما يحدث وتراه العين شيء مستحيل..

لقد صار الموج يصافح السحاب وكأنه طود شاهق!

هلموا أيها الرعاع..

تحركوا..

أدركوهم..

لا يمكن أن يفلتوا هذه المرة..

أسرعوا فلقد كادوا يغيبون عن البصر وتطويهم ظلال جبلى الماء..

هيا اقتحموا، ما لكم تترددون؟

إن كان موسى قد عبر فما يمنعنا من العبور خلفه؟!

إنها مجرد ظاهرة طبيعية لعلنا فقط لم نسمع بها من قبل..

هيا أيها الجبناء..

ها أنا ذا أتقدمكم لا يرهبنى هدير الماء ولا ظلال متجول الحيتان..

تقدم الجند على مضض حين رأوا قائدهم الأحمق يقتحم تلك المخاضة المرعبة..

تقدموا يهمهمون باعتراض مكتوم، لم تمكنهم نفوسهم المستخفة الفاسقة من البوح به، رغم أنهم يشعرون بقدر الحماقة التي هم مقبلون عليها..

إنهم يعلمون جيدا أن هذه معجزة جديدة من معجزات موسى فكيف يأمنون ألا تسلط عليهم؟

يالكبر قائدنا وغروره!

هلموا أيها الجبناء..

رددت جبال الموج صيحة قائدهم يستحث خطاهم للحاق بـه في قعـر البحر المشقوق..

بدأ القلق يخبو شـيئا فـشيئا وقـد صـاروا في منتـصف المـسافة تقريبـا، وظهرت أضواء الضفة الأخرى على مرمى البصر..

ها قد اقتربنا ويبدو أنه قد صدق قائدنا..

أسرعوا الخطى فهاهو موسى وقومه يظهرون على الضفة الأخرى وقـد عبروا بسلام..

وفرعون يحث الخطي ويكاد يطير بفرسه..

هل هو قلق؟

هل هو خائف أن نكون وحدنا بين جبلى الماء؟

أين ثقته التي كانت تقطر من حروفه منذ قليل حين حمسنا للدخول؟!

لكن البحر التأم

هكذا فجأة وبدون مقدمات..

التأم

انطبق..

اتصل الفرقان واندمج الشقان

هكذا ببساطة..

عاد البحر لسابق عهده وارتطم جبلا الماء!

غاب الجند في الأعماق وكتمت الأمواج صرخاتهم فلا تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا..

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾..

صوت مكتوم منفرد هو المسموع الآن..

صوت يغرغر مختنقا بعبرات تختلط ملوحتها بملح البحر وطميه الذي يدسه جبريل في فمه الفرعونى المنعم..

- آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ..

يا لها من عبارة طويلة بالنسبة لهذا الموقف العصيب..

كل تلك الحروف والكلمات وليس فيها الكلمة الأعظم!

ليس فيها اسم الله!

ألهذه الدرجة ثقل لسانك الأثيم عن النطق باسم الله؟!

تدعي الإيمان الآن؟

- ءَآلۡـَٔـٰنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ..

و ليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن.

ازداد الاختناق وتوالت السكرات والحسرات والندم على ما فات..

لكن هيهات هيهات..

لقد هلك..

و مات..

مات أفجر طاغية عرفته البرية..

مات من قال أنا ربكم الأعلى وما علمت لكم من إله غيرى..

مات الذي قال أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى..

ها هى تجرى من فوقه البحار ولات حين مناص..

ها هو يغيب رويدا رويدا تحت الأمواج..

و لكن كلا..

لابد أن يكون آية..

لابد أن يعرف الخلق أنه قد هلك لا يقولن أحدهم إله علا في سماء..

لابد أن يروه والطين في فمه والرعب على قسماته..

﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴾..

اليوم..

يوم عاشوراء..

الذي ظننت يا فرعون أنه سيكون يومك وعيدك الذي سيتحاكى فيه الناس عن بطولاتك وأمجادك..

لقد ظل يوما مشهودا..

يوما من أيام الله الذي جحدته واستكبرت على عباده..

يوما أظهر الله فيه عبده عليك، وتركك آية لمن خلفك..

و صدق الموقن الكليم في حرفه الواثق..

﴿ كَلَّآ ۖ ﴾..

﴿ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ ..

فها هو قد هداه ونصره..

لم تزل الرحلة طويلة، ولم يزل الطريق شاقا، والله ينظر كيف يعملون..

لكنه سيبقى اليوم المشهود..

يوم ظهر الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا..
﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

❊ ❊ ❊

لترحم
(٣١)

لتُرحم (٣١)

يوم قائظ شديد الحرارة هو

الأصباغ تذوب على وجه تلك المرأة من شدة الحرارة واختلاط العرق بذرات الرمال التي تنثرها الرياح الجافة القائظة

أصباغ مبالغ فيها لدرجة قد تثير دهشة من يراها ولربما توحي إليه بتلك الطبيعة التي تخيم على ذلك الوسط المقيت الذي تعيش فيه تلك المرأة وتلقي ظلالا من الشك حول طبيعة حرفتها

ليس هذا دأب الكريمات الحرائر وليس هذا سمتهن!

سرعان ما ستزول تلك الدهشة حين تتبين لك حقيقة تلك الحرفة التي تمتهنها..

نعم..

بَغِيٌّ هي!!

امرأة تحترف الخنى وتمتهن الزنا..

لعلك سارعت بالتعوذ من تلك المهنة القائمة على فاحشة ومقت وسوء سبيل

ولعل ذلك التعوذ انقلب إلى احتقار وازدراء كامل لتلك المرأة الفاجرة وربما لم تجد لها مقاما عندك أكبر من مقام ذاك المخلوق الذي يدور حولها لاهثا

ولعلك قد قطعت بمصيرها وجزمت بمآلها

إنها بلا شك عندك امرأة من أهل النار

والحقيقة أنني لن ألومك على التعوذ واحتقار تلك المهنة فبغض المعصية وكراهية الفاحشة علامة إيمان ..

لكنني أرجوك أن تتمهل برهة قبل أن تقطع لها بمصير أو تجزم لها بمآل

سأطلب منك ابتداءً أن ترقب ما تفعله تلك المرأة في هذا الحر القائظ

أتراها وهي تخلع حذاءها وتدلي الإناء إلى ماء البئر الوحيد في هذه المنطقة الصحراوية النائية ثم تصب من الإناء إلى تجويف حذائها وتضعه على الأرض المتشققة بالجفاف ليقترب ذاك الكلب اللاهث مسرعا وكان قد شارف منذ لحظات على الهلاك من العطش؟

لقد رحمته المرأة

لقد أشفقت لحاله وعطفت على آلامه وهي تبصره يلعق الثرى الملتهب يبتغي رشفة واحدة

رشفة من إكسير الحياة المسمى بالماء.

لعل مشهد المرأة والأصباغ الصارخة على وجهها وطبيعة مهنتها التي قد عرفتها تجعل من المستغرب في نظرك أن يحتوي قلبها على رحمة أو خلق حسن.

ولعل ما فعلته قد أدهشك ولربما حاز شيئا من تقديرك سرعان ما سيزول حين تتذكر تاريخها وسالف فحشها..

كلب؟!

سقته؟!

رحمته؟!

أشفقت عليه؟!

وماذا في هذا؟

إنه مجرد كلب ضال.

ما قيمته وما الخسارة التي ستبوء بها الدنيا لو أنه قد غاب عنها وهلك عطشا؟

لكن كل ذلك عندك أنت

في ميزانك البشري القاصر وفي رحمتك المحدودة مهما عظمت

ولقد رحمه خالقه

ورحمها لرحمتها بخلق من خلقه

هذا القلب الذي ينوء بالآثام كان يحوي وميض رحمة أشعت من أعماقه ووجدت سبيلا إلى خارجه لتطل على جوارح المرأة البغي وتحركها لترحم خلقا من خلق الله وإن حقر في نظرنا.

وإن ذلك الوميض الرحيم قد وجد سبيلا ليغشى نوره ذلك القلب المنهك والجسد الذي طالما فسد وأفسد وليصير بعد كل ذلك محلا صالحا لاستحقاقها

لاستحقاق **رحمته**

رحمته التي وسعت كل شيء

ونفذت عبر كل شيء

ووجدت طريقها إلى كل شيء

كل شيء

مهما قسا ومهما بلغت درجات جفائه وضيق مداخله إلا أن رحمة الله تجد طريقها

وما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها

موقف مذهل هو

من منطلق حساباتنا المحدودة يعد مذهلا

بغي تُرحم لأجل كلب رحمته!!

إن هذا لشيء عجاب

لكن العجب ينبغي أن يتلاشى رويدا رويدا كلما تـدبرت في سـبب مـا حدث لتلك البغي

كلما تدبرت في آثار تلك الرحمة وتأملت خصائصها وتجلياتها تلاشـى العجب والاستغراب من قلبك وحلت محله المحبة والأمل والرجاء والفرحة

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

نعم لابد أن تفرح بتلك الرحمة

هو الذي أمرك بذلك

لكن الأمر ليس فقط تكليفا وإلزاما

بل إن هذه الفرحة تتسرب إلى قلبك ويستضيء بها فـؤادك وتـشرق بهـا روحك كلما عرفت تلك الرحمة

تلك الرحمة التي بدأ الله بها كتابه واستهل بها فاتحته وجـل سـور قرآنـه العظيم

بل استهل بها خلقه كله

قال نبي الرحمة : إن اللهَ خلق ، يـوم خلـق الـسماواتِ والأرضَ ، مائـةَ رحمةٍ . كلُّ رحمةٍ طبـاقُ مـا بـين الـسماءِ والأرضِ . فجعـل منهـا في الأرضِ رحمةً..

. فبها تعطفُ الوالدةُ على ولدِها . والوحشُ والطيرُ بعضُها على بعـضٍ . فإذا كان يومُ القيامةِ ، أكملُها بهذه الرحمةِ

هكذا بدأ الخلق بالرحمة

وهكذا أعلن وكتب على عرشه

«إن رحمتي غلبت غضبي»

وجعلها أول صفة يعامل بها جنسك متمثلا في جدك حين عطس بعد نفخ الروح فيه فقيل له أول كلمة تطرق مسامعه

قيل له : **يرحمك ربك**

إنها أوسع الصفات وأول الصفات وأكثر وأهم ما نحتاج أن يعاملنا به ربنا

الرحمة

تلك الصفة التي أمر الله نبيه ﷺ أن ينبئنا بها

﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

الصفة التي لو علمها الكافر لم يقنط منها ولطمع فيها كما ورد في صحيح مسلم

والصفة التي نهاك مولاك عن القنوط منها مهما كانت دواعي ذاك القنوط

﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

مهما كنت مسرفا عاصيا إياك أن تقنط

إياك أن تفقد الأمل أو تيأس وتنساها

تنسى الرحمة

الرحمة التي جعلت رجلا عاقلا كحماد بن سلمة يقول: لو خيرت يوم القيامة بين أن يتولى حسابي ربي أو والداي لاخترت ربي

قالها لأنه يعلم أنه لا رحمة تداني رحمته أو تقارب عطفه أو تشابه إحسانه بالمخلوق

قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِسَبْيٍ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَبْتَغِي(أي تبحث عن ابنها) ، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ : أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ ؟ قُلْنَا : لاَ وَاللهِ ، وَهِي تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لاَ تَطْرَحَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا) متفق عليه

للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا..

وهذا هو معنى الرحمة وحقيقتها وأجمع تعريفاتها

عطف يقتضي إحسانا على المخلوق بما يصلحه ويسعده ويواسيه في الدنيا والآخرة

فلا سعادة بغير رحمة

ولا خير بدون رحمة

ولا نجاة من كرب الدنيا أو عذاب الآخرة إلا بالرحمة

ولا جنة إلا برحمة

ولن يدخل أحدنا الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله بتلك الرحمة

هكذا قال رسول الله وهكذا أعلنها شاملة جامعة حتى هو بـأبي وأمـي هو «**إلا أن يتغمدني الله برحمته**»

لا استثناء

الكل بحاجة إلى الرحمة

حتى نبي الرحمة ﷺ

وهي واسعة

رحمة الله واسعة

هكذا أخبرنا في كتابه

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾

﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾

وهكذا علمنا مبعوثه بالرحمة

حينما شعر الأعرابي الذي بال في المسجد بامتنان شديد لرحمة النبي ﷺ به وحرصه عليه فقال اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم أحدا معنا

هنا خرجت الكلمات النبوية الوضيئة معلنة تلك القاعدة

لقد تحجرت واسعا

فإن رحمته واسعة

وسعت قاتلا حين قرر التوبة وغادر أرض السوء التي قتل فيها مائة نفس فظن ألا تدركه الرحمة

هنا صحح فهمه ذلك العالم الذي يعرف ربه ويعرف رحمته فقال ومن ذا الذي يحجب عنك التوبة

وبالرحمة قرب الله الأرض الطيبة قدر شبر لتذهب بالرجل ملائكة الرحمة

قاتل هو نعم

لكنه تائب

ووسعته الرحمة

ووسعت الغامدية

تلك المرأة التي زنت ثم أتت للنبي تريد أن تتطهر بحد الله

لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ولو قسمت على أهل المدينة لوسعتهم

إذن فقد وسعتها الرحمة

ووسعت البغي من بني إسرائيل التي قدمت بقصتها

وكم من عصاة شملتهم الرحمة

كم من قساة ألانت غلظتهم الرحمة

كم من مسرفين لم يكن إسرافهم كافيا ليطردوا من تلك الرحمة

بل إن رجلا تألى على الله مضيقا تلك الرحمة وزاعما أنها لن تصيب آخر يعصي مولاه

فلم تنفعه طاعته وطرد من تلك الرحمة رغم سعتها وشملت ذلك الذي احتقره وحجر رحمة الله عنه

لماذا؟!

لأنه تألى على الله وضيقها

ضيق الرحمة التي وسعت كل شيء.

والتي إن قضى الرحيم أن تفتح فلن يغلقها أو يمسكها أحد:

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

إنها رحمة نافذة

- **نفذت إلى النار** فكانت بردا وسلاما ورحمة على إبراهيم
- ونفذت تحت نصل السكين وقد تُل إسماعيل للجبين فكان البلاء المبين ثم الفداء العظيم
- **نفذت إلى السجن** والأسر والظلم فخرج يوسف منه عزيزا لمصر وعلى خزائنها أمين
- **ونفذت في ظلمة الليل والبحر وظلمة بطن الحوت** فنجى الله بها يونس من الغم وكذلك ينجي المؤمنين
- **ونفذت إلى موسى** في مواجهة فرعون اللئيم

- وإلى أهل الكهف في كهفهم المظلم الموحش فجعل الله لهم فيه مرتفقا والشمس تقرضهم عن الشمال واليمين
- **وإلى أصحاب الصخرة** خلف أثقال صخرتهم العتيدة.

نفذت رحمة الله إلى كل هؤلاء وإلى غيرهم ممن احتاجها وقضى الله أن تصل إليه فلم يمسكها أحد

وما كان لأحد أن يفعل.

﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾

لأجل ذلك نفرح

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾

ونرضى برحمة خير مما يجمعون

«**لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون**».

لكن هذا لا يكون بتمامه حتى ننظر ونتأمل ونتدبر

نتدبر في رحمته التي أمرنا أن ننظر إلى آثارها في الكون المحيط بنا

آثار الرحمة التي هي جزء واحد من مائة جزء جعل في الأرض منها جزءا واحدا

رحمة واحدة هي هذه التي نشهد كل آثارها وبها يتراحم الخلائق.

مليارات الأمهات والآباء من كل المخلوقات

ملايين الأطباء

آلاف الراحمين والمنفقين والساعين على الأرامل والمساكين

كل أولئك يذكرونك الرحمة

أي مظهر رحمة ينبغي أن يذكرك برحمته فكل هذا جزء من جزء من مائة جزء من تلك الرحمة الإلهية

وكما أنه ليس كمثله شيء فإن رحمته ليس كمثلها شيء ولا نستطيع أن نتخيلها أو نحيط بها علما

ما نملكه فقط هو أن ننظر إلى آثارها ونشعر بجمالها

﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾

ولقد وجه الله الأنظار في هذه الآية إلى التأمل في مشهد كوني بديع ربما يمر أمام أعيننا كثيرا دون أن نلقي له بالا أو نأبه به ذلك لأن إلف العادة وقلة التدبر قد يجعله مشهدا تقليديا في نظر البعض وينزع عنه ذلك الإبهار المفترض لمن شاهده لأول مرة

لمن شاهد أرضا جرداء متشققة قاسية تلقى إليها حبة بيضاء وتسقى بسائل لا طعم له ولا لون فتهتز وتربو وينبت منها زرع مختلف ألوانه بديع منظره طيب أكله

لولا ذلك الإلف والتعود لفغرت الأفواه ولاتسعت الأعين ولخفقت القلوب إجلالا وتعظيما وانبهارا بهذا المشهد

بل وبكل مشهد يحمل في طياته شيئا من آثار رحمة الله التي تحول القسوة إلى لين والشدة إلى يسر والجفاء إلى خير وبر

لو أردت أن أضرب لذلك مثالا تقريبيا لضربت مثلا بسهم المعـادلات الكيميائية التي يدرسها الطلبة

ذلك السهم الذي يوضع فوقه رمز المُعامل أو المحفز الذي يجعل ما على يمين السهم يتحول إلى صورة مختلفة في الجهة الأخرى منه

وكذلك الرحمة

لو وضعت فوق سـهم التفاعـل مـع أي شيء في هـذه الحيـاة القاسـية الجافة لوجدنا على الجهة الأخرى شيئا آخر مختلفا تماما

لوجدنا آثار تلك الرحمة

ضع معاصي وذنوبا وقسوة قلب وآثاما وغلظة طبع وحدة خـصال ثـم اجعل على سهم التفاعل رحمة الله ينتج لك على جانب المعادلـة الآخـر توبـة ومغفرة وتغيير للأفضل ودمع من خشية الله وحسن خلق ولين جانب.

ضع عذابا ومرضا وبلاءً وبعدا وضـيقا وكربـا ثـم اجعـل عـلى سـهم التفاعل رحمة الله يأتيك على الجانب الآخر فرج وشفاء ويسر وخير وبركة.

تأتيك آثار الرحمة.

إن أي مظهر من مظاهر وآثار بديع صنع الله ينبغي أن يوقظ في القلوب تلك المشاعر مشاعر الإحساس بالرحمة والفرح بها وشـوق القلـب لآثارهـا لتسبح الروح حينئذ في برزخ المحبة وتميـل الـنفس طربـا بريـاح الـشوق إلى الرحيم جل وعلا

﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ ﴾

وللرحمة موجبات ولمن ينالها خصائص وصفات وليست مجرد شماعة يعلق عليها الكسالى تقصيرهم ويبرر بها المرجئة معاصيهم وتميع خصالهم

ولو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل و«إن رحمة الله قريب من المحسنين»

وإن الذي قال: نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم

هو هو من قال : وأن عذابي هو العذاب الأليم

وإن النبي الذي قال : **فلو يعلمُ الكافرُ بكلِّ الَّذي عند الله مِن الرَّحمةِ لم ييْئسْ من الجنَّةِ**

هو بعينه الذي قال : **ولو يعلمُ المؤمنُ بكلِّ الَّذي عند الله من العذابِ لم يأمَنْ من النَّارِ**

لذلك فإن الصواب في التعامل مع هذه الصفة يكون بالتوازن والقصد بين رجاء الرحمة وخوف العقاب

وإن الناظر في آيات رجاء الرحمة يلاحظ أنها قد اقترنت بالعمل والبذل وليس بالتواكل على ذلك الرجاء والتعويل على تلك الرحمة

فإيمان وجهاد وهجرة استحق أهلهم بعدهم أن يكونوا ممن يرجون الرحمة

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

وابتغاء الوسيلة التي تقرب إلى المولى الرحيم أينما كانت وكيفما كانت يجعل اولئك المبتغين أهلا لرجاء تلك الرحمة

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾

وقيام وسجود في جوف ليل دامس تجافت فيه جنوب عن المضاجع الدافئة وقامت قانتة بين يدي ربها أهلت أصحاب تلك الجنوب الجافية والأقدام المنصوبة والجباه الساجدة أن يكونوا ممن يرجون الرحمة

﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾

هكذا ينبغي أن نتعامل مع هذه الصفة

أمل ورغبة دافعة للعمل ونيل الاستحقاق

﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾

أولئك سيرحمهم الله

سؤال ينبغي أن يشغل البال ويحرك الجوارح لإجابته

سؤال: من أولئك؟!

وهل أنا منهم ؟!

كيف تأتيني تلك الرحمة؟

كيف تكون ممن نالوها وكانوا أحق بها وأهلها

وهل أنت من أهل الاستحقاق لأن تنال رحمته كما نالتها تلك المرأة التي صدرت بقصتها لمجرد أنها سقت كلبا

بل ليس لأجل السقيا نالتها

ولكن لأجل الرحمة

رحمة الله بالراحمين.

فهل ترحم

لتُرحم

❊ ❊ ❊

ليتهم يعلمون

(٣٢)

ليتهم يعلمون (٣٢)

من بعيد وجد ريحها
وفي الأفق بدت أبوابها
باهرة هي تلك الأبواب قد تلألأت وأزهرت
إنها تقترب ..
نعم هي التي تقترب
بأبوابها الهائلة وقصورها المنيفة وشذا نسيمها العطر ونعيمها المقيم
لم يعد بينه وبين ولوجها إلا طرفة عين وانتباهتها
- **ادخل الجنة**
ها قد جاء الإذن وتم الفضل واكتملت النعمة
أدخل الجنة؟!
الحلم الذي طالما راودني والأمل الذي لم يغادر فؤادي والغاية الذي لأجلها عشت وعليها مت
قد صارت الآن رأي العين
قد كلل مسعاي بالنجاح وتوج جهدي بالراحة والفلاح
أوحقا يا أذناي ما تسمعان

أدخل الجنة؟ !

الآن؟ !

يا لفرحة قلبي ورضا نفسي

لكن أين قومي؟

أين هم ليروا هذا الفضل ويعاينوا هذا النعيم؟

يا ليتهم يعلمون

ياليت قومي يعلمون

قومك؟ !

أوتسأل حقا عن قومك؟

أوتأبه بهم صدقا؟

أتلتمس حالهم وتبتغي علمهم؟

أولئك الذين استضعفوك وآذوك

بل قتلوك

أم تراك قد نسيت؟

لماذا تسأل عنهم؟!

ليس عليك هنا تكليف ولا ثواب أو عقاب فما دافعك للسؤال؟

ما محرك رغبتك في الدعوة والبلاغ وحرصك على هداية الناس؟!

أهو دأب الصالحين الذين هم كالنحل لا يضعون إلا طيبا

أم هو حرص المؤمنين الذين يحبون للناس ما يحبونه لأنفسهم؟

أم تراه سمت العارفين الذين ذاقوا فعرفوا وعرفوا فاغترفوا؟

لعمري إنه لجماع كل ذلك وبالأخص الثالثة

المعرفة

معرفة الله عز وجل التي متى خالطت القلب بشاشتها نضحت على الجوارح وتهللت بها الأسارير وانعقد عليها العزم واجتمعت عليها النية

وبدون تكليف

كذلك كان حاله في الدنيا

يومها لم ينتظر تكليفا

لم تكن الحاجة إليه ماسَّة ولم يكن الأمر عليه متعينا

إن في مدينته أنبياء

ليس نبيا واحدا ولا اثنين بل كان هنالك ثلاثة أنبياء

وهو رجل عادي من عوام الناس فماذا عساه أن يزيد عليهم أو أن يضيف؟

ما الفارق الذي يمكن أن يصنعه في وجود كل هذا العدد من أفاضل الخلق وأحسنهم بيانا وأبلغهم حجة ومنطقا؟

وهل بعد تكذيب مدينته لأولئك المعصومين يُنتظر له استجابة أو يُظن به قدرة على التأثير؟!

ربما دارت كل تلك الأسئلة والخواطر في ذهن حبيب النجار بينما هو في طريقه من أقصى المدينة ساعيا مُجِدّاً في سيره ليبلغ مكان اجتماع الناس ومنتداهم

ولربما استرجع في تلك اللحظات ما لقيه المرسلون من عنت وصدود وتكذيب

ولعله قد دارت بخلده مشاهد الإهانة والتوبيخ التي قوبل بها أولئك الأخيار والتي تجعل غالب الظن بعد كل ذلك أن يلقى ما لقيه أئمة الحق أو أشد لكنه مع ذلك ما انفك عن السعي وما تباطأ به المسير أو قعد عن البذل!

إنه رجل يعرف هدفه جيدا ويدرك أبعاد قضيته بشكل واضح ويعلم أن مناط تلك القضية ليس مطلق ترتب الثمرة ولا حصول الاستجابة فتلك أمور بيد مولاه، لكن الصدع بالحق كان هو مبتغاه والبلاغ عن الله كان هو غاية مسعاه

لذلك جاء..

ومن أقصى المدينة سعى..

ومن أعمق أعماق نفسه صدع: «يا قوم اتبعوا المرسلين»..

لم تكن دعوته لنفسه ولم يكن مطلبه لذاته ولم يجعل مسعاه لمصلحته بل أعلن تجرده في أول جملة قائلا: اتبعوا المرسلين

لقد كانت دعوة متجردة نقية

كانت صدعا بحق خالص لا تشوبه من شوائب حظ النفس شائبة، فهؤلاء المرسلون الذين لا يسألونكم أجرا والذين هم كذلك لا يطلبون شيئا لأنفسهم هم الأولى بالاتباع،

لقد كان تجردهم قدوة لتجرده وإخلاصهم أسوة لتفانيه وكل ذلك في منظومة صدق متكاملة هدفها الأوحد إعلاء كلمة الله وتوحيده بالعبادة والقصد وبذل الوسع لإبلاغ رسالته

كان هذا لسان حال حبيب النجار وما لخصه لسان مقاله في كلماته البديعة التي خلد ذكرها المولى في كتابه قائلا:

﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾

﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾

﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴾..

كلمات نورانية رقراقة تخاطب العقل والروح معا في آنٍ واحد، نطق بها الرجل في هذه الظروف العصيبة ورغم كل ذلك التكذيب وتلك العوائق والعقبات التي واجهت من هم أعلى منه منزلة وأجل قدرا

ولئن كان من متعذر عن قول الحق والنطق به والصدع بكلماته بدعوى مظنة التكذيب وتوقع عدم الاستجابة لكان رجل يعيش في قوم كذبوا ثلاثة

أنبياء ولم يقبلوا منهم حقا ولم يصدقوا منهم حرفا وما استجابوا لهم هـو أولى الناس بذلك

هو أولى الناس بأن يقطـع الطمـع في هدايـة الخلـق أو يفقـد الأمـل في هدايتهم إلى الحق؟

لكنه لم يفعل..

ولم يتعذر ولم يتلكأ

لم يحقر نفسه ولم يتعذر بعدم أهمية قوله أو يحتج بقلة قيمة صدعه

بل جاء من أقصى مدينته وسعى وتكلم وصدع ونصح ووعظ

ولقد أعذر

فأي همة تلك؟!

وأي إصرار هذا الذي استقر في نفس رجل كان من الممكـن أن يتعـذر بحجة وجود الأنبياء وقيامهم بواجب الصدع والبلاغ

وأي حرص هذا الذي بدا على كلماته وأفعاله ؟!

إنه الحرص على أن يعلم الناس عن ربهم مهما كان الثمن

ولئن كان الثمن حياته نفسه فسيدفعها عن طيب خاطر

لعل أشد ما يثير الدهشة والعجب في تلك القصة وذاك الموقف القرآني الباهر هو الموطن الذي قيلت فيه تلك الكلمة

فلقد قال الرجل: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴾ في دار غير الدار وحال غـير الحال

لقد قالها وهو يكاد يدلف إلى الجنة!

خرجت منه تلك العبارة بعد أن دفع الثمن بالفعل

قالها بعد أن قتله قومه ونال على أيديهم الشهادة

رغم ذلك كان كل همه أن يعلموا!

كانت رغبته وما يشغل ذهنه أن يدرك الناس ما عند الله من المغفرة والإكرام

إنه مشهد يجسد حرصا غير عادي وتفانيا منقطع النظير ورغبة عارمة في هداية الخلق وتعريفهم بالحق..

حتى بعد موته قد ظلت رغبته في هداية الناس يقظة وحرصه على نصحهم وإرشادهم متأججا فقال حين عاين النعيم وأبصر الجنة: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾

في ذلك المقام الذي كان من الممكن أن ينشغل فيه عن كل ذلك بالطيبات التي أُكرم بها وينسى واجب البلاغ

لكنه أيضا لم يفعل، فلم ينقطع أمله في قومه ولم يتكاسل عن نصحهم وبذل الوسع في الأخذ بأيديهم طالما كان فيه عرق ينبض

بل استمر على شأنه هذا حتى بعد أن لم يعد ذاك العرق ينبض وانتقل إلى دار القرار!

نموذج عجيب ونمط فريد

لكنه ليس نموذجا وحيدا

فلطالما كان هناك فتيان لم يحقروا أنفسهم بل قاموا وقالوا الحق كما قاله **أصحاب الكهف** ﴿إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا﴾.

ولطالما وُجد الرجال الذين لم يخافوا في الله لوم اللائمين ولا قمع الطاغين أو بطش المفسدين،

ولكم تكرر هذا المعنى في كتاب رب العالمين ولكم ترسخ هذا المفهوم في كلام سيد المرسلين ولتستقر تلك العقيدة ولتضرب تلك القيمة بجذورها في قلوب المؤمنين.

قيمة البلاغ والصدع بالحق والرغبة في هداية الخلق بغض النظر عن الظروف والمعاملات والمؤثرات المحيطة وبدون تعليق الأمر على مظان الاستجابة من عدمها

إنها قيمة غرس الفسيلة حتى لو كان ذلك بين يدي الساعة وتيقن استحالة إدراك الثمرة

بتلك القيمة «قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾

رغم وجود نبيين أثناء تلك اللحظات الحاسمة التي أمر الله فيها بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة ومواجهة القوم الجبارين وقعود بني إسرائيل عن ذلك ورغم أن كثيرا من الناس سيعلقون هنا مسؤولية النصح والبلاغ على النبيين موسى وهارون عليهما السلام إلا أن رجلين من عوام الناس – على قول جمهور المفسرين– لم يفعلا

إنهما رجلان أنعم الله عليهما بالتقوى والإيمان والفهم الصحيح والعقل الراجح قد استشعرا مسؤولية وعلما أن عليهما واجبا تجاه أمتهما فلم يحقرا نفسيهما كحال كثير من الناس بل تكلما ونصحا وصدعا وأعذرا

صحيح أن بني إسرائيل لم يستجيبوا لهما لكن يكفيهما أن ربهما قد ذكرهما وأنعم عليهما وخلد سيرتهما بتلك القيمة التي تُبرز أرقى معاني الإيجابية والرغبة في تغيير الناس للأفضل مهما قست طبيعتهم ووعرت نفوسهم وصعبت استجابتهم.

وبتلك القيمة أيضا خلد ذكر أولئك **الناهين عن السوء** في قصة أصحاب السبت

أولئك الذين حاول المثبطون تخذيلهم وإبطاء حركتهم الدعوية الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر متحججين بهلاك الناس لا محالة ومدعين أنه لا سبيل لهدايتهم ولا قيمة لوعظهم ودعوتهم فقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾..

ولو أن أصحاب الرسالة قد التفتوا يوما لتثبيط المثبطين وتخذيل المعـوِّقين لما صنعوا شيئا ولكان مآل حالهم القعود ومنتهى سـعيهم التشـاؤب والكـسل ولما ائتمر بمعروف ولا نُهي عن منكر ولما صُدع بحق أو أُبطل باطل

لكن صاحب الرسالة يمضي في طريقه ولا يلتفت ولا يُسلم أذنيه لأهل التخذيل والتثبيط، وهو حين يمضي يضع نصب عينيه أمرين أعلنهما أولئك الناهون عن السوء

أولهما الإعذار إلى ربه والسعي لإرضائه

وثانيهما الأمل في التغيير الذي لا ينقطع وإن انقطعت الأسباب

يظهر ذلك جليا في ردهم على أولئك الذين بـذلوا وسـعهم ليعوِّقـوهم وليكسروا عزائمهم زعما منهم أنه لا فائدة ترجى من صـنيعهم فكـان الـرد حاسما ساطعا براقا: ﴿قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾.

وعلى الدرب نفسه سار من قبلهم **مؤمن آل فرعون**

ذلك الرجل الذي كان يكتم إيمانه خوفـا مـن بطـش الطاغيـة مـدعي الألوهية

لكن تلك اللحظة التي برزت فيها قيمة الصدع والحرص عـلى الأخـذ بيد الخلق إلى الحق كانت قد آنت وحـان موعـدها ومـن ثـم تكلـم الرجـل وفاض ما في قلبه إلى لسانه وجوارحه التي ظهر عليها مدى خوفه على قومـه ورغبته في هدايتهم خـصوصا في نداءاتـه التـي كـان يتلوهـا خوفـه علـيهم وتتبدى من خلال حروفها تلك القيمة التي نتحدث عنها:

﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾

﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾

﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾

﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾..

إنها دعوة الفطرة، والحق، والخيرالعظيم، والنصيحة، والحرص الأمين علي استنقاذ الخلق من العذاب المهين

دعوة نصوح نافعة بهيجة، يجللها الحرص على الإفادة وتفوح منها الرغبة في الخير للمدعو

ألا هكذا فلتكن الدعوة وعلى ذلك فليكن الداعية.

ويالها من قلوب قاسية تلك التي لا تستجيب لمثل هذا الحرص، ولا تتجاوب مع كل هذا اللين والحكمة والموعظة الحسنة

لقد كانت كلماته نصيحة نموذجية شاملة جامعة جمعت بين الترغيب والترهيب والتذكير وضرب الأمثال وحوت المنطق العقلي والمعالجة الإيمانية، والبعد التاريخي، وزينها تواضع الداعية وأدبه واحترامه للمخاطب

ثم ختم الرجل المؤمن بلاغه، وأتم دعوته، وقال بتسليم مطلق وتفويض تام لملك الأنام: ﴿ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾؛ فلم يشترط إجابة ولم يربط دعوته بامتثال أو قبول من مدعويه بل فوض أمره إلى من إليه يرجع الأمر كله

وهكذا كان رجال من عموم الناس صدعوا بالحق في كل زمان ومكان ليسوا بأنبياء ولا مرسلين بل هم بشر عاديون غير معصومين، جمع بينهم قول الحق والصدع بالأمر وعدم كتمان الإيمان الذي خالطت بشاشته قلوبهم وامتزج ضياؤه بقناعة عقولهم

لم يشترطوا على ربهم أن تنجح دعوتهم، ولا أن تثمر مسيرتهم، فكان حالهم ومآلهم نموذجا عمليا وتطبيقا واقعيا لتلك القاعدة الربانية: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾.

وإن من الناس من يظن أن صدعه بما يراه حقا وجهره بما يعتقده صوابا وصدقا إنما هو مرتهن بمظنة استجابة الناس له وطلبهم لسماعه وقبولهم لقوله، فإن غلب على ذلك الظن أنهم سيستجيبون نطق وإن آنس منهم رغبة في سماعه صدع، وإن كانت الأخرى سكت وكتم وأعرض؛

قد طابت نفسه وارتاح ضميره بمسكنات «لا فائدة» ومهدئات «هلك الناس»، ونسي هؤلاء أو تناسوا أن المرء إنما يصدع لينجو، وإنما ينصح ليُرضي ربا لم يتعبده بالنتائج ولم يكلفه بالثمار، وأنه أحوج إلى النطق بالحق والجهر به ممن يسمعونه سواء أستجابوا له أم لم يستجيبوا، متمثلا نهجا قويما لطالما سلكه الدعاة وأقره كتاب الله

نهجا فحواه: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾..

وما يدريه ألا يكونوا من أهل قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾؟

فما بال أقوام يتعذرون ويتلكئون، وعن قول الحق والصدع بالنصح هم معرضون، ورغم الحاجة إليهم هم مبتعدون، وعن قـومهم هـم محتجبـون، ولقضايا أمتهم هم مهملون، فمتى يظهرون، وإلى ربهم يعـذرون، ولأمـتهم ينصحون، وللواء قضيتهم يرفعون،

متى عساهم يشعرون ويحيون بقيمة: ﴿يَـٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴾

❊ ❊ ❊

ثم يأتي الفتح

(٣٣)

ثم يأتي الفتح (٣٣)

«سَيفتَحُ الله باباً كنت تحسبهُ .... من شدة اليأس لم يُخلق بمفتَاحِ»

خائفا يترقب

هكذا كان حاله حين خرج منها

لا يأمن على نفسه

مطاردا مستهدفا مهدور الدم

طريق طويل من مصر إلى أرض مدين وصحراء قاحلة عبرها وحده

ترى هل سيلحقون به ؟

هل ستمضي مؤامرتهم لقتله والخلاص منه؟

وكيف سيعيش هنا

وأين المأوى ومصدر الرزق وهو الذي عاش حياته لا ينشغل بكل ذلك وقد كان في مكانة أمير في البلاط الملكي

الآن هو طريد شريد بلا مأوى أو ملاذ

الأمور صارت معقدة والأسباب تكاد تكون مغلقة

لكن ما هذا التجمع الذي يبدو من بعيد؟

أخيرا سيشرب إذن

بعد تلك الرحلة الطويلة ها هو ماء مدين يتزاحم عليه الناس

لم تزل به قوة وعنفوان رغم الرحلة الشاقة التي دامت أياما وليال

سيستطيع أن يرتوي ويملأ سقاءه

لكن مهلا

ما لهاتين الفتاتين تذودان

ضعيفتان هما لا تستطيعان مزاحمة الرعاء الذين لم يرحموا ضعفهما

ما الذي يدفع بامرأتين لهذه المخاطرة وتلك المهمة القاسية

- ما خطبكما

- لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير

إذن فهذا هو السر

الأمر اضطراري والمهمة القاسية لا مناص عنها

وإن المروءة خصلة متجذرة فيه والشهامة طبع لا يفارقه

ها هو يزاحم الرعاة الغلاظ الشداد ويتحمل تدافعهم رغم إرهاقه الشديد بعد عناء السفر

لم تمض دقائق إلا وقد عاد بسقاء الفتاتين ممتلئا عن آخره

انصرفت المرأة وأختها في حياء ممتن

الآن قد اجتمعت كل عوامل الإرهاق والنصب البدني جنبا إلى جنب مع هموم الإغلاقات التي تتكالب عليه

إغلاقات لم تتسرب إلى قلبه المترع بأمل في الله

ها هو يتولى إلى الظل في تسليم وافتقار وعلى لسانه مناجاة لا يملك غيرها في تلك الظروف القاسية

رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير

إلى غناك هو مفتقر

وإلى قوتك هو ضعيف

وإلى فضل جودك وسعة رحمتك هو راغب مضطر

فهل تراك تخيب ظنه؟!

حاشاك حاشاك أن ترد سائلا مفتقرا

ها قد جاء الفرج وهلَّ الخير على قدم الواردين

ها قد جاء الفتح من عند **خير الفاتحين**

فتح لكل المغاليق السابقة

فتح في الأمن وفتح في الرزق وفتح في المأوى والسكن والمودة والرحمة

فتح تحدوه خطوات حيية جاءت تحمل البشرى

- ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ﴾

فتح لمغلاق الرزق الآني هو إذن ذلك الذي تبشر به تلك الفتاة الحيية

- ﴿لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

فتح لمغلاق الأمن يتبدى من كلمات الرجل الصالح والد الفتاتين وقد سمع منه القصص وأدرك ما ألم به من الظلم فأمنه وطمأنه

- ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾

لن تعود وحيدا يا موسى فقد جاء فتح المودة والرحمة والسكنى لزوج حيية أكرمك الله بها وفتح لك

- ﴿عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ﴾

عقد هو إذاً

وظيفة مستقرة وعمل ثابت لسنوات تحددها أنت يا موسى

أي فتح هذا وأي فضل

منذ ساعات كنت خائفا تترقب تأوي إلى الظل مفتقرا

الآن قد أجرت وزوجت ووظفت وأمنت ونجوت

وفتح لك

لأنه الفتاح

الفتاح الذي يفتح مهما بلغت المغاليق ويفرج مهما ضاقت واستحكمت حلقاتها

يفتح حتى لو ظن كل الخلق أنه لا يفتح أبدا

حتى لو بلغ الاستيئاس مبلغه وظن الرسل أنهم قد كذبوا وتقطعت بهم الأسباب فإنه يفتح

إنها الصفة التي تتجلى في تلك **النهايات السعيدة**

نعم

مع الفتاح النهاية سعيدة في الدنيا أو في الآخرة

المهم أن يعاملك بالفتح

فإذا فتح كان فتحه مبينا عظيما

لقد بلغ الحزن **بيعقوب** عليه السلام مبلغه وابيضت عيناه منه فهو كظيم ثم جاء الفتح واجتمع الشتيتان ورفعه ولده يوسف على العرش وظهر تأويل الرؤيا بالحق

لأنه لم ييأس من روح الله

وعلم أنه يفتح

ولقد بلغ الكرب **بأم المؤمنين عائشة** مبلغه حتى أنها نسيت من شدته اسم نبي الله يعقوب وقالت: لا أقول إلا كما قال أبو يوسف فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون

إنها الصديقة الحصان الرزان العفيفة التي لا تزن بريبة ورغم ذلك رُميت في عرضها وابتليت هي وخير الخلق زوجها وصاحبه أبوها ووليها أشد البلاء لشهر كامل

ثم جاء الفتح وظهرت البراءة بقرآن يتلى إلى يوم الدين

وإن **الإغلاق** كان ماديا حقيقيا مع **أصحاب الصخرة** الذين أغلق عليهم الغار

صخرة تسقط من جبل وما أدراك بصخور تهوي في انهيار جبلي

ربما لا تفتح أبدا إلا بعد سنوات في انهيار جبلي آخر يجد الناس بعده ثلاثة هياكل عظمية قضوا نحبهم خلف تلك الصخرة

لكنه فتح

لقد أحسنوا الظن بالفتاح ودعوه بصالح أعمالهم وأكثرها إخلاصا وتجردا فكانت الإجابة وكان الفتح

وانفرجت الصخرة وخرجوا يمشون

وكذلك في سائر النهايات السعيدة

كربات وأحزان وتضييقات وإغلاقات

ثم يأتي الفتح من الفتاح

وإن المرء بحاجة إلى فتح الله في كل شيء

حين يستحكم البلاء ويضيق العيش وتغلق السبل

فمن لها إلا الفتاح؟

حين يصل المرض إلى حالة الإغلاق التي تشتهر بين الأطباء بلفظ بغيض

لفظ: حالة ميئوس منها

من لها إلا الفتاح

لا أتحدث عنها عن مطلق الشفاء فذاك تجل لاسم الله الشافي

لكنني أتحدث هنا عن شفاء من نوع خاص

شفاء بعد إغلاق

مرض عضال احتار فيه الأطباء وعجز معه كل دواء

هنا نحتاج إلى فتح من الفتاح

حين يفقد الأمل في الأسباب تتوجه القلوب إلى الفتاح

فلا يأس مع الفتاح

هكذا ينبغي أن تكون القاعدة

و على ذلك فقس كل مغاليق الدنيا

قس على ذلك الرزق حين تغلق سبله والنسل حين تتقطع أسبابه والكرب والبلاء حين تستحكم دائرته

هنا ليس لها من دون الله كاشفة

وليس لها إلا الفتاح جل وعلا

والظلم..

حين تدلَهِمُّ خطوبه وتشتعل نيرانه في دنيا المظلوم فلا يجد لنفسه سببا يدفع به الظلم عن نفسه

من له إلا الفتاح ؟

﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾

ثلاث كلمات دعا بهن **نوح** عليه السلام في ذلك الموطن

مئات السنين والقلوب مغلقة والآذان تسدها الأصابع والأعين عليها غشاوة وحجاب

الوضع صار مغلقا

ونبي الله ووليه مغلوب!

فانتصِر

هكذا طلب وبهذا دعا

فتحت الحجب لهذا الدعاء فكانت أول كلمة بعده

﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾

وانتصَر..

وفتح الله بينه وبين قومه بالحق

وهو خير الفاتحين

وهكذا حدث مع **شعيب** عليه السلام

تعقدت الأمور وازداد العنت وبلغ الفجور مبلغه بقومه حتى قرروا أن يخرجوه من قريتهم هو والذين آمنوا معه أو يكرهونهم على العودة إلى ملتهم

أي ظلم هذا؟!

وأي استكبار وعلو قد وصلوا إلى دركاته

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ﴾

صمد شعيب عليه السلام ولم ينكسر لظلمهم ولم يرضخ لبغيهم وقال : ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ﴾

لكن الإغلاق قد بلغ أشده والعنت قد وصل إلى منتهاه والقوم يأبون إلا استضعافه والبطش به

هنا يأتي الدعاء الفاصل ويرغب المظلوم في فتح مولاه

هنالك دعا شعيب

﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾

فجاءه الفتح

وعامله الله باسمه الفتاح

وفتح بينه وبين قومه بالحق

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾

﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾

وإن كل نصر أو تمكين نالته تلك الأمة أو الأمم السابقة إنما كان بفتح من الفتاح فما النصر إلا من عنده وما فتح مغاليق الدنيا إلا بيده

سيفتَحُ الله باباً كنت تحسبهُ ....

من شدة اليأس لم يُخلق بمفتاحِ

وهل كانت غزوة بدر ونصر الفئة القليلة إلا بفتح من عنده؟

وهل كان الرعب الذي ألقي في قلوب الروم يوم تبوك إلا بفتح من الفتاح العليم؟

وهل كانت فكرة الخندق يوم الأحزاب إلا فتح من الله خير الفاتحين؟

وهكذا مع كل فتح ونصر وتمكين في الدنيا

قد يتأخر

لكنه يأتي في النهاية

يأتي متى شاء الله وكيف شاء

لقد قيل أن ابتلاء **أيوب** عليه السلام دام ثمانية عشر عاما حتى جاء الفتح وكشف الله ما به من ضر

وقيل أن افتراق **يوسف** عليه السلام عن أبيه جاوز الأربعين عاما حتى بلغ أشده

ثم جاء الفتح وكان اللقاء وجمع الله شملهما

وقيل أن أعواما طويلة كانت قد مرت حتى **استجاب الله دعاء موسى** عليه السلام على فرعون وقومه وطمس على أموالهم وشدد عليهم وأذاقهم العذاب الأليم وفتح بين موسى وبينهم بالحق وهو خير الفاتحين

ولقد مكث **المسجد الأقصى** في الأسر عشرات السنين

حتى جاء الفتح وحرره صلاح الدين

ومكث **نوح** عليه السلام يدعو قومه مئات الأعوام دون كلل أو ملل حتى فتحت أبواب السماء بماء منهمر وفجرت الأرض عيونا والتقى الماء على أمر قد قدر

وفتح الله للمغلوب وانتصر

وكذلك فتح الله

يأتي متى يشاء

وإن طال الزمان واستيأس الناس

فإنه يفتح في النهاية

المهم أن يوقن عبده ويثبت على الحق ولا يحملنه استبطاء الفتح على التفريط أو الشك

ربما يكون هذا الفتح في آخر لحظة حين تمام الاستيئاس .

حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين

لقد ظل النبي ﷺ يمر على الوفود التي جاءت إلى مكة للحج

يعرض عقيدته ويدعوهم إلى الله ويطلب منهم نصرته

ظل كذلك طيلة أيام الحج حتى كان اليوم الأخير

اليوم الأخير من أيام الحج ويظل فيه النبي على مثابرته وإصراره واستفتاحه

وفي آخر لحظة جاء الفتح وشرح الله صدر وفد يثرب وكانوا أنصار الله

ما استعجل الثمرة وما يأس من المحاولة حتى فتح الله له متى شاء

وحين قرر قوم إبراهيم أن يلقوا به إلى سعير أوقدوه أما كان من الممكن أن ينجيه الله قبلها ؟

أوليس الله بقادر على خسف الأرض بهم وهدم بنيانهم الذي بنوه ليوقدوه ؟

بلى قادر

لكن شيئا من هذا لم يحدث

لقد جاء الفتح وتبدلت السنة الكونية بأن النار تحرق كرامة لك أيها المقدام

﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾

ومتى وأين؟

في آخر لحظة

في داخل النيران

لقد صار الجحيم بردا وسلاما لك أيها الخليل ،

فلتذب النار القيود ، وليخرج الخليل ، وليمش بين الناس لم يصبه مس من لهيب!

نعم الرب ربك يا إبراهيم ، ونعم الكرامة كرامته ونعم الفتح فتحه

وإن تأخر

وهل أدى تأخر الفتح إلى شك يتسرب إلى نفس إبراهيم ؟

حاشا وكلا

لقد ظل إلى آخر لحظة مطمئنا إلى فتح الله راغبا فيه مرددا كلمة واحدة لا يلفظ غيرها حتى وهو يقترب من النيران

حسبي الله ونعم الوكيل

أثق به

وأرغب في فتحه

وأوقن بمآله

وإن تأخر

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾

تأمل متى

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ ﴾

من بعد أن يأس البعض

لكنه جاء متى شاء

وكيف شاء..

ربما من حيث لا تتوقع

لا تدري لعل رضيعا يكون على يديه الفتح

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

تأمل حال بني إسرائيل وما نالهم من بطش فرعون

• علو الطاغية

• إفساد في الأرض

• تقسيم الشعب إلى جزر متباعدة وشيع متحزبة وتمزيقه إلى طوائف كثيرة

• استضعاف وهوان

• تذبيح ولدان

• استحياء نساء وامتهان

ثم كانت إرادة الله بالمنة والفضل للمستضعفين وجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾

﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾

فجأة يتغير الخطاب تماما وتنتقل الأعين المتابعة للقصة من صرخات المستضعفين وسياط الجلادين العالين في الأرض إلى مشهد مختلف عجيب

أم ترضع وليدها !!

والدة تخشى على فلذة كبدها

هنا قدر الله أن تكون البداية

بداية الفتح

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾

حتى إلقائه في اليم كان جزءا من ترتيب الفتح

﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ﴾

سبحان من جعل المغرق ملاذا

إذا خفت عليه فألقيه في اليم!!

و هل اليم أمنة للرضيع؟؟

إن موجة واحدة عالية كفيلة بإغراقه

لكن المولى وعد

﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

حتى لو كان عدوه هو من التقطه

حتى وإن كان المتربص به هو من وجده

حتى لو كان من يريد ذبحه هو من وقع في يده

﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴾

إلا أن الأحداث كلها كانت في اتجاه الفتح تسير

﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

لكن يكاد الرضيع أن يهلك بعد أن تحرم عليه المراضع ولا يطعم شيئا منهن

﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾

ثم يعود إلى الأم

وينفذ الوعد

وكان وعد ربي حقا

﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

وتستمر القصة التي تنتهي بهلاك الطاغوت كما نعرفها جميعا

لكن البداية كانت به

برضيع لا يشعر به أحد

هل كان أحد يتخيل أن يكون إلقاء موسى عليه السلام إلى اليم بداية للفتح ونهاية لأسطورة الطاغوت فرعون؟

وهل كان يوسف عليه السلام يتصور أن يكون السجن مصدرا للفتح سبيلا للفرج وبداية لملك مصر وخزائنها التي صار عزيزا لها ؟

وهل كان أحد يتصور أن تكون معاهدة الحديبية التي قد تبدو شروطها جائرة سبيلا لدخول الأمم في الاسلام وسببا في الفتح المبين؟

الجواب: لا

لكن الله قضى أن تكون تلك الأمور -التي تبدو بسيطة أو غير متوقعة- أسبابا للفتح وقدر أن يكون المغرق ملاذا والسجن عزا وبداية فتح

و تلك أمور لا يدركها إلا هو ويعلم مآلها غيره

ولا تدري لعل رضيعا يعد الآن قد تكون بداية الفتح على يديه وقد تكون كل الأحداث والمجريات والآلام والأحزان التي تمر بالأمة هي محض إعداد وصقل وصناعة له وللجيل الذي يفتح الله على يديه

ثم يأتي الفتح

ويفتحُ الله باباً كنت تحسبهُ من شدة اليأس لم يُخلق بمفتاحِ

❊ ❊ ❊

فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة